عدي جاسر الحربش

أمثولة الوردة والنطاسي

مجموعة قصصية

اليوم
جداول Jadawel

عدي جاسر الحربش

أمثولة الوردة والنطاسي

مجموعة قصصية

جداول Jadawel

الرقوعة

أمثولة الوردة والنطاسي

الكتاب: **أمثولة الوردة والنطاسي (مجموعة قصصية)**
المؤلف: **عدي جاسر الحريش**

جداول
للنشر والترجمة والتوزيع
رأس بيروت - شارع كراكاس - بناية البركة - الطابق الأول
هاتف: 746638 1 00961 - فاكس: 746637 1 00961
ص.ب: 5558 - 13 شوران - بيروت - لبنان
e-mail: d.jadawel@gmail.com
www.jadawel.net

الطبعة الأولى
آذار / مارس 2016
ISBN 978-614-418-315-1

جميع الحقوق محفوظة © جداول للنشر والترجمة والتوزيع

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

طبع في لبنان

Copyright © Jadawel S.A.R.L.
Caracas Str. - Al-Barakah Bldg.
P.O.Box: 5558-13 Shouran
Beirut - Lebanon
First Published 2016 Beirut

طُبع على نفقة مؤسسة
ريم وعمر الثقافية

المحتويات

سربندي 7
الوردة والنطاسي 15
شجرة بني يام 35
إرم 49
خنجر يمان 61
اختفاء الحاكم بأمر الله 87
عليّون 107
الأفكار الأخيرة التي دارت في رأس جيوردانو برونو 113
برج بابل 123
شجرة النبق 131
سر أبي الطيب 145
شاخ نبات 153
قيس والظبية 169
وزارة الأسرار 175

سربندي[1]

«لم يكنْ وصلكَ إلا حلمًا، في الكرى أو خلسةَ المختلسِ»

(لسان الدين بن الخطيب)

أقفل الفضل باب داره وانطلق قاصدًا دار المدنيات[2]. ما إن مشى بضع خطواتٍ حتى تذكر أنه نسي عودَه. رجع مغضبًا إلى داره وتناول العود بعصبية. كيف ينسى العودَ في يومٍ مثل هذا؟ عندما خرج، استقبلته الطيور وهي تغني مؤذنة ببدء يوم جديد، وترامت فوقَ وجهه أشعة الشمس وهي تغازل شوارع قرطبة. كان لكل هذا أن يسعده وأن يسرّيَ عنه، لو لم يكن مشغولَ البال بالمصيبة التي أوقعَ نفسه فيها: أن يتحدى زريابَ وفي مدرستِه! إنها الحماقة بعينِها.

ولكن ليس من حق هذا الرجل الغريب الذي استقبلته الأندلس فاتحة ذراعيها أن يتبجح مخاطبًا قمر البغدادية يومَ أن التحقت

(1) السربندي أو السربند هي رقصة إسبانية قديمة ثلاثية الإيقاع، انتشرت في أنحاء أوروبا وأمبركا، خصوصًا بعد أن استخدمها الكاردينال ريشيلو في حفل استقبال الملكة آن. ورد ذكر الرقصة في أعمال سيرفانتس ولوب دي فيجا، واستعملها أشهر موسيقي العصر الباروخي كهاندل وباخ. يُقال أن أصول الرقصة الميثولوجية ترجع إلى فتاة إسبانية جميلة رقصتها وهي تغني لحنا بالغ الحزن.

(2) دار المدنيات: المعهد الموسيقي الأول في الديار الأندلسية، أسس في عهد الأمير الأموي عبد الرحمن بن الحكم في قرطبة.

بمعهدِه: «هنالك شيء عراقيّ لن يتشربه الأندلسيون أبدًا. لا أدري أهو الحزن أم العمق، ولكن عزفهم يظل مفتقدًا إلى الأصالة». كيف يقولُ هذا، وهو الذي اختير كي يكون أستاذًا ونموذجًا للغناء الأندلسي! إنها الخيانة بعينها. ولكن مهما جادت عليك أرض شبابك وشيخوختِك، يظل انتماؤك الحقيقي يرجع دائمًا إلى أرض ولادتِك. لهذا السبب، نهض الفضل مغضبًا وهو يصرخ مقرّعًا أستاذه: «كذبت! بل إن الأصالة والتوشيح والطرب لم تنبثق إلا من رحم هذه الأرض». قال هذا، والكل يسمع ويشهد: بنو زرياب الثمانية، وابنتاه علية وحمدونة، والجواري فضل وغزلان وهندية ومتعة ومؤامرة وفلة، حتى الشفاء الرومية وقلم الأندلسية، وعباس بن فرناس، كلهم كانوا حاضرين. يتذكرُ الفضل جيدًا كيف امتقع وجه زرياب، وكيف أخذ يتفوه بصعوبة بكل كلمة وكأنه ينتزعها انتزاعًا من شفتيه: «وما أدراك أنت ما الغناء! هل تريد أن تجربَنا؟ لك ذلك. سوف أعطيك مهلة أسبوع، وسنتبارى في العزف ها هنا. إن أنتَ غلبتني، لك أن لا أمسكَ بالعودِ ثانية».

ها قد مرّ أسبوع كامل، دون أن ينبثق صوت أو لحن أو موشح من بين أوتار الفضل. كيف سيستقبل سخرية الأستاذ وطلبته، وكيف سمح لنفسه أن ينصب نفسه مدافعًا عن الديار الأندلسية والغناء الأندلسي دون أن يكون أهلًا لذلك؟ هل ستعني خسارته أمام أستاذه زرياب أن الغناء العراقي أكثر أصالة من الغناء الأندلسي؟ يا للظلم ويا للخسف! لا بدّ أن عشرات الألحان تتراقص الآنَ في مخيلة زرياب الخصبة، لا لشيءٍ إلا لتؤكدَ هزيمة التلميذ أمام معلمهِ الذائعِ الصيت.

بينما الفضل مستغرق في أفكاره، تناهت إلى أسماعه جلبة ناس

يتحلقون حول الساحة المقابلة. استطاعَ الفضلُ أن يستخلصَ من بين الهمهماتِ صوتَ غناءٍ عذب، بالكادِ يُسمع، وكأنه يجري في طبقةٍ سفلية مفصولةٍ عن باقي الأصوات. اتجهت قدماه دون شعورٍ منه ناحية الساحة، ليستقبله جدار من الناس المتجمهرين حولَ فتاةٍ ترقص وهي تغني بصوتٍ منخفض، وتقرع بين أصابعها صنوجًا من الخشب الأسود. كان في غناء ورقص الفتاة شيء يقطع نياط القلوب. سأل الفضلُ رجلًا يقفُ أمامَه:

«ماذا يجري؟ من الفتاة؟ ولماذا يتحلق الناس حولَها؟».

«كل ما أعرفه أنها فتاة مسيحية، وأنها كانت تتعشقُ غلامًا مسلمًا، وأن ذاك الغلام هجرها كي يتزوج ابنة عمه. شيء من هذا القبيل! يقولون أنها خرجت تجري وراءه دون أن يحفلَ بها، وأنها بعد مضي بعض الوقت دخلت دارها، ثم خرجت حاسرة، وهي تغني وتقرع بالصنوج».

كانت الساحة مضلعة في شكلها، حيث تنحدر الأرضية المبلطة بالأحجار لتصنع درجتين متتاليتين، تعطيان للساحة المنخفضة حدودها المستطيلة. تجمهر الناس أعلى الساحة، وجلس بعضهم على الدرجات الحجرية، بينما تركوا الأرضية المنخفضة بكاملها للفتاة الراقصة. لم يتجرأ أحد على الاقتراب منها أو إزعاجها، إذ أنهم كانوا يشعرون جميعًا بماهية الفتاة الشفيفة الناعمة، والتي هي أوهى من أن تُلمس أو تُزعج. حاول الفضل أن يصخي بأذنيه نحو الكلمات التي كانت الفتاة ترددها، والتي كانت تضبط على وقعِها سرعة خطواتها. خُيل إليه أنه سمع شيئًا مثل هذا:

قَلبي هَجَرني
إذ مَضَى حِبي
ويحي يا ويلي
فليجرِ دمعي الآن

كانت نظرات الفتاة مكسورةً ساهمة، شاخصة إلى مكانٍ آخر، لا ينتمي بأية حال إلى ما حولها. تأمل الفضل وجهها الحلوَ الشاحب، وشعرَها المعقوص الأشقر، وقدميها البضتين الصغيرتين، فأحسّ بحزنٍ شديد. أكثر ما أدهش الفضل هو الطريقة التي اختارتها الفتاة كي تعبرَ عن حزنِها: الرقص. لماذا الرقص؟ لم تبكِ بصوتٍ عالٍ، لم تلطم ولم تمزق ثيابَها، بل رقصت! تمنى لو أنهُ يستطيع أن يمسك بماهيتها، أن يخلصَ إلى كنهها؛ هل هو الحزن؟ الموسيقى؟ الشجن؟ الفقد؟ ما هو بالضبط؟

فجأةً، انحنت الفتاة بقامتها المنهوكة فوق إحدى العتبات. صنعتْ وسادةً من كفيها، أسندت رأسها، ونامت. تعالتْ الأصوات والصرخات، وكما أن التعويذة التي سمّرت الناس أماكنهم انكسرت فجأة بتوقف الفتاة عن الرقص. تدافع الجميع إلى الأسفل، وعلت الهمهمة وساد اللغط. حاول الفضل الاقتراب نحو جسد الفتاة النائمة، لكن دون فائدة. سرعان ما كاد قلبه أن يتوقف عندما علا الصياح والعويل. لقد ماتتْ! الفتاة المسيحية التي كانت ترقصُ قبل قليل أمامَ الناس ماتتْ! بدون لغط ولا ضجة، تمددت على الأرض، أسندت رأسَها فوق كفيها، ثم أسلمت روحها، كاللحنِ تمامًا.

انشغل الفضل طوالَ الطريق بالتفكير في ماهيةِ الفتاة وكنهِ الشيء

الذي رآه. تمنى من كل أعماقه لو أنه استطاع أن يمسك تلك اللحظة الزائلة. لم ينتبه على نفسه إلا وقد توقفَ أمام دار المدنيات. كان تلاميذ زرياب ينتظرونه على عتبة الدار. أحكم الفضلُ قبضته حول عودِه، وبلع ريقه، ثم دخل. على إحدى الدكات، كان زرياب يتصدر المجلس، وقد تحلق حوله بعض رجالات الدولة والأعيان. إنه لا يتورع ـ كما جرت عادته ـ عن تحويل أية منافسة أو مناسبة إلى احتفال يثبت فيه أنه الأفضل. تساءل الفضل: هل يجدر بي أن أعتذر وأخرج، بدل أن أخزي نفسي على رؤوس الأشهاد؟ جلس الفضل في المكان المخصص له، مقابل زرياب. سأله معلمه:

«هل تبدأ، أم أبدأ؟».

«ابدأ أنت».

تناول زريابُ ريشة النسر التي اشتهر بها، وضرب بها سريعًا على أوتاره الخمسة، ثم حين تأكد من ضبط الأوتار، اندفع بصوته الجهوري ليهزّ جنبات القاعة:

قالوا خُراسان أقصى ما يُرادُ بنا
ثمّ القفول فقد جئنا خراسانا
ما أقدرَ اللهَ أن يدني على شحط
سكانَ دجلة من سكانِ جيجانَ

غنى بهذين البيتين، ثم حين فرغ منهما، بدأ يقرعُ بريشته فوق الأوتار بسرعة جنونية، وينقلها من أعلى إلى أسفل، ومن نغم منخفضٍ إلى نغمٍ عالٍ، حتى تمايلَ جميع منْ بالمجلس طربًا ونشوةً. عندما فرغ، ألقى بريشة النسر، وأخذ ينظر نحو عيني الفضل، مباشرة.

أحسّ الفضلُ بمزيجٍ من الغضب والحرج. لم يأتِ زرياب بواحدٍ من أجمل أصواته وحسب، وإنما اختار أبيات شاعرٍ عراقي: العباس بن الأحنف تحديدًا، وهو يتوجعُ على بغداد وبُعدِ بغداد، لكي يوجه إهانة لكل ما هو أندلسيّ. ماذا سيفعل الآن؟ هل ينحني ويعترف بالهزيمة، ويخذل نفسه، ويخذل الأندلس، ويخذل الأرض التي وُلد عليها، ويخذل الموشحات، ويخذل الفتاة؟

عند هذه الفكرة توقف الفضل مصعوقًا: إنها الأندلس! ماهية الفتاة التي كنتُ أتساءل عنها، عن كنهِ رقصها، الأندلس! بعجمتها، وأبياتها التي لا تستقيم على وزن ولا معنى. بحبها المستحيل المتطاول ما بين المسيحية والإسلام. بموتها، بجمالها، وضياعِها. إنها الأندلس! إذا استطعتُ أن أعزفَها، إذا استطعتُ أن أبعثَها ثانية، أن أعيدَ بأوتاري وقع خطواتها، وبطءَ حركاتِها، وفداحةَ حزنِها، وفقدَها، حينها فقط سوف أري زرياب ما كنت أعنيه.

أمسك الفضلُ بريشته، وبدأ العزف. لم يكن على وعيٍ بما يفعل. لم يفكر أين يضع ريشته. لم يفكر أي الأوتار يضرب. كان ذهنه منصرفًا كليًّا إلى استحضار المنظر الذي شاهده في الساحة، ولم يكن يدري إن كان هناك انسجام وتوافق بين أفكارِه وبين يدِه. كانت نياطُ قلبه تتقطع، لا بفعل الأنغام التي يعزفها - فلقد كان ذهنه منصرفًا كليًّا عن الاستماع إليها - ولكن لأنه كان يعلم في أعماق أعماقهِ أن الأندلسَ ستضيع، كالفتاة التي ماتت، ذلك لأنها بالغة الجمال، بالغة الاكتمال، ومصير كل كاملٍ أن يفنى على هذه الأرض.

أما زرياب وباقي الحاضرين، فلقد شاهدوا عجبًا ذلك اليوم. لقد كان

عهدهم بالموسيقى الاستماع، ولكنهم لأول مرة يرونها مجسمةً أمامهم. من ألحان الفضل؛ تكونت فتاة بالغة الجمال، بالغة الحزن، وأخذت تقرعُ بأصابعها صنوجًا ضبابية، وتنقل بينهم خطى حزينة راقصة. لم يجرؤ أحد على أن يتطاول بيده كي يتأكدَ من ضبابيتها، فلقد كانوا يدركون جميعًا ماهية الفتاة الشفيفة الناعمة، والتي هي أوهى من أن تُلمس أو تُزعج. انحنت الفتاةُ على آخر أنغام الفضل نحوَ الأرض، وأسندت رأسها فوقَ كفيها، وعندما انتهى الفضل من عزفه، تلاشتْ وكأنها لم تكن.

التفتَ الجميعُ مذهولين ناحية العازف المغمور، وتدافعوا كي يشدوا على يده ويهنئوه، إلا أنه فاجأهم بأن وضع عوده جانبًا على الأرض، ليغادر الباب بهدوء، وعيناه لا تكادان تبصران من الدموع.

الوردة والنطاسي

«وها هنا زعترٌ جبلي، إنه للذكرى؛ أرجوك يا حبيبي: تذكر!»

(ويليام شكسبير)

(1)

في غُرّة شهرِ محرم عام اثنين وستين وستمائة للهجرة، صدرَ مرسومٌ سلطاني من جهةِ جبلِ المقطّم، وبختمِ السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، يحذرُ من الاجتراءِ على تدنيس القبور، وانتهاك حرمة الأموات، ويتوعدُ بالجلدِ والحبسِ كلَّ من سوّلت له نفسه خلافَ ذلك. لجّ العامةُ بالحديث عن سببِ صدورِ هذا البيان، واستغربوا ما جاءَ في متنه، إلا أن المجرّب منهم علمَ أن للمرسوم علاقة بالشكوى المرفوعة من قبل أعيان التجار اليهود القاطنين أسفل باب النصر، والذين لم يعد بإمكانهم الصبر أكثر على الانتهاك الخفي والمتكرر للقرّافة الخاصة بموتاهم.

حرصَ رئيس الشَرطة أول الأمر أن يرسل كوكبة من رجالهِ يحرسون المقبرة، ورغم أنه كان معروفًا بين الناس ببغضه الشديد لليهود، إلا أنه لم يكن يملك أن يعصي مرسومًا ممهورًا بختم السلطان نفسه. ولكنه ـ وبعدَ انقضاءِ أسبوعٍ كامل دون أن يُنبشَ قبرٌ

أو تُسرق جثة - لم يسعه إلا أن يرسل رجاله نحو مناطق أخرى أكثر شغبًا وأجدى بالمراقبة؛ كباب زويلة والحجارين، وبندرة الإسلام وسويقة علي. لهذا السبب، وبعدَ أن مرّ شهر على صدور المرسوم السلطاني، لم يجد القاسمُ كبيرَ حرجٍ في التسللِ مجددًا مع أستاذه أبي الحسن علاء الدين، مُستَتِرين بجُنحِ الليل، ليعاودا اقتحام القرّافة الخاصة بيهود القاهرة.

توقفَ القاسمُ أمامَ قبرٍ يُفترض أن يكون رطبَ الثرى، ونظر إلى أستاذه أبي الحسن وكأنهُ ينتظر منه نظرة تشجيع، وعندما أومأ الأخيرُ برأسه، هوت مجرفةُ القاسم لتنبشَ أرض القبر وتقلبَ تربته. التفتَ الأستاذ يمنة ويسرة ليتثبتَ من خلو المقبرة، وعندما عاد ببصره إلى القبر، رأى المجرفةَ ترتدُ سريعًا وقد اصطدمت بتابوت. أزال القاسمُ باقي التراب عن الصندوق الخشبي، وانحنى أبو الحسن إلى الأرض ليفتحَ عنقَ جرابٍ كان يخفيه في ثيابه، وبعد أن أخرجا الجثة الملفوفةَ في أكفانها البيضاء، تعاونا على حشرها في الجراب، وانطلقا بسرعة مغادرين المقبرة، بعد أن أغلقا التابوت وأهالا التراب فوقه.

رفعَ القاسمُ الجرابَ فوقَ ظهره، وانطلق يمشي متثاقلًا تحت ظلال الحيطان، وقد تقدمه أستاذه أبو الحسن يستشرف الطريق ويتأكد من خلوه من الشرطة. كانت دار أبي الحسن في قيسارية الملقية، ولم يكن يلزمهما إلا أن يقطعا دربًا قصيرًا كي يصلا بحمولتهما المشبوهة إليها. عالج أبو الحسن قفل بابه بالمفتاح ودخل مسرعًا، وتبعه القاسمُ دون أن ينتظر إذنًا أو إشارة، فلقد كان يعرفُ الدار جيدًا، وخصوصًا تلك الغرفة الشرقية الخاصة بأبحاث أستاذه ذات الطبيعة الشائكة.

ألقى القاسمُ الجثةَ على طاولةٍ خشبية تتوسط الغرفة، وسحب الجراب، وأزال الأكفان، فإذا بوجه اليهودي المتصلّب يستقبلهما، بعينين غائرتين، وفكٍ ملتحٍ مائل. أقفل أبو الحسن باب الغرفة، وسارع إلى إحدى الزوايا، ليخرج منها أدواته العديدة من مشارط ومبارد وكلاليب. اعتلى أبو الحسن الطاولة الخشبية، وشمّر عن ذراعيه، وأمسك بمشرطٍ مدبب النهاية، ليغرزه في صدر الجثة، وليحفر خطًا مستقيمًا، يمتدُ طوليًا من الترقوةِ اليسرى للجثة حتى سرتِها، بامتداد عظمِ القصّ. ناول القاسمُ أستاذهُ مقصًّا ومطرقة، ليبدأ الثاني الحديث بينما يداه مشغولتان بتحطيم عظام الجثة:

«ابنُ سينا كان عظيمًا، ليس في ذلك شكّ. لكني آخذ عليه أنهُ تقبّلَ نظرية جالينوس بخصوص الثقوب الموجودة بين حجرتي القلب. باللهِ عليك، أخبرني: كيف يمكن لفتحاتٍ غير مرئية، متناهية الدقة، متناهية الصغر، أن تنقل كل الدم الجاري في عروقنا في زمان نبضةٍ واحدة؟ ولو افترضنا جدلًا وجودها، ما الذي يدفع الدمَ من اليمين إلى اليسار، بدل انتقاله من اليسار إلى اليمين؟ من يفحص عضلة الحجرة اليسرى للقلب، سيلاحظ تضخمها مقارنة باليمنى، وهذا يدل على أن القوى الموجودة داخلها أكثر من تلك الموجودة باليمنى كثيرًا. ألا يجدر بالدم إذن أن ينتقل من اليسار إلى اليمين، وهو ما يبطلُ نظرية جالينوس، ويجعل ثقوبه غير الموجودة عديمة جدوى!»

توقفَ أبو الحسن عن الحديث، وأشار إلى القاسم كي يُنشبَ الكلاليب بجلدِ الكوةِ المفتوحة في صدر الجثة. تصببتْ جبهته عرقًا حين استروح الرائحة العفنة المتصاعدة من أحشاء الجثة. تناول بيمناه

المشرط مجددًا وشقّ بسرعةٍ تامور القلب، وكم كانت خيبتهُ هائلة وهو يرى انحلال عضلات القلب وامتلاءها بالقيحِ والصديد.

نزلَ أبو الحسن عن الطاولة وأرجع مشرطه وهو يتمتم بضيق:

«ألم تخبرني أن صاحب الجثة مات حديثًا؟».

«هكذا أخبرني سمعان اليهودي! كما أن تراب القبر حين عايناه كان رطبًا!».

«هذا لا يجدي يا قاسم. لا أملك وقتًا أضيّعه».

«الأمر ليسَ بهذه السهولة، وخصوصًا بعد صدور المرسوم السلطاني. لا أستطيع أن أطوف في أحياء اليهود سائلًا إياهم بوجه بارد إن كان أحد منهم مات حديثًا أو أن جنازة ستنطلق غدًا! سأثير الريبة لا محالة».

سادَ الصمتُ الغرفة لحظات، وبدت علاماتُ الندم فوق وجه الأستاذ بسبب الحدةِ التي أبداها تجاه تلميذه. تناول القاسم عنق الجراب، وعاون أستاذه في رمي كومة الجسد المبقورِ الأحشاءِ داخلَه.

«سأغري سمعان اليهودي بمزيدٍ من النقود. أنا متأكد أن الذهب سيجعله أشد حرصًا وأسرع مبادرة بإخبارنا عن الجثث الجديدة».

ربّتَ أبو الحسن على كتف تلميذه، وساعدهُ في وضع الجراب المربوط على ظهره، وبعد أن قاده إلى فناء الدار، أقفل الباب خلفه، ليستأمنه على دفن الجثة في الحديقة الخلفية للمنزل.

سارَ أبو الحسن إلى الجهة الغربية من المنزل، حيثُ غرفة نومِه، وعندما اقتربَ من بابها، سمع صوتَ فاطمة:

«أهذا أنت يا عليّ؟».

ابتسمَ أبو الحسن برقة، ودخل الغرفةَ بوجهٍ متهللٍ بشوش، وكأنه لم يأت للتوّ من المقبرة، ولم ينهشْ جثةَ ميتٍ بمشارطهِ وكلاليبه. قبّل أبو الحسن رأس زوجته الهزيلِ الشاحب، ومسحَ بأصابعه العرقَ المتفصّد من جبينها.

«هل كنتَ بصحبة القاسم؟».

أومأ أبو الحسن بالإيجاب.

«صرت تلازمهُ كثيرًا! احذر أن تخصّه بالحظوة، فتوغر بذلك صدور باقي التلاميذ».

«حُقّ للمبرّزِ أن يلقى من الاهتمام ما يماثل جهدَ طلبِه».

«هكذا أنت دائمًا، تريد الناسَ جميعًا أن يكونوا مثلك. كيف هو الجو بالخارج؟».

«ما زال باردًا».

«هل تنام معي الليلة؟».

«وكل ليلة».

انحنى أبو الحسن ليطبع قبلة ثانية فوق خد زوجته، ثم مشى وإياها إلى سريرِ نومهما. أبدل أبو الحسن ثيابه، وعندما رجع، وجد زوجته تغطّ في نومٍ عميقٍ هادر. كان صدرها يعلو ويهبط في صعوبةٍ مع كل نفسٍ تجترؤه. وضع أبو الحسن سبابته ووسطاه فوقَ معصمها، ثمّ اقترب بأذنه نحو صدرها محاولًا سماع دقات قلبها دون أن يوقظها. وبعد أن فرغ؛ أخذ يتأمل وجهها المُحببَ التعِب في حزنٍ وإشفاق.

استلقى أبو الحسن على ظهره، وأسلم عقله للأفكار التي تنتهبه عادةً في هذا الوقت المتأخرِ من الليل. تبًّا للحمى اللعينة! يصارعها ويطفئها أنّى كانت، ثم تأبى إلا أن تهاجمه في عقر داره، وتختار أعزّ الناس عليه، فتصيب قلبها بهذا الضعف الذي يجعله يهدرُ تحتَ راحة يده، وتسبب مشقّة نَفَسِها، وانتفاخَ بطنِها، وتورمَ أطرافِها. لو استطاع أن يحلّ لغز جالينوس، أن يثبتَ خطأ نظريته، أن يفهم تشريح القلب وطريقة نبضه وسببها، حينها، لربما استطاع أن ينقذ أعزّ الناس عليه، أن يشفيها من علتها، أن ينجب منها ذرية وعيالًا، أن يعيش معها ولها، ما أمكنهما أن يعيشا معًا.

عندما أغمض أبو الحسن عينيه رأى حلمًا غريبًا: لقد كان يمسكُ بين أصابعه وردةً حمراء قانية. كان كل ما حولَها ظلامًا. وضع الوردة الحمراء على الطاولة. تناولَ مشرطه الباردَ المدبب، وبدقةٍ متناهية، رسمَ شقًّا دقيقًا غائرًا، يجري عاموديًا من عنق الوردةِ حتى جذرِها. من هذا الجرحِ؛ أخذتْ قطرات من الدم القاني تتفصدُ تباعًا، وتنسكبُ لتتشربها مساماتُ الطاولة الخشبية.

(2)

هذه المرة؛ كانت تربةُ القبرِ رطبةً حقًا!

أخذت الرِّيحُ المعولة تنفخ من الجهة البحرية، وتدفعُ بالخرقِ والقوارير في كلِ اتجاه، وكأنها مكنسة كونية. نظرَ أبو الحسنِ إلى البدرِ المتلألئ في السماء بقلقٍ، هذا النور الفضي سيحرمهما ثوب الظلام الذي اعتادا الاستتارَ تحته. أخرجَ أبو الحسنِ الجرابَ من ثيابه، بينما أخرجَ القاسمُ مسحاته، وما كاد يضربُ بها جوفَ الثرى، حتى سمعا صراخًا صادرًا من شمال المقبرة، ليُتبع سريعًا بأصواتِ أقدام وخطوات.

لم يحتج أبو الحسن ولا القاسم إلى التريثِ مكانهما كي يتأكدا من هوية الرجال الساعين نحوهما. إن أي تريثٍ كان كفيلًا بإيقاعهما في قبضة الدرك، هما اللذان يحفظان المرسوم السلطاني عن ظهر قلب، ويدركان أن من قُبض عليه بالجرم المشهود، ويداه معفرتان بالتراب، سيكون مصيرهُ الجلدَ أو الحبسَ، أو كليهما، دون ريث أو شفقة.

انطلق الرجلانِ هاربين غربًا باتجاهِ سويقة علي، وعندما وصلا ساحتها الخالية، سلكا طريقًا شماليةً تقودهما إلى القيسارية عبر زقاقٍ غير مأهول، إلا أنهما عند وصولهما آخرَ الزقاق، إذا بهما يقفان أمام حائطٍ عالٍ يسدُ طريقهما. نظرَ أبو الحسن بقلقٍ باتجاهِ فم الزقاق. استطاع أن يستخلص من الريح أصوات الأقدام وهي تقترب. أشار بعنقه إلى الحائط، ليقوم القاسم بعقد أصابعه شابكًا بينها، منتظرًا قدم أستاذه الحافية، وما إن قفز أستاذه، حتى دفع بهِ فوقَ الجدار. تشبّث أبو الحسن بأظفاره بالحائط، ثم

استخدم عضلات ذراعيه الضعيفة كي يدفع بجذعه إلى الأعلى، وما إن امتطى الحائط بفخذيه، حتى تدلّى بجذعه إلى أسفل نحو تلميذه، الذي تعلّق بيد أستاذه وقفز بسرعة، ليمتطي هو الآخر جرفَ الجدار.

كانت أصواتُ الشرطة تزدادُ قربًا. كل ما عليهما فعله الآن، هو القفز من الحائط، حيثُ الجهة الشمالية، حينها سيفقد رجالُ الشرطة أثرهما، وسيسيران بضعة أمتارٍ إلى أن ينتهيا إلى موضع دارة أبي الحسن. أشارَ أبو الحسن إلى تلميذه كي يقفز، إلا أن الخوفَ بدا واضحًا في وجه القاسم، خصوصًا بعد أن لاحظ عمق الهوة الموجودة شمال الحائط. عندما لاحظ أبو الحسن ترددَ تلميذه، أغمض عينيه، ورمى بجسده من فوقِ الحائط، ليهوي على ذراعه اليمنى، كومة واحدة، فوقَ أرض الزقاق.

عضّ القاسم على شفتيه، وحاولَ أن يستردّ جأشه، خصوصًا بعد أن رأى أستاذه يقفُ سالمًا معافىً أسفل الحائط. أغمض عينيه، وملأ صدرهُ بالهواء وكأنه يهمُ بالقفز وسط البحر، وعندما قفز، هوى إلى الأسفل رأسًا على عقب، لتصطدم جمجمتهُ بأرض الزقاق، ولتندقَّ عنقُه.

وقفَ أبو الحسن مصعوقًا فوقَ جسد تلميذه، متأملًا الدمَ المنهرقَ من جمجمته. أيعقلُ أن مات؟ انحنى فوقه، وتحسسَ بأصابعه أخدعَه، ولكن هناك، حيثُ كان الدمُ يجري قبل دقائق، لم يجد سوى هدوء موحش أشبه بهدوء الليل. أيعقل أن يموتَ رجلٌ بهذه السرعة؟ ابتعدَ أبو الحسن بقدميه عن الجثة، وأخذ يسير كالسكران نحوَ داره، لكنه توقف فجأة، وقد اتسعتْ عيناه، وبعد ترددِ ثوانٍ، رجع على أعقابه نحو الجثة.

انحنى أبو الحسن على القاسم وأمسك بتلابيبه. رفعه بصعوبةٍ فوق ظهره. أخذ يسيرُ مترنحًا باتجاه منزلِه. لم يعد باستطاعته أن يسمع

أصوات صرخات الشرطة ولا وقع أقدامهم. لا بدّ أنهم فقدوا أثرهما بعد أن انتهوا إلى الزقاق المسدود. حتى الريح الشمالية توقفت عن اللعبِ بالمِزقِ والقوارير. كان الشيء الوحيد الذي يدوي في أذنيه هو صوت نبضات قلبه. أحسّ بالاطمئنان عندما لمحَ جدران منزله في نهاية الزقاق. تمطى بظهره، وابتلع ريقَه، وأخذ يسرع في خطوِه، علّه يبلغ موضع الأمن قبل أن تدهمه الشرطة.

ولكنهُ، عندما وصل بابَ دارِه، كاد أن يُسقِطَ حملهُ من الذعر! هناك، أسفلَ عتبةِ داره، وتحتَ ضوءِ القمر، كانت تنتصبُ وردةٌ حمراء، حمراء قانية! لم يسبق له أن رآها أسفلَ عتبة داره من قبل. لم يسبق له أن رآها سوى مرةً واحدة: في حلمه.

استعاذ أبو الحسن من الشيطان الرجيم، وسارع باللجوء إلى حرمةِ داره، حيثُ أقفلَ البابَ خلفَه. استدعى أبو الحسن ما تبقى لديه من قوة، وحمل الجثة إلى غرفة أبحاثه الشرقية، وألقاها بنصَبٍ على الطاولة. لقد كانت ظلال الموت تمتدُ ببطءٍ فوقَ وجهِ القاسِم، وكأنّها ظلالُ خسوف القمر.

عاد أبو الحسن إلى باب داره، وفتحه ليتفقد عتبة منزله، وعندما لم يرَ دمًا ولا خطوطًا يمكنُ أن تدُلَّ عليه، حمد الله، وهم بإقفاله، لولا أن تذكر الوردة الحمراء القانية. انحنى أبو الحسن نحو الوردةِ وقطفها بعناية من جذرِها ورفعها نحوَ أنفِه. كان شذاها يبعث الخدرَ في النفوس ويختلطُ بهواء هذه الليلة الباردة فيزيدها رهبة. فجأةً، سمعَ أبو الحسنِ صوتًا واهنًا ينبعثُ وراءَ ظهره:

«علي! أهذا أنت؟».

التفتَ أبو الحسن وراءه وقد تذكر زوجته المستلقيةَ عليلةً فوقَ

الفراش. أسرع بإقفال باب الدار، وقد زايلهُ الخدر، وانطلقَ قاصدًا حجرةَ نومهما.

على طرفِ الفراش، كانت فاطمةُ تجلسُ، وقدماها بالكاد تلمسان الأرض. أحسّ أبو الحسن بفيضِ حبٍ وهو يرى قدمي زوجته الصغيرتين، ولم يملك إلا أن ينحني على إحداهما ليقبلها. توردّت وجنتا فاطمة الشاحبتان بلونٍ غير مألوف. تمتمتْ بصوتٍ أجشّ:

«ما هذا في يدِك؟».

رفعَ أبو الحسن الوردةَ باتجاه زوجته، وتمتمَ هو الآخر بصوتٍ متحشرج:

«وردة! قطفتها لكِ».

التمعت عينا فاطمة وهي ترى هذه المخلوقة اللطيفة بين يدي زوجها الخشنتين، وهي التي لم يسبق لها أن شاهدت فيهما سوى المشارط والمبارد والكلاليب. انحنت بجسدها المتعب نحوَ الوردة، وأمسكت بها من عودها بكلتا يديها، وكأنها تخشى أن تتلفها، أو أن تسقطها على الأرض.

حدّق أبو الحسن في عيني زوجته اللامعتين، المكان الوحيد الذي لم تمتد يدُ المرضِ لتغيرَه، ثم نظرَ إلى خصلات شعرها المتدلية فوق كتفيها، وإلى يديها الصغيرتين، الممسكتين برقةٍ عنقَ الوردة، ثمّ أشار إليها كي تناوله الوردة، واعتدل على قدميه، ليضعها أخيرًا في صدغ زوجته، بين طياتِ شعرها المحبب.

«ها هنا أجمل!».

قالَ ذلك، ليستدير على أعقابه قاصدًا بابَ الغرفة.

«إلى أين تذهب؟».

«غرفة درسي».

«ألن تنام معي؟».

«ليسَ بعد. أمامي عملٌ كثير يلزمني الفراغ منه».

اتجهَ أبو الحسن إلى الغرفة الشرقية، حيثُ كانت جثة القاسم، ليقفلَ البابَ بإحكامٍ خلفَه. هذه المرة، لم يُلقِ ولو نظرة واحدة باتجاه وجه القاسم. اتجهَ إلى الزاوية التي يحتفظ فيها بأدواته، وبعثرها بسرعة على الطاولة، ثمّ شمّر عن ذراعيه، وهو يرى في مخيلته القلب الطازج، يتحللُ كل دقيقةٍ في صدرِ تلميذه.

أمسكَ مشرطه البارد بإحكام، وانحنى بظهره الموجوع نحو الجثة، وعندما لامس بمعدنهِ جلدَها الشاحب، سمعَ صوتَ طرقٍ عنيف ينبعث من باب الدار، ويملأ فضاءَ الحيّ والدارِ معًا.

ألقى أبو الحسنِ المشرطَ برعبٍ مِن يدِه. في الخارج؛ تتابعَ الطرق. لم يكن أبو الحسن يملك الوقتَ الكافي لإخفاء الجثة، ولا حتى التفكير في كيفية إخفائها. سارعَ إلى ركنٍ من أركان الغرفة، وتناولَ من هناك غلالة بيضاء، أسبلها فوق الجثة والطاولة والأدوات. عندما فرغ، غادر غرفة درسه، وأقفل بابها مرتين، ثم استجمعَ شجاعته، واتجه نحو باب الدار كي يجيب الطارق.

عندما فتحَ الباب، كانت وجوهُ ثلاثة من رجال الشرطة تطلُ من أعلى بملامحهم الخشنة. ظلّ أبو الحسن واجمًا مكانه، لا يريمُ حراكًا، وكلما همّ بالحديث، تمنعت عليه الكلمات. في الأخير تمتم بصوتٍ بالكادِ يُسمع:

«ماذا تريدون؟».

«آثار دماء تؤدي إلى دارك».

«دماء!».

«لن نشغلك طويلًا. ستتفقد غرفكَ بالداخل ثم ننصرف».

أفسح أبو الحسن الطريق لهم وهو يحسّ بإعياء يسري في ساقيه. لو أنهم وصلوا إلى الغرفة الشرقية، حيث الجثة ممدة على الطاولة، ستكون نهايته. يجبُ عليه أن يتمالك جأشه كي لا تخونه رعشة أو تدل عليه كلمة، وأن يسعى إلى تضليلهم وإبعادهم عن مكان الجثة ما أمكنه ذلك.

«ما هذه الغرفة؟».

«غرفة منامي وزوجي».

«هل يسكنُ في الدار أحدٌ غيركما؟».

«لا أحد».

قال ذلك، وهو يراقبُ بتوجسٍ خطواتهم الكسولة تبتعدُ ببطءٍ عن الغرفة المقفولة وعن الجثة. توقفوا عند الباب الرئيسي، وأخذ أحدهم يعتذر لأبي الحسن بسبب إزعاجهم إياه وسط الليل، لكن الرعبَ سرعان ما زلزل قلبه وكاد أن يتلفَه عندما دوّى من الجهة الغربية صوت مألوف، كان يمكن لهُ أن يتهللَ فرحًا لسماعه في أي وقتٍ، عدا هذا الوقت:

«ماذا يجري يا علي؟».

امتقع وجهُ أبو الحسن بصفرةٍ تكاد تشبهُ صفرةَ الموت.

«كنتُ أحسبُ أن زوجتكَ تنامُ في الجهة الأخرى من الدار!».

سقطَ أبو الحسن على ركبتيه، ومال برقبته إلى الأرض، وعندما فعل، لاحظ آثار دماء تملأ بلاط داره، وتتحلق حولَ الموضع الذي سقط عليه وكأنها دوائر بطليموس الفلكية.

(3)

هناكَ أساطيرُ كثيرةٌ تدور حولَ قلعة الجبل؛ المكان الذي أراد السلطان الناصر صلاح الدين أن يبنيه كي يكون حرزًا له وحصنًا حصينًا يقيه شرّ الفاطميين في الداخل، والصليبيين في الخارج. إحدى هذه الأساطير تزعم أنّ قراقوش كي يبني القلعة، أمرَ بهدم أهرام الجيزة كي يستخدم أحجارها، وأنه استعمل لبنائها خمسين ألفًا من أسرى الإفرنج والصليبيين. أسطورة أخرى تزعمُ أنّ صلاح الدين أمر بتعليق اللحم النيئ في شوارع القاهرة، ففسد ليلته، ولكنه عندما علقه في موضع الجبل، بقي أكثر من يوم وليلة، فكان سببًا لاختيار المكان. إذا كانت هذه الأسطورة صحيحة، فهي تؤكد نقاء هواء الجبل إذا ما قورن بهواء الفسطاط والقاهرة. هذا الافتراض لا يمكن أن ينطبق على جميع دهاليز وأبراج القلعة، وخصوصًا سراديبها التي كانت تُستخدم لحبس المساجين. في هذه القلعة: حُبس أبناء العاضد الفاطمي كي لا ينازعوا صلاح الدين ملكَه. في هذه القلعة: وثب غلمانُ شجرة الدرّ على الأمير عز الدين أيبك وهو يسترخي عاريًا في حمامه وقتلوه، ثم عُذب نفسُ الخدم جراء صنعتهم في الدهاليز السفلية حتى اعترفوا بجريمتهم النكراء ثم قتلوا. في نفس هذه القلعة، في دهاليزِها السفلية الفاسدةِ الهواء: حُبس الطبيب أبو الحسن علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي الدمشقي المُلقب بابن النفيس، بعد أن عثر رجال الشرطةِ على جثة شابٍ عشريني، يستلقي بلا حراكٍ فوقَ الطاولة الخشبية.

في الليلة الأولى، أخذ أبو الحسن يقرع باب السجن بكل قوته حتى أدمى قبضتيه. أخذ يصرخ مؤكدًا أنه بريء من جرم القتل، وأن الجثة التي عثروا عليها كانت ميتة أصلًا، وأن زوجته العليلة بحاجة إلى تواجده، لكن لا آذانَ للحرس ولا للجدران. في الليلة الثانية، سقط أبو الحسن عليلًا بسبب هواء الحبس الفاسد، وأخذ يبكي وقد أحسّ بالضعف والعجز. في الليلة الثالثة، بدأ أبو الحسن يفكر بالاحتمالات المترتبة على فعلته: ماذا سيجري لفاطمة؟ هل أفاقت لتجد جثة القاسم ملقاة على طاولته؟ هل أزال رجال الدرك الجثة ودفنوها قبل أن تراها؟ ماذا قالوا لها؟ كيف فسروا اعتقاله وحبسه؟ من سيعتني بها الآن؟ وهل ستسامحه؟ لقد فعل كل ذلك لأجلها. كي يكتشف الحقيقة التي من شأنها أن تساعده في إيجاد شفاءٍ لها. الأحياء أولى بالبرِ من الأموات. الشاة الميتة لا يضرها السلخ، ولكن من سيفهمُ ذلك؟ من سيفهم؟

في فجر رابع يومٍ انصرم مذ حبسِه، تقدم السجّان من الباب الأصمّ وأعمل مفاتيحه في القفل. كان أبو الحسن ينزوي متكورًا في إحدى الزوايا وقد غيّرهُ الهزال والتعب. أشار إليه السجّان كي ينهض، وعندما تطلع أبو الحسن مستفهمًا، قالَ السجان:

«مولانا السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس يريد مقابلتك».

تحامل أبو الحسن على نفسِه وقد هفا بقلبهِ نحوَ هذا البصيصِ من الأمل، وأخذ يمشي متمهلًا وراء السجّان، ليقطعا دهاليزَ وأقبيةً مختلفة. كان نور الفجرِ الضعيف يتسلل من النوافذ المرتفعة للقلعة. وكانت النسمات العليلة تهبُ ما بين وقتٍ وآخر من أعلى لتبدل بهوائها النقي

الهواءَ الفاسد المتجمع في رئتي أبي الحسن. عندما وصلا إلى مكان المجلس السلطاني، رأى أبو الحسن السلطانَ ركن الدين بيبرس متربعًا فوق عرشه. ها هنا الرجل الأسطورة، ذاك الذي هزم الصليبيين في المنصورة، والمغول في عين جالوت، والذي لم يكن قبل ذلك أكثر من مملوك ذليل، يُباع مع باقي الخدم والجواري في سوق النخاسة. كانت عيناه الواسعتان بلون البندق، وجبهته الخشنة تجللها السمرة، وقد ارتسمت على خده الأيسر ندبة غائرة عريضة.

«أنتَ النطاسي أبو الحسن؟».

«أنا هو يا مولاي».

«سمعتُ عنكَ كثيرًا من رئيس البيمارستان الناصري. يقولون أنك أبرع أطباء الديار المصرية والشامية».

«أرجو أن أكون كذلك».

«كنتُ أنوي أن أستعملك رئيسًا على البيمارستان، أن تكون طبيبي الخاص، ولكن النبأ الذي وصلني من قبل رئيس الشرطة أزعجني كثيرًا. أخبرني يا نطاسي، ولا تتجرأ بالكذب عليّ: هل قتلت الرجل الذي وُجد ميتًا في منزلك؟».

«لم أفعل يا مولاي. لقد كان أحد تلامذتي، كان أنجبهم، ولقد كنتُ أخرج وإياه بحثًا عن الجثث الصالحة للتشريح والدرس».

«أنتَ تعلم النهيَ المشددَ الذي أصدرتهُ بخصوص نبشِ القبور».

«أعلمهُ يا مولاي. ولكن للحقيقة جذبة، وللكشف لذة، ولقد دفعاني في لحظة طيش كي أعصي أمر مولاي المعظّم».

«حدثوني أنكَ رجلُ دينٍ يا نطاسي، فكيف أبحتَ لنفسك أن تعصيَ ربك، بعد أن عصيتَ سلطانك؟».

«الشاة الميتة لا يضرها السلخُ يا مولاي».

«للأموات حرمتهم».

«الأحياء أولى بالبرّ من الأموات».

قالها أبو الحسن، وهو يفكر للمرة الألف بفاطمة. فاطمة التي تستلقي وحيدةً فوق سريرها، حيث لا أهل ولا سند.

سكتَ أبو الحسن، بينما أخذ السلطان يحدق مندهشًا في وجهه، وقد أُخذ بإصراره وتمنعه رغم حرج موقفِه. قال السلطان بعد تفكر:

«تتحدثُ عن الأحياء وكأنهم جنسٌ مختلف عن الأموات يا نطاسي. حتى الأحياء مصيرهم الموت، ولو سألتهم هل يرضون أن يُفعل بهم ما فعلته بموتاهم، لربما أجابوا بالامتناع. الأمر على أية حالٍ غير قابل للنقاش. أخبرني بباقي أمرِك، ماذا حصلَ لتلميذك؟».

«هربتُ وإياه من رجال الشرطة بعدَ افتضاح أمرنا. أثناء الهروب، اضطررنا إلى القفز من فوق حائط، هبطتُ سالمًا، بينما سقط هو على رأسِه فاندقت عنقُه. كنتُ أنوي أن أتركه ميتًا وسط الدرب، ولكني رجعتُ إليه فحملته على ظهري، وسرتُ به إلى داري».

«لا تكمل. لا أريد أن أعرف ما حدث بعد ذلك. أنتَ إذن لم تقتله!».

«لم أفعل».

«عرضي لا يزال قائمًا يا نطاسي. أريدكَ طبيبي الخاص، ورئيسًا

للبيمارستان الناصري، مقابل أن تعدني أن لا تعود إلى نبش القبور وانتهاك حرمةِ الجثث».

«أنا رهنُ أمرِ مولاي».

«أنتَ حرٌّ إذن. يمكنك أن تمضي».

استدارَ أبو الحسن وقد امتلأ بالبهجة والامتنان. سارع إلى الباب كي يجري إلى القيسارية، حيثُ داره وأعزّ الناس إليه، ولكن صوت السلطان تداركهُ من خلفه.

«يا نطاسي».

«مولاي!».

«عندما قلتَ: الأحياءُ أولى بالبرِ من الأموات، كنتَ تقصدُ أحدَهم. أخبرني، هل لكَ قريب عليلٌ ترجو برأه؟».

«زوجتي يا مولاي».

قالَها أبو الحسن، وهو يغادرُ عتبة المجلس السلطاني، ليتبع دهليزًا مستقيمًا يؤدي إلى خارج القلعة. عندما خرج، استقبلته النسائم العليلة التي تهبُ من جبل المقطّم وملأت أنفاسه. استنشق أبو الحسن الهواء بشغفٍ وهو لا يكادُ يصدق أنهُ حرٌّ طليق؛ يمضي حيثُ يريد، ويملأ بالهواءِ النقي رئتيه متى ما يريد. مثلُ هذا الهواء يبعثُ الحياة ثانيةً وسطَ أطرافِك.

في هذه اللحظة، سقطت الحقيقة على أبي الحسنِ فتلقفها مندهشًا. الهواء! سرُ الحياة، كالماء تمامًا. لم يهبنا الله الرئتين إلا لنستنشقه ونستخلصُ منهُ ذاك الإكسير. ولكن ماذا يحصل بعد أن نستخلصه؟ لا بدّ أن مضخة

الجسم تدفعُ بهِ إلى باقي الأعضاء. جالينوس يفترض أن الهواء يمازج الدمَ في القلب، ولكن هذا زعم فاسد، إذ أنه يتجاهلُ وجود الرئتين. لا بدّ أن هناك دورة أخرى، تربط القلبَ بالرئتين، كما يرتبط القلب بباقي الأعضاء عبر الأبهر. لهذا السبب يتكون القلبُ من حجرتين؛ اليمنى تدفع بالدم الفاسد إلى الرئتين، واليسرى تدفعُ بالدم الممازجِ للهواء نحوَ باقي الأعضاء. هذه هي الحقيقة! شقان طوليان يجريان بتوازٍ على امتداد عظم القصّ، وعندها سيتبين الأوعية الخفية التي تصلُ حجرات القلب بالرئتين.

عدا أبو الحسن كالمجنونِ شمالًا نحو القاهرة حتى دخلها من قبلِ باب زويلة. كانت الأفكار تتدافعُ في عقله تدافعَ الهواء في الرئتين، تدافع الدم في حجراتِ القلب. لقد حلّ لغز جالينوس، لقد فاقَ ابن سينا، كل ما يلزمَهُ الآن هو أن يطوّر الفكرة قليلًا، أن يستغلها، أن يستخدمها جراحيًّا، كي يجدَ علاجًا لفاطمة.

عندما وصلَ دارَه أسفل القيسارية، دفعَ البابَ، فإذا بهِ ينفتحُ مجلجلًا على مصراعيه:

«فاطمة».

صرخَ أبو الحسن.

«فاطمة، وأخيرًا رجعت».

كانَ الصمتُ مُطبقًا وثقيلًا. تقدّم أبو الحسن بخطواتٍ وجلة، وقد استشعرَ شرًّا. لاحظ أن بابَ غرفةِ نومِهما نصفَ مُشرع. دفع الباب بترددٍ، ونفسه تحدثه بالرجوع من حيث أتى، ثمّ لم يملك إلا أن يقفَ متسمرًا مكانه، وقد رأى زوجته فاطمة، في أقصى الغرفة، تستلقي بوجومٍ على السرير، دونَ وسادةٍ أو أغطية. كانت يدها تقبضُ على زهرةٍ

ذابلة، يابسة، متكسرةَ الأوراق. نفس الزهرة التي أهدى إليها ليلةَ إذ قُبضَ عليه.

اقترب أبو الحسن من السرير، وساقاه بالكادِ تطاوعانه. كان وجهها ممتقعًا بصفرةٍ معروفة، سبق أن شاهدها آلاف المرات، وكانت عيناها تنظران إلى أعلى، حيثُ لا شيء.

تهاوى أبو الحسن على الأرض، وأخذ يبكي.. يبكي دون أن يقاوم المخالبَ المريرةَ التي أنشبت في حنجرته وصدره. إنهُ الموتُ إذن! بمخالبه الكريهة. ليسَ توقفَ القلبِ عن النبض، ولا غيابَ الحركة عن الأطراف، وإنما الفقد، الفقد الكبير الفادح.

زحفَ كالطفلِ إلى أسفل السرير. قبّل قدمي زوجته الباردتين. تحاملَ على ساعديه وركبتيه. استلقى بجسده المُنهكِ فوق السرير. سحب الغطاء المُلقى على الأرض. أسبلهُ بعنايةٍ فوقَ جسدِه، وفوقَ الجثة. طوّق بساعديه جسدَها. أخذ يعفّرُ بالدموعِ جلبابَها. حاولَ أن ينام، ولكن عقلهُ كان فضاءً مُشرعًا للأفكار والصور. تمنى لو يرجعُ محبوسًا في أعماقِ السجن، أو يرجعُ مضغةً في رحمِ أمه، أو صبيًا مع أهلهِ في الشام، يلهو ويلعبُ في أزقّة دمشق، دونَ أن يفكرَ أو أن يحب. تذكّر أمّه وهي تحدثهُ عن فاطمة، تذكّر وجهها ليلة أتى خاطبًا إياها، تذكّر الرعدة التي سرت في جسدها عندما أمسك يدَها أولَ مرة. تخيّل الفرحة التي ستغمرها عندما يخبرها بالمنصب الجديد الذي اختصه به السلطان، تخيّلَ الولدَ الذي سينجبان معًا، ويربيان معًا، ويعيشان ليختارا له زوجةً معًا. ولكن، من بينِ جميع تلك الصورِ وتلك القلاقلِ وتلك التخيلات، كانت هناكَ فكرةٌ تتكررُ عليهِ بإلحاحٍ فيدفعها فزعًا منزعجًا.

الأحياءُ أحقُ بالبرِ من الأموات. الشاةُ الذبيحةُ لا يضرُها السلخ. الشمسُ تتحركُ ومعَها الوقت.

نهضَ أبو الحسنِ متثاقلًا وهو لا يصدقُ ما يفعل. سارَ بخطىً مترنحةٍ نحوَ الفناءِ الداخلي وتأكدَ من إقفالِ الباب. أسدلَ الستائرَ فوقَ النوافذِ حتى أطبقَ الظلامُ من كلِ صوب. عادَ إلى حجرةِ النوم. كانت عيناهُ متسعتين بشكلٍ مخيف، وقد احتقنتا بلونٍ أحمرَ كالدم. نظرَ لمرةٍ أخيرةٍ نحوَ زوجته: نحوَ الجثة. أغلقَ عينيها، وانحنى بظهرهِ المكروبِ كي يرفعها. كانت خفيفةً وباردة بينَ ذراعيه. سارَ بها إلى الغرفة الشرقية من المنزل. انحنى ووضعها بترفقٍ على الطاولة. كانت المشارطُ والمبارِدُ والكلاليب لا تزال مبعثرةً فوقَ الطاولة.

أزالَ أبو الحسن الجلبابَ الحريري عن جسدِ زوجته. أمسكَ بالمشرطِ البارد، ونظرَ بترددٍ نحو صدرها العاري. انحنى فوقَ الطاولة، وغرزَ مشرطه الحديدي بجانب ثديها. أخذَ يشقُ لنفسهِ نافذةً مستطيلة، تمتدُ طوليًا على جانبي عظمِ القصّ. استخدمَ المقصّ كي يحطمَ أضلاع صدرِها. استخدمَ الكلاليبَ كي يتمكن من مشاهدةِ أحشائها.

هناكَ، وسطَ صدرها، كان القلبُ متوقفًا وكأنه ساعة مكسورة، وكانت الرئتان منكمشتين وكأنهما اسفنجتان، وما بين ذاك وهاتين كانت الحقيقة. تساقطت دموعُ أبو الحسن مدرارًا فتشربتها مسامُ الطاولة الخشبية.

ولكن هناك، في أقصى الدار، وفي غرفةٍ أخرى، كانت الوردة تتحللُ فوقَ البلاطِ ببطء.

شجرة بني يام

«يا شجرة، يا شجرة، يابسةً خضراء».

(فيدريكو جارثيا لوركا)

(1)

شمالَ بلدة العيون، أسفلَ قصر ابن عالج، توجد شجرةُ سدرٍ تنحني بجذعها نحو الغرب. في موضع الشجرة، وقبل ما يقارب المائة والخمسين سنة، أوصى عوّاد العجمي ابنةَ عمه زينب أن تنتظره هناك وأن لا تبرحَ مكانها إلى أن يرجع. ها هنا قصة ليست كأيّة قصة، سأحكيها لكم.

نزحت أسرةُ عوّاد وزينب إلى سنجق الأحساء في نهايات القرن الثاني عشر. كان جدهما أبو فلاح العجمي من قلائل البدو المتعلمين، ولقد عمل قاضيًا لبلدة العيون بمجردِ أن استقر فيها. نشأ عوّاد وهو يعلم أن ابنة عمه زينب ستكون زوجةً له. هذه المعرفة المسبقة لم تمنعه من أن يعدّ الليالي الواحدةَ تلو الأخرى في انتظارِ حلولِ ذلك اليوم الذي ينام فيهِ معَها تحتَ سقفٍ واحد. ولكن بعد انقضاء شهرين من زواجهما، ضرب الطاعونُ بلدةَ العيون، وأخذ معَه خلقًا كثيرًا، بما في ذلك أسرتي عوّاد وزينب.

كان عوّاد منذ البداية يضيق بحياة الحضر وينسب إليها كل الشرور والأوبئة. كان يعيدُ على أسماع ابنة عمه أنه من الأحرى بهما السفر إلى الصمّان، حيثُ توجد قبائل يام، ويلحُ ويكررُ في هذا الشأن دونَ جدوى، إذ أنّ ابنة عمه لم تكن قادرةً على فراق أهلها والنزوح بعيدًا عنهم. أما الآن، وبعد أن تقطّعتْ جميعُ الأواصر التي تربطها ببلدة العيون، لم تجد زينبُ أمامها إلا أن ترضخ لرغبة ابن عمها وأن توافقه على الانتزاح إلى الصحراء.

في صبيحة يوم السفر، ابتاعَ عوّاد فرسًا وناقة بالنقود التي حصَّلها من بيع داره. تمنطق بحزام الفشق، وعلّق بندقيته فوقَ ظهره، وانطلق بصحبةِ ابنةِ عمه زينب متجهين شمالًا نحوَ الصمّان. عندما خرجا من نطاق البلد واستقبلا الصحراء بصدريهما، أحسّ عواد بنشوةٍ هائلة تملأ روحَه. كانت الرمال الذهبية تمتدُ بلا نهايةٍ تحت السماء الزرقاء، وتتلاقى معها في أقصى الأفق. بعد مسيرةِ ثلاث ساعات، عرضَ أمامَهما طيرُ حبارى، وطفقَ يخبّ برقبته الطويلة باتجاه كومةٍ من العوسج تحفّ غديرًا مجاورًا. سحبَ عوّاد بندقيته، وعبأ مخزنها، وعندما ضغط الزناد، انفجرت البندقية حتى كادت أن تقفز من يده دون أن تخرج رصاصة من فوهتها. هربَ ذكر الحبارى وهو لا يلوي على أثر.

تفحص عوّاد البندقية بغيظٍ دون أن يفهم ما حدث. لا بدّ أن هناك خللًا في بيت النار أو الخراطيش. عندما أفرغ المخزن وعبأه بفشق جديد، حصلَ ذات الأمر، حيثُ دوى صوت انفجار دون أن تخرجَ الرصاصة.

«ما بال البندقية اللعينة؟».

«ربما أفسد الماءُ الفشق!».

«أيّ ماء؟».

«قبل أسبوعين، أنسيت؟ عندما فاض الماء تحت الجدار وغمر الجهة القبلية. كان صندوق الفشق هناك».

«لماذا لم تخبريني؟».

«وما أدراني أننا سنحتاج البندقية؟».

«كيف نسافر ونقطع الصحراء ونحن لا نحملُ سلاحًا؟».

«لا تلمني، لست من وضع الصندوق هناك!».

أطرقَ عوّاد والغيظ يأكلُ صدرَه. زينب صادقة، لا يحقُّ له أن يلومها على هذا الحظ العاثر. كان يجدر به أن يتفقد البندقية قبل أن يزمعا السفر. ماذا يفعل الآن؟ هل يعود أدراجه؟ وبأي وجه يقابل الناس الذين غادرهم نهائيًّا؟ فجأة تذكّر الرجل المريّ الذي اشترى منه بندقيته. لا بدّ أنه يحتفظ ببعض الفشق الخاص بها! كان المريّ يسكن في المراح، في الجهة الجنوبية الشرقية من قرية العيون. لو أنه ذهبَ مع زوجته فإن الأمر سيكلفهما نهارًا كاملًا. أما لو انطلق بفرسهِ عدوًا، فإنّ الأمرَ لن يكلفَه غير ساعة أو ساعتين على الأكثر.

«انتظريني هنا، سأذهب وأعود سريعًا، لن يكلف الأمر ساعةَ زمان».

«أين تذهب؟».

«إلى المراح، هناك رجل مريّ اشتريت منه البندقية. لا بدّ أنه يملك الفشق الخاص بها».

قفزَ عوّاد فوقَ فرسه وأمسك بزمامها.

«مهما يكن من أمر؛ لا تغادري المكان. سوف أرجع سريعًا، انتظريني هنا».

استدارَ عوّاد بفرسه، وانطلق ينهبُ الصحراء، ميممًا وجهَه صوبَ المراح.

ترجّلت زينب عن راحلتها، وأناخت الناقة قرب الغدير. توضأت من مائه، ثم صلّت الظهر والعصرَ جمعًا. عندما فرغت من صلاتها تناولت بعض حبات الرطب، وأتبعتهنّ بنغباتٍ من ماء القِربة. عبأت القِربة حتى عنقها من الغدير، ثم عمدت إلى نوى التمر فأخذت تلعبُ بهنّ وتصفهنّ أفقيًا وعاموديًا. انقضتْ ساعة زمان دون أن يرجع عوّاد! نهضت من موضعها وأخذت تتطلعُ باتجاه الأفق، حيث غادرها عوّاد قبل مدة. لا روح ولا أثر على مدّ البصر! رجعت إلى راحلتها وأخذت تمسحُ فوقَ رقبتها الطويلة وتلاعبها. عندما أحست بالتعب تربّعت، وأسندت ظهرها فوق الناقة. أخذت تتغنى ببعض الأبيات التي تحفظها عن جدتها عن شعراء وفرسان يام.

غربتْ الشمس، وأطبق الليل، دون أن يرجعَ عوّاد. لا بدّ أنّ أمرًا أخره! ماذا تصنع وسط هذه البرية وحدَها؟ لو أنها رجعت إلى بلدة العيون لكان أكثر أمنًا لها. لكن عوّاد طلب منها أن لا تبرحَ مكانها، أن تنتظرَه. لا بدّ أنه سيرجع بعد قليل، كل ما عليها هو أن تصبر أكثر.

توضّأت زينب ثانية، وصلت المغرب والعشاء. بعدَ أن فرغت، أخذت تصلي وتبتهل طالبةً من الله أن يحفظَ عوّادًا وأن يرجعه سالمًا إليها. ازدادت الظلمة عتمة، بينما انحنت الناقة برقبتها وأغمضت عينيها. استلقتْ زينب بجانب ناقتها، وتذرّت بعباءتها، وحاولت أن تنام. لم يسبقْ لها أن نامت في العراء من قبل. أخذت تصغي بانتباه إلى كل نبهةٍ وحركة، وهي تشدّ

بيدها على خنجرٍ جلبته من الخِرج. بعدَ انقضاء الشطر الأكبر من الليل، غمر التعبُ زينب وغلبها فأسلمت إلى النوم.

عندما أفاقت، كانت الشمسُ تنشرُ أشعتها الأولى إبان الفجر. عمدت زينب إلى الغدير فاغتسلت، وأدت فرضها، ثم أمسكت بالناقة، وأخذت ترعى بها في مواضع الكلأ دون أن تبتعدَ كثيرًا عن المكان الذي طلب منها ابنُ عمها أن تنتظرَه فيه. عندما انقضى نصف النهار أحست بالجوع، فأخرجتْ الزاد وأصابت بعضًا من طعام. توقفت طويلًا وهي تنظر إلى الأفق منتظرةً رجوع زوجها. عندما أطبق الليل، عمدت إلى ناقتها ونامت تحت ذراها.

مرّ أسبوع، دون أن يرجع عوّاد. عندما نفد الزاد، عمدت زينب إلى بقل وأعشاب الصحراء فأخذت تمضغها كي تسكت حرّ معدتها. عندما نفد العشب، أمسكت خطام ناقتها، وأخذت تلاعبها، ثم سحبت الخنجر من تحت كمّها، وقامت بنحرها. سلخت جلدها، وأوقدت نارًا، ثم أصابت بعضًا من لحمها. تمنّت من كل جوارحِها لو يرجع عوّاد قبل أن يفسدَ لحمُ الناقة.

عندما طالَ الانتظار بزينب، أخذت الهواجس تطاردها وتقذف بها كلَ مطرح. ماذا لو أن عوّادًا تركها بلا رجعة؟ ماذا لو أنه مسحور؟ أو أنّ امرأة أخرى فتنته؟ تعوذت من الشيطان، وبصقت عن شمالها. عوّاد سيرجع، لقد قال ذلك بعظمة لسانه، هي لم تعتد منه الكذب. كل ما عليها هو أن تنتظره في موضعها هذا الذي أوصاها بعدم مزايلته.

تعاقبَ الليلُ مع النهار، وأمطرت السماء وجرت السيول، وعرضت الوحوش وعوت الذئاب، وزينبُ تنتظرُ مكانَها لا تَبرحُ.

(2)

لم يكذب عوّاد عندما قالَ أن الطريق لن يكلفه غير ساعة زمان إلى أن يصل المراح. قرع عوّاد باب الرجل المريّ، وكان سروره غامرًا عندما فتحَ المريّ باب داره. ألحّ المريّ على عواد كي يدخلَ داره، لكن عوّادًا رفض قائلًا أن أهله ينتظرون رجوعَه. أعطى المريّ عوّادًا ما يلزمه من الفشق، بعدَ أن جربها الثاني فوجدَها صالحة. عندما سأل عوّاد الرجلَ المريّ عن سعر الزهاب، رفضَ المريّ أن يتقاضى أجرًا عنها. ودّع عوادٌ المريَّ وشكره، وانطلق بفرسه ناهبًا الطريق، باتجاه قصر ابن عالج.

عندما قطع نصفَ الطريق، تناهى إلى سمعه صوتُ نسوةٍ يبكين. لوى عوّاد زمام فرسه ناحية النسوة وسألهنّ عن خطبهنّ. وقفتْ امرأة فارعة الطول وسألت عوّادًا:

«يا أخ، هل أنتَ ياميّ؟».

أومأ عوّاد برأسه مستغربًا.

«الحق على شيخِك! مرت قبل برهة كتيبة من الأتراك، ومعهم الشيخ راكان مربوطًا في القيد».

«الشيخ ابن حثلين!».

تعالت صيحات النسوة، وأخذن يلطمن فوقَ جيوبهنّ.

وقفَ عوّاد مكانه مذهولًا، وكأن صاعقة نزلت على رأسه. الشيخ راكان بن حثلين في يد الأتراك! كانت الفكرةُ كافيةً كي ينهار عالمه،

كي يختفي لون الصحراء ويشح ماؤها ويموت زرعُها. الشيخ راكان في الحبس! ماذا حلّ بالدنيا؟ وكيف سقط هذا الفارس الصنديد، فخر قبائل بني يام، في أيدي الأتراك الكفرة؟

صرخت المرأة الطويلة ناهرةً عوّادًا:

«ماذا تفعل؟ ألا تنتخي؟ لو أني رجل ومعي بندقية للحقت بالأتراك وحاميت عن شيخي».

«أي اتجاه سلكوا؟».

أشارت المرأة إلى الطريق المؤدية إلى بقيق. همز عوّاد جنبيّ فرسه وانطلق مسرعًا في ذات الاتجاه. همسَ في سره: لن أتأخر. ساعة من الزمان وأعودُ إليكِ.

عندما لحق بغبار قافلة الأتراك خفف من عدوِ فرسِه، وحاول أن يتدارى بالكثبان الرملية الواقعة عن يُمينهم. كان عددهم يقارب العشرة رجال، وقد ربطوا الشيخ وأتباعه وأحاطوا بهم من كل صوب. لم يسبق لعوّاد أن رأى الشيخ راكان بن حثلين، ولكنه بمجرد أن رأى تلك الهامة المرفوعة، والجبهة العريضة، واللحية البيضاء، علم يقينًا أنه الشيخ راكان. ها هناك عشرة من الأتراك، بينما مخزن بندقيته لا يتسع إلا لأربعة من الفشق!

شدّ عوّاد من عزمِه، وعقد النية على مهاجمتهم من الأمام، وليكتب الله ما يريد.

أجرى عوّاد فرسه من وَراء الكثبان حتى سبق الأتراك، ثم انحرف عليهم كالشهاب الساقط وهو يصرخ بأعلى صوته:

«صفّر صافي الموت وأنا لا زاله»[1].

التفتَ الأتراك مفزوعين ناحية الصوت، فإذا بأول رجالهم يسقط صريعًا. وجّه عوّاد بندقيته نحو الرجل الثاني، ولكنه ما إن ضغط الزناد، حتى دوّى صوت انفجار في الماسورة، لتقفز هاربة من يديه. عضّ عوّاد على شفته وهو ينطلق بسرعة ناحية الأتراك المتمترسين خلف بنادقهم. عندما حاذى الرجلَ الثاني رمى بنفسه فوقَه، ليسقط وإياه على الأرض، ولينقض بقية الأتراك فوق جسده بأقدامهم وكعوبِ بنادقهم. إحدى الضربات أصابت عوّادًا في مؤخرة رأسه وأفقدته الوعي.

عندما أفاق، وجد نفسه مستلقيًا على بطنه، وقد شُدّت رقبته وقُيدت يداه وقدماه إلى إحدى الرواحل. ملأ الرعبُ قلبَ عوّاد حين أدرك أنه يُساق مع بقية الأسرى إلى مكان بعيد. زينب تنتظره الآن عند قصر ابن عالج. لا يُفترض به أن يكون بعيدًا عنها هنا! صرخَ عوّاد كالبعير الهائج، وأرغى وأزبد، وأخذ يتلوّى في قيده دون فائدة. انقضّ الأتراك عليه بأعقاب بنادقهم وأشبعوه ضربًا حتى فقد وعيه ثانية.

اكتشفَ عوّاد لاحقًا أنّ ابن عودة ـ الوكيل المخوّل بتحصيل الخرجية ـ قام بالغدر بابن حثلين أثناء عشاءِ الأخيرِ عندَه. علم أيضا أن الأتراك لم يقتلوه بعد أن جندلوه أرضًا إثر هجمته الفاشلة لأنهم ظنوه صاحبَ شأن، أو أنه أحد أقارب الشيخ راكان. لكن أكثر ما أصاب عوّادًا بالفزع هو اكتشافه أنهم يقصدون بهم البحرين، وأنهم من هناك سوف ينفونهم إلى أماكن مختلفة.

نُفي اثنان من أصحاب الشيخ إلى إيران، ونُفي اثنان آخران إلى

(1) «صفّر صافي الموت وأنا لا زاله»: صيحة الحرب لدى قبائل بني يام.

العراق، أما عوّاد فلقد وُضع في سفينةٍ واحدة مع الشيخ، كي يتجهوا بهما نحوَ الباب العالي في إسطنبول.

حاولَ عوّاد أن يغافلَ الأتراكَ أكثر من مرة، وكاد إحدى المرات أن ينجح في إلقاء نفسه في البحر، لولا أن رصاصةً هائجةً أدركته أخيرًا، لتنغرز في عضلة ساقه وتسقطَه أرضًا.

وصلت السفينة بعد عشرين يومًا إلى إسطنبول، وحُبس عوّاد والشيخ راكان في زنزانةٍ واحدة في إحدى القلاع الواقعة جنوب إسطنبول. كمن عوّاد للسجان في اليوم الثاني من وصوله إلى السجن، وانقضّ عليه ونزع منه سلسلة المفاتيح بعد أن شجّ رأسه، إلا أن باقي الحراس استطاعوا أن يمسكوا به وهو يعرج بساقه الجريحة في ساحة السجن قبل أن يصلَ البوابة الرئيسة.

كان من حسنِ طالع عوّاد والشيخ راكان أنّ الحارسَ الجديد الذي أُوكلت إليه مهمة حراستهما ـ بعد أن سُرّح الأول ـ سمحُ الطباع، ليّنُ العريكة. كان يحسن العربية بعض الشيء، وكان اسمه حمزة، وسرعان ما توطّدت علاقة صداقة بين الشيخ راكان وحارس السجن حمزة، إلى درجةِ أنه كان ينضم إليهما أحيانًا داخل السجن كي يصلي الفريضة خلف الشيخ. كان الشيخ يستقبله كل صباحٍ بوجه بشوش حين يلج الزنزانة ومعه الطعام؛ يسأله عن زوجته وأبنائه، ويقدم له النصائح ويستمع إليه حين يشكو، بعكس عوّاد الذي كان نادرًا ما يتجاذب أطراف الحديث مع السجّان.

في أحدِ الأيام ـ وبعد انقضاء خمسة أشهر على سجن الشيخ راكان وعوّاد ـ دخل حمزةُ متهلّلَ الأسارير وهو يمسك بيدين مرتجفتين مرسومًا أصفرَ. همسَ حمزةُ مخاطبًا الشيخ راكان بصوتٍ بالكادِ يُسمع:

«كنتُ أتصفحُ وثيقة حبسِكما، واكتشفت أنّ كاتبها قام بخطأ أسلوبي يوهم من يقرأها أنّ الرجل الذي قتل الجندي العثماني في سنجق الأحساء هو نفسه أنت يا شيخ. أعني أنّ كل من يقرأ الصحيفة سيتوهم أن من يقطن السجن واحد لا اثنان! هل تعي ماذا يعني ذلك يا شيخ محمد راكان؟ هذا يعني أنني أستطيع تهريبك من السجن وإعادتك إلى ديارك، دون أن ينتبه أحد. سيخالون أن صاحبك الشاب هو أنت، ذلك أن لا أحد يعرفك برسمِك وشكلك سواي».

قفزَ الشيخ راكان على قدميه وهو لا يصدق ما يسمع. أمسك بالصحيفة محاولًا قراءتها رغم جهله اللغة التركية. طلب من حمزة أن يعيد شرح ما قال. وضّح الأخير أن بإمكانه أن يهربّه من السجن هذه الليلة، قبل أن ينتبه أحدهم إلى هذا الخطأ، وأنه سيأتي بهندام وملابس تركية يلبسها الشيخ، ويخرج وإياه في نهاية نوبته الليلة، حيث سيعبر به مضيق البسفور ويهبه فرسًا توصله حيث يشاء، على أن يبقى رفيقه عوّاد في السجن.

عندما خرج حمزة، توضّأ الشيخ راكان وصلى ركعتي شكرٍ إلى الله بسببِ هذا الفرج غير المنتظر. عندما فرغ، حانت منه التفاتة، فلمح رفيقه عوّادًا وهو يشخص ببصره نحو النافذة الحديدية بالأعلى. تنحنح الشيخ راكان وسأل صاحبَه:

«لو تمّ إطلاقك يا عوّاد، أيّ الأماكن ستقصد أولًا؟».

«قصر ابن عالج».

«قصر ابن عالج! هو خلاء! لماذا قصر ابن عالج؟».

«ابنة عمي تنتظرني. أخبرتها أن لا تغادر المكانَ حتى أرجع».

وقعت هذه الإجابة كالصاعقة على الشيخ راكان: أيُعقلُ أن هذا الرجلَ لم يتنبه إلى أن نصفَ عامٍ قد تصرّم منذ وقوعِه في الأسر؟ أهو مخبول؟ أم أنه يتوهمُ المستحيلَ من زوجته؟.

ترنحَ الشيخ راكان في مكانه، وعندما ذهبت الصدمة، هبط عليه الفهم فجأة:

.. لأنّ هذا الشاب لم يتوقفْ يومًا واحدًا عن طلب الهرب.. لأنه منذ إلقاء القبض عليه وهو يحاول أن يفكّ الوثاق وأن يقفز وسطَ اليم وأن يكمن للحارس وأن يغافلَه.. لأنه كان مشغولًا منذ اللحظة الأولى بفكرة الفرار وكيفيته ولزوم وصوله إلى ابنة عمه.. من أجلِ كل هذا.. لم يشعرْ الشابُ بمرور الوقت.. لم يشعر بانقضاء ستة أشهر.. بل لم يشعر بانقضاء يوم واحد.. لقد توقف الزمنُ بالنسبة إليه، وتحوّل إلى لحظة واحدة طويلة ممتدة لم تكن تملأها سوى فكرة الهروب.

استدار الشيخ راكان إلى الجهة الأخرى ومسح دمعة يتيمة ترقرقت في محجره. تذكّر ابنة عمه الشقحاء، وتذكر زوجته الثانية، تذكر عياله، وأصحابَه، ورجالَ قبيلته. تذكر المراعي والخيام، تذكر الشياه والإبل؛ شاةً شاة، وناقةً ناقة.

عندما انقضت النوبة الليلية، دخل حمزة الزنزانة وهو يحمل الزيّ التركي. أمسك الشيخ راكان بالثياب، ودفعها باتجاه عوّادَ قائلًا:

«اِلبس».

لم يتحدث هذه المرة بلهجة رفيق الحبس، وإنما بلهجةِ رئيس القبيلة.

«ولكن يا شيخ!».

«البس. ابنة عمكَ تنتظرُك».

انصاع عواد للهجة الآمرة، فمن كان يستطيع أن يقول: لا، لمثل هذه اللهجة. أخذ يلبس الثياب ببطء.

«لا أستطيع يا شيخ أن أرحل ثم تلتصق بك تهمة القتل. قد يعدمونك لأجل ذلك!».

«هل جُننت؟ أنا الشيخ ابن حثلين! يحسبون لي ألف حساب. لو مسّوا شعرةً واحدة من رأسي لوجدت قبائل يام تملأ الأرض من نجد إلى الباب العالي».

عندما أنهى عوّاد شدّ سراويله، دفعه الشيخ راكان عبر باب الحبس، ودفع بحمزة المسكين، والذي لم يكن مرحبًا ولا مستعدًا لمثل هذا التغير المفاجئ في الخطة. تبعَ عوّاد حمزة بخطى سريعة وجلة، وهو يحني رأسه ويتدارى عن الضوء كي لا يسقط فوقَ وجهه فيفضحه. عندما خرجا من القلعة، اتجه حمزة بعوّاد إلى الشرق، وعبرَ به مضيق البسفور، وهناك منحه نقودًا وجوادًا، ودعا له بالتوفيق.

انطلق عوّاد بجوادِه ينهبُ الطريق باتجاه سنجق الأحساء. لم يتوقف ليلًا أو نهارًا. كان يأكل فوقَ جوادِه، ويصلي فوقَ جواده. لم يكن يتوقفُ إلا إذا بلغَ الجهدُ حدّه بالحصان، وعندما يفعل، سرعان ما يمتطي الجواد مرة أخرى إذا لمح منه بوادر راحة.

كانت فكرة واحدة تشغله طوال الطريق وتملأ كيانه: أنهُ سوف يرى ابنةَ عمه، سوف يرى زينب، سوف يخبرها أنهُ هنا معها، حيثُ لن يتركها بعدَ ذلك أبدًا.

من تركيا انحدرَ عوّاد إلى سوريا، ومن سوريا إلى العراق، ومن العراق إلى الصمّان، ومن الصمّان إلى قصر ابن عالج. نفقت تحته خمسة جياد. ولكنه لم يكن ليأبه. بمجرد أن يسقط الجواد صريعًا، يقفز إلى الأرض، ويأخذ بالعدو، إلى أن يسرقَ جوادًا جديدًا.

بعدَ انقضاءِ ما يقارب الشهر، وصل عوّاد أخيرًا إلى قصر ابن عالج.

سقط آخر جوادٍ تحتَه، وقفزَ عوّاد لا يلوي متوجهًا جريًا صوبَ الغدير، نحوَ المكان الذي ترك فيه ابنة عمه. عندما وصل، وجدَ أمامه شجرةَ سدرٍ لم تكن موجودةً عندما ترك ابنة عمه قبلَ سبعة أشهر. كانت شجرة السدر تملك نفسَ قامةِ ابنةِ عمه ونفسَ ملامحها، تمامًا!

تقدّم عوّاد مترنحًا نحوَ شجرة السدر حتى التصقَ بها. مسحَ براحتيه الخشنتين لحاءها وعفّر بالدموع تربتها. سقطَ على ركبتيه، وضمّها بذراعيه. أخذ يتمتم بصوتٍ مفجوع:

«تأخرت! تأخرت! تأخرت! تأخرت!».

يا إله السماوات! ألا توجدُ رحمةٌ فوقَ هذه الأرض؟ ألا يوجد شخص، حيوان، كائن، غصن.. يستطيع أن يهتفَ في تلك اللحظة: أنتَ لم تتأخر! إذ أنكَ لم تتوقف لحظةً واحدةً عن العمل في سبيلِ الرجوع!

كان قدرًا على زينب أن تنتظر ابن عمها كالأشجار وأطول.

وكان قدرًا على عوّاد أن يرجعَ بعد شهورٍ فلا يجد ابنة عمه حيّة.

ولكن من قال أن الحياة تنتهي بانعدام الجسد الانساني؟ من قال أن الأشجار لا تصغي ولا تفهم؟ لقد عاشت السدرة وبقيت في موضعها بجانب الغدير أسفل قصر ابن عالج. عاشت وبقيت قامتها منصوبة رشيقة، رغمَ أنّ أغصانها جرداء يابسة. عاشت لترى ابن عمها يموت ويُدفنُ أسفلَها، في الجهة الغربية منها. منذ ذلك الوقت، وشجرة السدر تنثني بجذعها المنهوك ناحية الغرب.

إرم

«إرم، في خاطري من ذكرها ألم. حلم صبايَ ضاع، آهِ ضاع حين تمّ».

(بدر شاكر السياب)

(1)

عندما هبط آدم بخطيئته إلى الأرض، فعل ومعه صورة الجنة؛ ذكراها، ما يخزنه داخلَ عقلهِ من ألوانِها وأصواتِها وأرواحِها ونسائِمها، صورة تكاد تكون متطابقة مع الأصل العلوي لولا تعذرها على الإمساك والتثبت. نقل آدمُ الصورةَ بعنايةٍ إلى أبنائِه، ونقل الأبناءُ الصورةَ إلى أبنائِهم، وهكذا، ومع تصرم السنين، وتراكم الآثام، أخذت الصورة تتلاشى، والذكرى تتمنع، إلى أن أصبحت فكرةً مجردة، خاوية، خاليةً من أيّ لونٍ وأيّ صوت، أيّة رائحةٍ وأيّ طعم، فكرة ما كان لها أن تتجسم في مخيلة حامليها لولا اقترانها بمفهومي الخلود واللانهاية. تباينت ردود أفعال كل جيل مع هذا الفقد المُفجع، هناك من نسي الجنة كليًا لينشغل بالأرض وما عليها من نعماء وآلام، هناك من قنع بالمفهوم المجرد للجنة وأخذ يعمل حثيثًا كي يصل إليه بعد مماته، لكن شداد بن عاد، والذي لم يكن يفصله عن ذكراها سوى ثمانية عشر رجلًا، لم

يرتضِ النسيان سبيلًا ولا قنع بالزهد، وإنما أخذ يسعى حثيثًا كي يبني نموذجًا مُعاينًا لجنة أجدادِه على الأرض.

كان شداد بن عاد ملكًا شديد البطش، عريض اليد، بسط سلطانه على غيره من الملوك، واتخذ له في صحاري عدن عرشًا ومستقرًّا. اختار شداد أرضًا وعرة ذات صخورٍ وجبال كي ينحت فوقها جنته الأرضية. شجعه على هذا الاختيار ما لقيه من صفاء جوّها وعذوبة نسائمها. عهد إلى مئة من الأمراء أن يبنوا له مدينة إرم، كل واحدٍ من هؤلاء كان يملك تحته ألفًا من الرجال يعملون تحت رايته ويأتمرون بأمره. نقل شداد إلى الأمراء تصوره لمدينة إرم: أبراج وقباب تطاول السماء في علوها، أعلام ورايات تتصافق مع الرياح وترحب بالقادمين، أرض من التبر تتلامعُ دون أن تؤذيَ رجلَ واطئِيها، جدران وحيطان مسبوكة من الزبرجد والمرجان والعسجد واللؤلؤ.

بدأ الرجال بناء مدينة إرم، وانكبوا فوق سقالاتهم طرقًا ونقلًا ونحتًا، وهكذا استفاقت المدينة المزمعة من سباتها الصخري، وأخذت تصغي إلى خواطر بنّائيها وتسترق النظر نحو رؤاهم والصور التي تتشكل في أذهانهم. هناك، رأت المدينة من الصور ما خلب لبها وأطاش صوابها: رأت الأطفال وهم يجرون صائحين في أزقتها، ورأت الرجال آناء الليل حين يرجعون كي يعاشروا خليلاتهم، رأت حفلات الرقص والأعياد والزواجات، رأت الأسواق والدكاكين وما تعجّ به من ضجيجٍ وحياة، رأت كل هذا وأكثر، وبدأت تحلم وتتطلع إلى ذلك اليوم الذي ينتهي به الرجال من بنائها، اليوم الذي يجيئ به الرجال بنسائهم وأطفالهم كي يعمروها ويحققوا فوقها كل هذه الرؤى الرائعة التي اختمرت في عقولهم.

جاء ذلك اليوم، وفرغ الرجال من وضع آخر لَبِنةٍ في سور المدينة، وغادروها متجهين إلى صحاري عدن - حيث يسكن ملكهم - كي يزفوا إليه البشرى السارة. أسبغ شداد بن عاد العطايا النفيسة على الأمراء المثة، وأمر كل واحدٍ منهم بتوزيع المال والثياب على من معه من رجال. دقت الطبول احتفالًا بيوم الرحيل الموعود، واشتغلت النساء في جمع المتاع كي ينتقلن إلى ما يفوق بيوتهنّ بآلاف المرات كما حُدِثن، وشدّ الرجال أمتعتهم فوق كل دابة يملكونها، إلاّ أن شداد بن عاد وقع في خطأ جليل لم يحسب حسابه عندما بنى جنته، لقد التزم بمفهوم اللانهاية أثناء بنائها، أمر أن يجنح الرجال إلى كل ما هو أكثر وأفضل في كل شيء يبنونه، غير أنه تعامى عن مفهوم الخلود، تناسى أنه قد يبني ما يخال أنه يقارب الجنة كمالًا وطموحًا إلا أنه لن يستطيع أن يعيشَ فيه أبدًا.

خرجت القافلة بدوابها وأمتعتها ورجالها ونسائها متجهة نحو إرم. عندما انتصف الطريق، سنحت ظبية ضامرة أخذت تجري وتتقافز أمام شداد بن عاد مما جعل الدم يفور في عروق الملك الصياد. نخز شداد حصانه كي يعدو خلف الظبية، وسحب قوسه ونشابه صارخًا برجاله أن ظلوا هنا حتى أرجع. مالت الظبية يمينًا وأخذت تنهب الرمضاء في خطوات تكاد لا تلامس فحصَ الأرض، بينما أخذ حصان الملك يجدّ في العدو إلى أن اشتد به الإنهاك ليسقطَ صريعًا على جنبه. ارتمى الملك على وجهه وهو يلعنُ حظه العاثر والحصان والصحراء والظبية. التفت وراءه فاستيقن أنه أبعد الجدّة، وتطلع حوله فلم يجد إلا فضاءً بلقعًا يمتد على مد النظر، وسرابَ ماءٍ يُذكره بعطشِه دون أن يرويَه. اختار شداد وجهة معينة يخالُ أنها تؤدي إلى قومه، ولكن أنّى له أن يصل وعزريل ينتظره وسط الصحراء! سقط الملك العظيم على وجهه صريعَ عطش،

وسكن إلى الأبد في بطون الضباع والعقبان بدل أن يسكن جنته الأرضية، أما قومه، فلقد أدركتهم الصيحة وهلكوا في نفس المكان الذي أمرهم ملكهم أن لا يَبرحوه.

بقيتْ إرم تنتظرُ وسط الصحراء قدوم آهليها دون جدوى. بقيت تحلم بابتسامات الأطفال، وقبلات الأزواج، وحفلات الأعياد، وضجيج الأسواق. بقيتْ تستمعُ إلى النسائم وتستخلصُ منها كلَ نبهةٍ وكلَ همسة يمكن أن تشابه الأصوات البشَرية التي عهدتها من بنائيها البشر. عندما طال انتظارها بدأت تحِنّ وترزمُ رزيم الناقة وهي تعاين ذبحَ ابنِها الحوار. كم من شاعر ومسافر ليليّ مرَّ قريبًا من إرم وسمعَ رزيمها وسط الليل فحسبه أصوات جنٍ وغيلان تلعب في الظلام. بعد تصرّم ما أحسبهُ شهورًا أو سنينَ، لم يعد بإمكان المدينة الانتظار أكثر، فتمطّت بظهرها، وانتفضت من قواعدها، وبدأت ترزحُ بهيكلها المهيب ناهبة الصحراء، باحثة عن أي بشرٍ يمكنُ أن يعمرها أو يسكنَ فيها.

تتحدثُ الروايات الإسلامية عن رجلٍ من الأنصارِ يُدعى عبد الله بن قلابة، خرجَ يطلبُ إبلًا له، وعثر على مدينة إرم بالصدفة. ما تخطئ الروايات في توضيحه هو التالي: لم يكن ابن قلابة من عثر على المدينة، المدينة هي من عثرت على ابن قلابة.

(2)

كان ابن قلابة آخر من عثرت عليه المدينة في تجوالها المستمر، ولكي أستطيع أن أسمي هذه القطعة تأريخًا يجب أن أبدأ بأول من عثرت عليه: بذاك التاجر النبطيّ الذي هام على وجهه غربًا بعد أن انفصل بالخطأ عن قافلته المتجهة إلى اليمن. كان الرجل النبطيّ يمسك بزمام ناقته ويمشي مجتهدًا قاطعًا الصحراء رغم حلكة الظلمة، ذلك أنه استشعر الخطر بعد أن نفد ماؤه، وعزم على أن لا يتوقف عن المسير ليلًا أو نهارًا إلى أن ينتهي بواحةٍ أو بئر.

تحتَ ضوء البدر الساطع، تنبهت إرمُ من سِنتِها واشرأبت نحو النبطيّ القادم تجاهَها. كادت أن تجري إليه لولا خشيتها أن ترعبَه. قامت بكل هدوء بفتحِ أبوابِها وأسلمت نفسَها طواعيةً وكأنها امرأة تنتظر زوجها الغائب. توقف النبطي مذهولًا أمام سور المدينة، أخذ يصيحُ على أهليها دون أن يسمع رجعًا لندائه. دخل النبطي بوابة المدينة. أخذ يمشي بناقته في دروبها دون أن يلتقي أحدًا. عندما أشرقت الشمس أخيرًا، انعكست أشعتها على رمال المدينة الذهبية، ورأى النبطيّ المذهول النادرَ من الزبرجد والياقوت والفضة والجوهر يرتمي في كل مكانٍ وكأنه الحصى. أخذ النبطيّ يعدو مذهولًا وهو يصرخ من الفرحة. رجع إلى ناقته، أنزل بضائعه القديمة بعد أن قلّت في عينه، وبدأ يثقل سنام ناقته بما ينزعه من حيطان المدينة من الجوهر الثمين والمعدن النادر. ملأ النبطيّ قربته من الماء المتفجر من سواقي المدينة، وعزم على أن ينامَ ليلته في إحدى غرفها الخالية، حتى إذا انبلج الصباح غادرها باحثًا عن

أقرب مكان يستطيع أن يبتاع منه رواحل أخرى، علّه يرجع إلى مدينة الكنوز هذه، ويمتاح منها قبل أن ينتبه إلى وجودها ويشاركه خيراتها أحد غيره.

أطبق الظلام، ونام النبطي في إحدى الغرف المزخرفة، وأخذت إرم تراقب الرجل النائم وتستمع إلى أنفاسه وهي حائرة في أمرِها. ما بال الرجل انقضّ على جدرانها ينزعُ ويكسر بدل أن يبني ويعمر؟ ما باله ربط أمتعته وحزمها في كتلة واحدة وكأنه ينوي مغادرتها وعدم المكوث فيها كما كانت تأمل؟ أصيبت المدينة بالذعر من هذا الهاجس، أرادت الاحتفاظ بهذا البشري النائم كي يحقق فوقها كل ما شاهدته منذ سنين في مخيلة بنائيها. أرادت أن تصغي إلى رجع أنفاسه وأن تتأمله إلى أبد الآبدين. وهكذا، وفي هدأة الليل، وعلى غفلة من النبطيّ النائم، قامت المدينة بإقفال باب الغرفة التي ينامُ فيها. أغلقته، وأقفلته، وحولته صخرًا فوق صخر، وكذلك فعلتْ مع الشرفة الموجودة بالأعلى.

استفاق النبطيّ مع أول ساعات الفجر، وتوجه بخطى ناعسة إلى الباب متلمسًا طريقه وسط العتمة. عندما عثر عليه حاول دفعه، إلا أن الباب تمنع عليه ووقف جامدًا كالصخر. طار النوم من عيني النبطي، وأحس بانزعاج يقبض على قلبه. من أقفل الباب أثناء الليل؟ من أقفل الباب وسط هذه المدينة المهجورة؟ من هذا الذي يتربص به؟ حاول أن يدفع ثانية، وانكبّ بكتفه ثم بكامل جسده على الباب إلى أن أحس بالخور. أخذ ينادي مستصرخًا دون فائدة. لقد علق، ولن يمرَ كثير وقت قبل أن يشعر بالعطش والجوع ويموت وحيدًا. بكى النبطي بكاءً مرًّا، بكى وأخذ يصرخ ويشتم ويرمي برأسه فوق الحائط، فعل هذا والمدينة البِكر تسمع وترى، خائفة منزعجة، وكلما زاد الرجل صراخه كلما زاد

خوف المدينة وتمنعها وانقباض مفاصلها وأبوابها. بعد صراع ثلاثة أيام، سكنت حركة النبطي، وسكتت أنفاسه، وأخذت المدينة تتأمل بأسى - دون أن تفهم - جثة أول ضحايها. أخذت تتأملها وهي تتعفن وتنتفخ ببطء، ثم أخذت تتأملها وهي تتفسخ وتتحلل، إلى أن أصبحت عظامًا بالية، تختلط بتراب الغرفة، وعندما آيست المدينة أن يأتي الفرج عن طريق هذه العظام الهامدة، عاودت شأنها الأول، فتمطّت بظهرها، وتحررت من قواعدها، وأخذت ترزح بهيكلها الحزين عبر الصحراء بحثًا عن آهلين.

الضحية الثانية كان حيةً من حيّات العرب، واحدًا من صعاليكها، أصاب دمًا في حي من بني ذبيان، وهرب جنوبًا بعد أن سرق فرسَ القتيل وعتاده، وأخذ يقطّع فيافي الليل مبتعدًا عن موضع الدم إلى أن اشتد به النعاس وناله التعب، وعندها أوقف الحصان، وافترش الأرض، ثم أغمض عينيه ونام. عندما استيقظ، لم يرع إلا بسور المدينة الشاهق يقف فوقه، وأعلامها الحمراء تخفق فوق أبراجها العالية. تعجب الرجل كثيرًا مما رأى، وشكّ في عقله، إذ أنه حين نام، فعل وهو مستيقن أن الأرض التي اختارها فراشًا له أرض خلاء جرداء، تلعب فيها الريح دون حاجة إلى أن تتوقف تحت جدارٍ أو جبل. من أين أتت هذه المدينة المهيبة؟ كيف لم يرها وسط الليل؟ لا بدّ أن التعبَ بلغ به أقصاه ليلة البارحة كي ينام دون أن ينتبه إلى هذه المدينة الشاهقة الأبراج؟ لم يخطر بباله أبدًا أن المدينة هي من عثرت عليه نائمًا وسط الصحراء، وأنها هي من توقفت فوق رأسه وأخذت تراقبه وتنتظر استيقاظَه.

اقترب الفارس الصعلوك بحذرٍ نحو المدينة وقرع بوابتها. عندما لم يسمع جوابًا قام بدفع البوابة، فإذا بها تتحرك منصاعةً إلى الداخل. ما

إن وقعت عينا الفارس على رمل المدينة العسجدي وحصاها العقياني حتى فقد صوابه. انطلق يجري بحماس وسط ساحتها دون أن يتنبه إلى حركة البوابة وهي تنقفل بهدوءٍ خلفَه. أخذ الفارس يتطلع فيما حوله وهو لا يصدق ما تراه عيناه. لقد سبق أن زار أسواق مكة ويثربَ وبصرى والحيرة، لكنه لم ير قطُّ في حياته مدينة كهذه! كانت النسائم تلعب ممهلة في ساحاتها، وكان الماء يتدفق بعذوبةٍ في سواقيها، أما البيوت والمباني فلقد كانت كنوزًا وتحفًا تملأ العيون بهجةً ودهشة. أكثر ما استعصى على الفارس الصعلوك كان خلو المدينة من السكان. أمضى الصعلوك نهاره وهو يتجول فيها ويشرب من سواقيها ويطعم من أشجارها. عندما أطبق الليل نام في أحد بيوتها. استلقى على ظهره وأخذ يتطلع إلى القمر عبر شرفةٍ عالية. حدّث نفسَه: «يالهذه المدينة العظيمة! من أين هبطت وكيف عثرتُ عليها وسط الصحراء؟ من بناها ولمَ ترك كل هذه الكنوز داخلَها؟ أين ذهب بشرها، وأين ذهبت حيواناتها؟ سوف أتخذها سكنًا، وستنقضي أيام التيه والجوع والخوف، وليقضِ الله أمرًا كان مفعولا».

هكذا اعتقد الفارس المسكين، دون أن يدري أن الإنسان لكي يحيا يحتاج إلى معاشرة غيره من الناس. انقضى اليوم واليومان، الأسبوع والأسبوعان، وبدأ الفارس يتململ وهو يدور في دروب المدينة الصامتة، وعندما قرر أخيرًا أن يخرج كي يُحضر إلى مدينته امرأة يستأنس بها وأصحابًا يسامرونه ليله، إذا به يكتشف أن البوابة التي كانت منصاعة سابقًا قد تمنّعت، وأنها ـ مهما حاول جاهدًا أن يحركها أو يحطمها ـ جامدة صامتة. كاد الفارس الصعلوك أن يُجنّ، وهكذا تحوّلت حياته الوادعة إلى هاجسٍ محموم للخروج من هذه المدينة المهجورة. طاف بأسوار المدينة المرة تلو المرة، وحاول مع سائر أبوابها ما حاوله بدايةً

مع البوابة الرئيسة دون جدوى. في الأخير، عندما آيس الخروج من أبوابها، قرر أن يتسلق سورها الشاهق، وأن يقفز فوقه هاربًا، وبعدها لن يضيره إن استطاع أن يرجع إلى الباب ليفتحه أم لا، لقد أصبحت المدينة في خاطره سجنًا، وكل ما يهمه الآن هو الخروجُ منه.

عثر الفارس على مجموعة حبالٍ في إحدى زوايا المدينة، واضطر أن يشدَّها ببعضها كي يصنع طولًا معقولًا يمكّنهُ الوصول إلى أعلى السور، وبعد أن اختار موضعًا منه يحسبهُ الأدنى علوًا، قذف بحبله أكثر من مرة إلى أن أنشبه بأحد أحجار السور الثمينة، وأخذ يصعد بحذرٍ ونفسه تحدثه بقرب النجاة.

عادت إلى إرم نفس الهواجس التي تخطفتها في ليلتها الأولى مع النبطيّ، وأحست بشعور الأم الثاكل وهي تشاهد آخرَ أولادها يغادرونها، شعور الزوجة المطلّقة وهي تشاهدِ زوجها يهجرها. كانت كل خطوة يضعها الفارس المتسلق على سورها طعنة يغرزها عميقًا في خاصرتها. لم تستطع المدينة أن تقف مكتوفة اليدين، أرادت الاحتفاظ بفارسها، ولكنه لن يعدم حيلةً يصنعها كي يغادر حضنها الخانق، وها هو يكاد أن يصل أعلى السور، وهكذا، وبانتفاضةِ ذعرٍ مفاجئة، أفلتت المدينة الحجرَ الثمين الذي كان الحبلُ يلتف حوله، وتردّى الفارسُ من علوه الشاهق إلى القاع، لتندقَّ عنقه، وليتحول مباشرة جثة هامدة، تحت أنظار المدينة المنكوبة.

كم من ضحايا سقطوا في تاريخ هذه المدينة الحزينة؟ لمن كل هذه العظام والجماجم التي تملأ ساحاتها وتنتثر في دروبها؟ هل يتوجبُ عليّ أن أذكر قصة كل واحد منها كي تغدو هذه القطعة تأريخًا؟ لا أظن!

إذ أنّ أهم ما في التاريخ بدايته ونهايته، أما ما بين البداية والنهاية فلا يعدو أن يكون سلسلة من المحاولات البشرية المكرورة والمحكومة ضرورة بالسقوط. هل يعني هذا أن نزهد بالتاريخ؟ إطلاقا! إننا نحتاج إلى هذا السجل الطويل من المحاولات الفاشلة كي نتمعن فيه ونبني عليه علومنا وحضارتنا وفلسفتنا ونجيب أسئلة الحياة المُلحة. مِن هذا التاريخ الطويل من الضحايا صنعت مدينة إرم فلسفَتها. لم تعد تتفاعل سلبًا مع كل ضحيةٍ تسقط كما في أيامها الأولى، بل أسلمت إلى التفكير والتأمل والتفلسف. وهكذا، وقعت إرم على جوهر المسألة، واستنتجت أن لبّ المشكلة هو الآتي:

.. أنها - أيام تخلقها - أيام بنائيها الضخام الأوائل - كانت حُلمًا، حُلما يدور في مخيلاتهم.. أما الآن، فلم تعد كذلك، بل أصبح أولئك الرجال هم الحلم الخاص بها.. وبين أن تكون حالمًا، وأن تكون أنت الحلم، كل الفرق!..

هكذا فلسفت إرمُ مشكلتها، وبهذا المزاج استقبلت عبدالله بن قلابة الأنصاري، لتسمح له بعد أن طاف في دروبها وجمع من كنوزها أن يخرج من بوابتها سالمًا معافى لأول مرة. قطع ابن قلابة الصحراء بحمولته وبالصور التي تتزاحمُ في عقله، وانتهى إلى مجلس الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وحكى له ولضيوفه كل ما شاهده عيانًا من عجائب تلك المدينة الفريدة، ثم أخذ يعرض عليهم الجواهر الثمينة التي اقتلعها من حيطانها وجمعها من أزقتها. استفاقت ذكرى قصية في عقل اليهودي كعب الأحبار، وأخذ يؤكد ما جاء على لسان الأنصاري، وهكذا، وبعد أن تسامعَ الناسُ بقصة هذه المدينة العجيبة، بدأوا يلهجون عنها في مجالسهم، ويحلمون بها عندما ينتهون إلى مضاجعهم.

ماذا حدث لإرم بعد ذلك؟ يطيبُ لي أحيانًا أن أتخيّلَ أنها ـ وبمجرد أن اختفى ابن قلابة عن أنظارها ـ تداعتْ، هكذا وبكل بساطة، تداعتْ بأسوارها العالية وأبراجها الشاهقة ومبانيها المزخرفة. تداعت وتلاشت وارتضت أن تحيا إلى الأبد كحلم يخلدُ ويكبرُ في مخيلات معشوقيها البشر، إذ ما حاجتها بالحياة المادّية وبالوجود الحقيقيّ إذا لم تستطع أن تحيا خارج عقلها الذاتي؟ أحيانًا أخرى، أتخيلُ أنها ما زالت تذرع الصحراء بحثًا عن ساكنيها، وأني ـ ذات يوم ـ سوف أعثر عليها أو ستعثر عليّ. أحيانًا أخرى، أحاول أن أوفقَ بين الفكرتين، فأتخيلُ أنها تذرعُ الفضاء العقلي بعد أن ذرعت الصحاري والقفار عقودًا وقرونًا، وأنني كلما أردتُ أن أكتب قصة ما، أطرق بابَها، وأعلّ من مائها، وأتفيأ ظلالَها.

قد تلجّ عليّ أيها القارئ الكريم مُعترضًا: «تتخيل! قلتها ثلاث مرات، ثم تتجرأ وتسمي قطعتك هذه تأريخًا!» استميحك العذر أيها القارئ، ولكن الأحداث لم تكنْ لتجري ـ ولا ينبغي لها أن تجري ـ إلا بهذه الطريقة. هذا هو التأريخ الحقيقي لمدينة إرم ذات العماد، لمدينة ابتغى بناؤوها الأوائل أن يجعلوها صورةً للجنة، لكنها لم تتحول كذلك إلى أن وقعت هي أخيرًا على المعنى الحقيقي للجنة: معنى أن تحيا في عقولِ حالميك.

خنجر يمان

«الخنجر الذي أردى رجلًا في تاكواريمبو ليلةَ البارحة، الخناجر التي هطلتْ فوقَ ظهرِ يوليوس قيصر، كلها بطريقةٍ ما نفس الخنجر. إنهُ الخنجر الذي يريدُ أن يقتل، يريدُ أن يسفكَ دَمًا مُفاجئًا».

(خورخيس لويس بورخيس)

(1)

مطلق الوجيعي رجلٌ ربعة في الطول، لوّحتهُ الشمس حتى تركتْ أثرًا لها في وجهِه. هذا العوزُ في الطول ما كان ليحطّ من قدرِه بين الرجال، إذ أنّ عينيه الفئريتين - بحركاتهما السريعة ونظراتهما الحادة - من شأنهما أن تسمّرا أيّ رجلٍ في مكانِه وأن تنسياهُ حتى اسمَه. قد تحتارُ في تدبّر الشيء الذي يعلو وجهَه، وقد تستقرُ أخيرًا على شيءٍ أقرب إلى العزيمة، تلك الخصلة التي كلنت سببًا في قرارِه المفاجئ ذاتَ يوم، حينما باع القليل الذي يملك، وانطلق مع نفرٍ معدودين من رجالاتِ الرسّ خلف قافلة الملك عبد العزيز، بعد أن سمعوا أنها ستعرّج على البكيرية، في طريقها الطويل إلى الحجاز.

عندما وصلَ مطلق مع رفاقه إلى البكيرية، اكتشفوا أن القافلة غادرتها منذ ما يقارب الخمسة أيام. تشاور الرجال فيما بينهم، فاختار

ثلاثة النكوص على أعقابهم، بينما أصرّ الباقون على المضيّ قدمًا عبر الصحراء علّهم يلحقون غبار القافلة. بعد طريقٍ طويلةٍ وشاقة - كادوا أن يهلكوا فيها عطشًا - وصلوا إلى المدينة المنورة ليكتشفوا وللمرة الثانية أن القافلة فاتتهم وسبقتهم إلى مكة. لم يعطفوا أعناق رواحلهم شمالًا هذا المرة، إنما يمموا وجوههم صوب مجلس السديري، رجل عبد العزيز الأول في المدينة، وشرحوا له حالتهم وما يبغون. عندما تبيّن السديري النجابة في أكثرهم، واستوثق من مقدرتهم على الكتابة والقراءة والتجويد، أوكل إليهم أعمالًا مختلفة في بقاعٍ شتى. هناك من أُرسل إلى الجنوب ليعمل قاضيًا أو معلمًا في كتّاب، هناك من حُمّل رسائل توصية خلف قافلة الملك في مكة. مطلق الوجيعي لم يكن يملك موهبة ولا يفك خطًا، لذا لم يجد السديري أمامه إلا أن يهبّ الرجل القصير ذا النظرة الحادة خرجيّة متواضعة علها تمكنّه من الإفلات من خناق الفقر وبدء حياة جديدة، أقول (خرجيّة) مع تحرجٍ في استعمال هذه اللفظة، إذ أنها كانت المبلغ الأول والأخير الذي يستلمه مطلق من السديري.

ولكن - ويا للأسى - وقعَ الوجيعي ضحية سحرِ أسواق المدينة. عندما خرج من مجلس السديري، انحدر من جهة باب السلام غربًا عبر سوق الحدرة. هناك، استروح ضوعَ التوابل والعطور، وتأمل أشعة الشمس وهي تتخلل الأقمشة الملونة المنشورة فوق أبواب الدكاكين، وتطلع في المشغولات الذهبية والفضية والمجوهرات. كانت دنيا جديدة لم يعهدها. من الحدرة انتقل إلى سوق القفاصة، ومن القفاصة إلى سوق الشروق، ومن سوق الشروق إلى كومة حشيفة. تذوق هناك للمرة الأولى الجبن والطرشي والزيتون والزلابية والسمبوسك، وهكذا، وفي

غضون أسبوع، أنفق مطلق جميعَ ما وهبهُ السديري، ليجد نفسَه فقيرًا معوزًا، لا لقمةً يقيمُ بها أودَه، ولا فراشًا يرمي بجسمِه فوقَه. فكّر في أن يبيع بندقيته المُعطّلة، إذ أنه لم يكن يعلقها سوى تمظهرًا وهيئة، ولكن من ذا يشتري بندقيةً خرساءَ لا ترمي حتى بالفشق؟ اشتد الجوع بمطلق، واضطر إلى أن ينام في الشوارع ويشحذَ في الأسواق، إلى أن التقى بأبي إبراهيم النشيّان في ذلك العصر الذي غيّر قدرَ الرجلين إلى الأبد.

كان أبو إبراهيم يطوّف في سوق الشروق عندما وجد الوجيعي متذرّيًا بظل أحد الحيطان. عاينَ أبو إبراهيم الرجل المستلقيَ أمامَه، وبالأخص أولى اهتمامًا زائدًا بالبندقيةِ الملقاةِ جانبَه. أزاحَ الوجيعي طرف الشماغ عن عينيه وهتفَ بالرجل:

«تشتري البندقية؟».

«الأخ من القصيم؟».

«كيف عرفت؟».

«القصيمي لا يخطئ ابنَ عمّه».

اعتدلَ الوجيعي على قدميه، بينما مدّ الرجل البدين يدَه مُصافحًا:

«أبو إبراهيم النشيّان».

«مطلق الوجيعي».

«أنعِم وأكرِم. هل أصبتَ غداءً يا مطلق؟».

«ليس بعد».

«تشاركني غدائي؟».

«لا أملك ريالًا».

«أنتَ ضيفي، كما أنّ الموضوع الذي سأعرضه عليك من شأنهِ أن يسدّ فراغَ جيبِك».

انطلق الرجلان منحدرين نحوَ الناصية المقابلة، حيثُ توجدُ صندقة أبي زكي الآهلة بالمُرتادين. هناك، سحب الرجلان كرسيين من الخشب، وبعد دقائق، وضع أبو زكي أمامهما صحنين يمتلئان بالأرز والعدس. أطبق الوجيعي بكامل يده على الرز، وأنشب بأظفاره رغم سخونة الطعام.

«سألتني قبل قليل إن كنتُ أنوي شراء البندقية، والحقيقة أنك لو وضعتها في يدي لن أعرفَ ماذا أصنع بها ولا كيف أمسكها، لكني أحتاجُ رجلًا يحملُ السلاحَ ويستطيعُ أن يستعملَه وقتَ الحاجة. أنا تاجر من المذنب، وهبني الله سعةً في الرزق، أجيء كل سنةٍ إلى الحجاز فأشتري بعضَ البضائع، أبيعها في نجد والأحساء، حيثُ ترتفع أثمانها. في العادة، يرافقني ابني إبراهيم، يعاونني وأتقوّى به، لكنه مشغول هذه السنة مع زوجته الحامل. سأغدو جدًّا للمرة الأولى، كدتُ أن أؤجل سفري من أجل أن أحظى برؤية حفيدي الأول، ولكن الرزق والحلال يحتاجان من يتعهدهما، إلى من لا يُخضع عواطفه وأهواءه في تأجيلِ مواسمِهما. إن قبلتَ عرضي يا مُطلق ورافقتني كدليلٍ حتى المذنب، وهبتكَ سبعينَ ريالًا ها هنا الساعة، ولك ضعفها حين نصلُ المذنب. توكلنا على الله؟»

نفضَ مطلق يديه وتطلعَ في وجه التاجر الموسر. ها هو الرزق يسقط عليه من حيث لم يحتسب. حمدَ اللهَ أن ألقى بدربه بهذا التاجر قبل أن

يبيع بندقيتَه. تساءل في سره ماذا سيقولُ التاجر لو علم أنه يلقي بكل هذه النقود في سبيل استئجار دليلٍ بندقيته لا تعمل؟

«متى تُزمع السفر؟».

«غدًا إنِ استطعنا، وخيرُ البرِّ عاجله».

«توكلنا على الله».

شدّ أبو إبراهيم بحماس على يدٍ مطلق. أخرجَ من جيبهِ سبعينَ ريالًا وهبها الوجيعي. طلبَ منهُ أن يوافيه قبلَ الظهر في محلّ أبي مزيد غرب سوق القفاصة.

انصرف مطلق حاملًا بندقيته، وجيبهُ تمتلئ نقودًا. هذه إذن ليلته الأخيرة في مدينة الرسول! ماذا يجدرُ بهِ أن يفعل؟ خطر ببالهِ أنهُ لم يقمْ بعدُ بزيارةِ المسجد النبوي الشريف منذ قدومه المدينة. قررَ أن يصلي العشاءَ في الحرم. عندما ضدح صوتُ الإمام بالإقامة اصطفّ الوجيعي جنبًا إلى جنب مع باقي المصلين. عندما سلّم، انتبذَ ركنًا قصيًّا في المسجد وأسند ظهره فوق أحد أعمدته. أخذ يسترجعُ رحلته إلى المدينة والوقت القصير الذي قضاه فيها. ماذا حلَ برفاقه الآن؟ لا بدّ أنهم وصلوا المكان الذي عُيّنوا فيه وباشروا وظائفهم. وحدهُ هو من سيبقى خاملًا سادرًا في دروب حياته، بينما هم يُثرون ويزدهرون مع الوقت. ما الفرق بينهُ وبينهم؟ ما الفرق بينه وبين ذاك التاجر الممتلئ شحمًا: إبي إبراهيم النشيّان؟ كل ما يحتاجهُ هو ضربة حظٍ تنتشلهُ من فاقته وسوء طالعه، وبعدها سيعملُ كما يعملون. هزّ الوجيعي رأسه عند هذه الفكرة: نعم، سأعمل وأتاجر وأزدهر، فقط أعطني رأسَ مالٍ كالذي يحملهُ النشيّان فوق نياقه.

لو أنّ أبا إبراهيم يموتُ في الطريق! لو أنهُ يقضي نحبهُ وأمضي بما ابتاعَه!

قفزَ مطلق كالملدوغ عندَ هذه الفكرة. بادرَ بالخروجِ من المسجد وهو لا يصدقُ أنّ فكرة مثل هذه خطرت بباله: يقتلُ أبا إبراهيم! لا بدّ أنه نفث من الشيطان! لا بدّ أنها وسوسة ونازغ! توقفَ أسفلَ إحدى بوابات الحرم وأخذ يمسحُ فوق جبينهِ بعصبية. كانت قطراتُ العرقِ تتفصدُ تباعًا من منابتِ شعره. الشيطانُ لا يدخل المسجد. رددَ مطلقُ في سرّه. كيف خطرتْ تلك الفكرة في عقلهِ؟ كيف خطرت وهو جالس في حمى الحرم؟ بادرَ مطلق إلى الميضأة وتجدد ثانيةً. عندما خرج تطلّع في قبة الفلك وما يرصعها من نجوم. ردد مُطمئنًا نفسَه: كيف أقتله والبندقية لا تطلقُ رصاصة واحدة؟ هل أنهالُ على رأسهِ بكعبها؟ هذه ميتة أبشع من أن تُرتكب. لا أملك ما يكفي كي أبتاع بندقية جديدة. إن قتلته، فأنا فاعل بخنجر! مدية بيضاء تنغرز كالبارقِ في قلبه وينتهي الأمر. يجب أن أقرر الليلة. أفعلُ أو لا أفعل. ولكني لا أستطيعُ أن أبتّ بالأمر. غير صحيح، لا يجبُ أن أقرر الليلة. أستطيعُ أن أعطي نفسي مهلةً. أستطيع أن أبتاع الخنجر صباح الغد، وقد أستعمله أو لا أستعمله. أمامي كل المسافة الفاصلة بين المدينة والمذنب كي أقرر. نعم أشتري الخنجر، وفي الطريق أقرر.

(2)

صباح اليوم التالي، انطلق مطلق قاصدًا سوق الحدرة. هناك، في ركن الصاغة والعطارين، عثر على بسطة بائع خناجر يُدعى عبده اليمني. كان قد لمح البسطةَ عَرَضًا وهو يطوّف بالأسواق قبل أسبوع. تأملَ الخناجر والجنبيات المتمددة بكسلٍ فوق الخرقة البيضاء، وكأنها تنتظرُ من يلتقطها. جذب انتباههُ خنجرٌ ذو مقبض صيفاني وزهرتين من الذهب الحميري، إحداهما سقطت ولم يتبق سوى أثرها. استلّ مطلقُ النصل من عسيبه، وأخذ يتأملُ برضًا العاير الممتد للأسفل وكأنه جرحٌ طوليّ في جسد المعدن. سرعان ما تزعزع هذا الرضا عندما لاحظ اعوجاجًا وكسرًا واضحين قرب الذبابة وكأن جزءًا من النصل قد فُقد.

«بكم تبيعُ الخنجر؟».

«أبيعه بمئة».

«مئة مقابل خنجرٍ مكسور!».

«عاين الذبابة، ما زالت حادة، ضعه فوق يدك، وسينغرز كناب أفعى».

«مئة كثير».

«هذا خنجر يمان».

«خنجر يمان!»

«نفس الخنجر الذي استعمله كليب يومَ نحر تبّع اليماني».

ابتسم الوجيعي. كان يعلمُ أن بائع الخناجر يستخفُ به، ولكن فكرة

أنّ هذا الخنجر يرتبطُ بتاريخٍ طويل يرجع إلى تبّع اليماني راقته، حتى وإن كانت كذبةً مختلقة. الخنجرُ الذي كان أداةً في نجاح كليب سيكونُ أيضًا أداةَ نجاحٍ له. هكذا حدث نفسه وهو يقلّبُ الخنجر بين يديه ويتلمس ذبابتَه. هي حادة كما قال البائع.

«لا أملكُ في جيبي سوى سبعين ريالًا. إن رضيتَ بها اشتريتُ الخنجر».

«سبعون قليل يا شيخنا!».

«هي كل ما أملك».

«توكلنا على الله إذن».

تمتْ البيعة، وتحزّم مطلق بالخنجر اليماني، ومضى قاصدًا محل أبي مزيد غربَ سوق القفاصة. لم يحدّث نفسَه مؤنّبًا بخصوص إنفاقه كل ما يملك في سبيل شراء الخنجر. الخنجر يستحق، بل هو أثمنُ من السعر الزهيد الذي أنفقه في شرائه، كما أنه سيكونُ أداةً ناجعة في تحصيلِ ثروة تساوي سعرَه مئات المرات. ها هنا هزّ مطلق رأسهُ منزعجًا: أنا لم أقرر بعد.

عندما وصل محل أبي مزيد، استقبله النشيّان بوجههِ البشوش وجسده الممتلئ. وراءهُ كانت تقفُ ثلاث رواحل محملةٌ ببضائع مختلفة.

«سعيد برؤيتك. كنتُ أعلمُ أنك رجلٌ يُشدّ بهِ الظهر. عندما مضيتَ بالأمس، أخذتُ أحدثُ نفسي قائلًا: كيفَ يمكنُ أن أعطيَ شخصًا لا أعرفهُ سبعين ريالًا وأنا حتى لا أعلم عنوانه! لو أنه رجل غيرك، لمضى بعيدًا بالنقود، ولذهبت السبعون مع الريح دون أن تؤدي الغرض الذي أنفقتها لأجله. ولكن ها أنت ذا، وها هي الجمال، والطريق طويلة، فلنتوكل على الله».

أمسك الرجلان أخطمة الرواحل، وانطلقا مسافرين عبر طريق زبيدة. عندما خرجا من المدينة استقبلتهما الصحراء بحجارتها ورملها ونفودها واتساعها، وبترامیها غير المحدود حيثما طمحَ البصر. أحسّ مطلق بخفةٍ في صدرهِ وهو يرى الأفق الممتد ويحسُ بالريح الترابية تلاعبُ بصيلاتِ شعره. المدة التي يملكها كي يبتَّ في الأمر تساوي الصحراء في اتساعِها. عندَ أول توقفٍ لهما، أخرجَ أبو إبراهيم زادًا من متاعه، وشارك مطلقًا طعامَه وماءَه. عندما هبط وقت الصلاة، توقفا وصليا الفريضةَ جمعًا وقصرًا. عندما هبط الليل أناخا الرواحل وناما تحت ذراها. كان أبو أبراهيم رفيقَ رحلةٍ مثالي، لا يبخل في طعامه أو كلامِه. قالَ لمطلق ذات مرة وهما يقتربان من الحناكية:

«التجارة سهلة، ولا تحتاج غير ملاحظةٍ ودربة. التاجر المثالي هو من يخبرُ طباع الناس، يخبرُ مواسمهم، يخبرُ عاداتهم، أكلهم. خذني أنا مثلًا، لم أترك المدينة وأسافر بك عدوًا نحو القصيم إلا كي أستبق موسم الحج وأمطر أسواق نجد والأحساء بالبضائع الغربية قبل أن يرجع بها باقي الحجيج. النقطة الثانية قد تضحكك، ولكن صدقني حين أقول أنها بالغة الأهمية: يجب أن تعرف أطباع أهل كل مدينةٍ وما الذي يروج بينهم. أهل بريدة يحبون بطونهم، ولذا سأبيعُهم الناقة الأولى بما تحمله من التوابل والمرطبان والطعوم. أهل عنيزة يحبون التزيّن والستر، ولذا سأبيعهم الناقة الثانية بمشالحها وعبيّها. أهل الأحساء يحبون نساءهم، ولذا سأبيعهم ما تحمله الناقة الثالثة من الأقمشة والمجوهرات والعطور».

رغم الأريحية ورفع الكلفة البادية في حديث أبي إبراهيم، إلا أنها لم تقع موقعًا حسنًا في نفس الوجيعي. تساءلَ مطلق في قرارةِ نفسه: لماذا يخبرني أبو إبراهيم بكل هذا؟ لماذا يكشف أمامي أسرارَ

تجارته؟ لو كنتُ غريمًا أو مقتدرًا لخبأ عني هذه الأسرار. فقط لأني فقير معوز لا يتورع عن كشف أكثر أسرارِه أهمية أمامي. فقط لأني ساقط في عينيه، فقير، في الحضيض، لا يستطيعُ أن يتصورني منافسًا أو مصدر تهديد.

توقف الرجلان أمام بئر ماءٍ شمال الحناكية. أنزلَ أبو إبراهيم قِرَبَ الماء كي يملأها، بينما أخذ الوجيعي يراقبهُ من الخلف وهو يحسُ بمثل الهدير يملأُ عقله. كانَ المكانُ مثاليًا لارتكابِ الفَعلة. الصحراء منبسطة على مرمى البصر ولا يوجدُ شاهد أو عابر. الأحجار السوداء تستدير وترتفع حتى سرة الرجل، لن يجدَ طريقةً أفضل للتخلص من الجثة. طعنة كالبارقِ في وتينه، وينتهي الأمر. يجبُ أن يكونَ الأمر سريعًا، ونظيفًا. شدّ الوجيعي يده حول مقبض الخنجر ومشى باتجاه النشيّان: طعنة واحدة وينتهي الأمر.

التفتَ أبو إبراهيم، وإذا بالخنجر يهوي على رقبته. أرادَ أن يصرخ، ولكن المعدن الباردَ أخرسَ حُنجرته. أحسَ بالنصل ينغرز في لحمه. أحسَ بذبابته تصطدم بشيء أملس كالعظم ثم تنحرفُ ممزقةً محطّمة. سقط على ركبتيه. أحسَ بطعم الدم يملأ حلقه. لم يشعر بالألم. لم يفكر في أهله ولا داره ولا حفيده. شعر فقط بشيء واحد، بالكره الجارف تجاه الرجل الواقفِ فوقه، الرجل الذي سلبه حياته بهذه الفُجاءة والعبثية. فيما يشبهُ الجهد الأخير، طوّح بيديه ناحية الوجيعي وجذبه إلى الأسفل. سقط الأخير متكوّما فوق النشيّان. اقتلعَ النشيّانُ الخنجر من رقبته وغرزه في خاصرةِ قاتله. قفزَ الوجيعي متألمًا. أمسكَ بتلابيبِ أبي أبراهيم ودفع بجمجمته فوق أحجارِ البئر. أعاد الأمر مرةً وثانية وثالثة. لم يتوقف إلى أن توقفت جثة القتيل عن الحركة. رفعَ الجثة

ورماها في غياهب البئر. اقتلع الخنجر، ورماه أيضا في البئر. الهدير لا يزال مستمرًا. قلبه يخفق بعنف. أهذا هو الخنجر اليماني؟ ضربة واحدة وينتهي الأمر! أحسَ بغصةٍ تملأ حنجرته. أحسّ بشيءٍ مرّ كالبكاء. نفض ثوبه وراحتيه، ثم التفت نحو الخلف، ليجدَ الرواحلَ قد تفرقت بعد أن أفزعتها الجَلبة. عدا نحو الرواحل وأمسك بأخطمتِها. ربطها ببعضها بعضًا، ثم غادر سريعًا تاركًا المكان.

ماذا أخبركم عن الوجيعي بعد تلك الحادثة؟ لقد بقيتْ نصيحة أبي إبراهيم حاضرةً في عقله، ولقد اختبرها وعاين نجاحها. في عنيزة، باع المشالح والعبيّ. في بريدة، باع التوابل والبهار. جنى مالًا كثيرًا من شأنِه أن يجعله قادرًا على ابتياع منزلٍ جديد وبدء حياةٍ جديدة. لم يتوقف، وإنما يمم شطر الأحساء بالناقة الثالثة وما تحمله من بضائع. كان يريدُ أن يبتعدَ قدر الإمكان عن المذنب والقصيم. في الأحساء، باعَ بضاعته على تجار الأقمشة والعطور والمجوهرات وحقق أموالًا طائلة. أحد هؤلاء التجار كان رجلًا مُوسرًا يشتغل في الأقمشة ويُدعى سالم البقّاز. توطدت عُرى الصداقة بين البقّاز والوجيعي، وخصوصًا بعد أن ساعد الأولُ مطلقًا في ابتياع بيتٍ جديد وأشركه في تجارته. هذه الصداقة توطدت أكثر حين تزوج مطلق أخت البقّاز ليصبح صهرًا له. لقد ارتفع نجمه في الأحساء، وها هو ينال سعة من العيش بعد سنوات من التشرد والتيه. لقد كانت الأحساء جنة مطلق التي حلمَ بها ذات يومٍ وهو يتضورُ جوعًا في مسجد الرسول.

الصحراءُ واسعة وممتدة، والليلُ أوسعُ وأكبر، والنجومُ تتطلعُ بانتباهٍ إلى الأسفل. وسط هذه الصحراء هناك بئرُ ماء. وسط الماء جثةٌ تتعفنُ ببطء. بقربِ الجثة، خنجر يمانٍ يتطلعُ إلى النجوم وتتطلعُ إليه. يتطلعُ وينتظر وسطَ الماء. يتطلعُ وينتظر وسطَ الليل.

(3)

انتهى موسم المربعانية، وتقضّى نوءُ الشولة، وتكوّم الضبابُ كتلًا تسبحُ بين البيوت والشوارع. أحد هذه البيوت بيتُ سالم، الذي كان عامرًا بالضيوف حتى ساعةٍ متأخرة من الليل. ودّع سالم آخرَ ضيوفِه، وأخذ يحدقُ بقلقٍ ناحية السماء. قال مخاطبًا صهرَه:

«يظهرُ أنها ستمطر! لمَ لا تتريث حتى ينقشع السحاب أو يصفو الجو؟».

«الوقتُ متأخر وأختك تنتظر».

قالها الوجيعي وهو يتدثر بعباءته وينطلقُ خارجًا من بيت صهره. أخذ يمشي بين البيوت قاصدًا دارَه. كان البردُ مُحتَملًا لولا الريح الشمالية التي تهبُ بين وقتٍ وآخر فتزيدُ من قرصةِ البرد. خُيّل لمطلق أنه يمشي فوق قمة جبلٍ بسبب قطع الضباب السابحة كالغيم. سرعان ما بدأت رشّات من المطر تبللُ وجهَه. كانت البيوت مغلقة والدروب خالية، إلا أنّ مطلقًا أحس بشعورٍ غريب يسري في مؤخرة عنقه وكأنّ أحدًا يتبعه. التفتَ إلى الوراء فخُيّل إليه أنهُ يرى رجلًا ملثمًا يختبئ آخر الشارع وسط قطعة من الضباب. انحرف يمينًا مع أول الدرب، ثم شمالًا، ثم التفتَ معاينًا، فإذا بالرجل لا يزالُ يتبعه. فكر إن كان يحسنُ به أن يرجع إلى بيت صهره، ولكنه في الأخير عقد العزم على المضي قِدمًا تجاهَ داره وإن كانت بعيدة. انحرف بجسدِه نحو الجانب الأكثر إضاءة وبدأ يمشي بخطى أسرع. سمع صوت خطوات الرجل تزدادُ إلحاحًا

لتتحول إلى عدوٍ محموم. التفتَ فزِعًا، فإذا بالرجل يرتمي فوقه، ويدفعهُ بعنفٍ نحو الجدار شاهرًا سلاحَه. أخرج مطلق ما معه من نقود، وأراد أن يستجدي قائلًا أنها كل ما يملك، لكن لسانه تصلّبَ فجأة، وعيناه جحظتا رعبًا، بمجردِ أن وقعتا على الخنجر المُشهر فوقَ وجهه: نفس الخنجر اليمان!

دارت الدنيا في عيني الوجيعي، وأحسّ بالضعف يسري في أطرافه، إلى أن تهاوى متهالكًا نحو الأرض. فجأة، علا صوت شرطي من الجهة الجنوبية، ليُفلتَ الرجلُ خناق مطلق، وليعدو هاربًا وسط الليل، تاركًا الخنجرَ وراءَه. ازداد وقع المطرِ شدةً، بينما حاول مطلق أن يسترد أنفاسه ويتمالك أعصابه. زحف بإعياء تجاه الخنجر وأخذ يتأملهُ بعينٍ لا تصدق ما ترى: كان النصلُ مكسورًا قربَ ذُبابتِه، وكانت الزهرة العُليا مفقودة من موضعها.

اقترب الشرطي ومدّ يدَه كي يعاوِن مطلقًا على النهوض.

«البائس! أكان ينوي سرقتك؟ حمدًا لله أن كنتُ عابرًا من هنا وإلا حدثَ ما لا تُحمد عقباه. هل تبينت ملامح الرجل؟».

«كان ملثمًا».

«الملعون يملك ساقيْ نعامة. لا جدوى من ملاحقته الآن. هذا الخنجر له؟».

هزّ مطلق رأسه.

«أعطني إياه، هذا دليلنا الوحيد الذي قد يقودنا إليه».

سلّم مطلق الخنجر.

«الشوارع لم تعد آمنة. أنتَ بخير؟ تريد أن أصحبكَ إلى دارك؟».

«أستطيع أن أواصل بمفردي».

كان مطلق يحتاجُ إلى فسحةٍ من الوقت كي يتأملَ في عقله الحدثَ الغريب الذي جرى له. كان الأمر أشبهَ بالحلم. أخذ يسير في الدروب المظلمة قاصدًا داره ويداه معقودتان حول صدره. أخذ يسترجع ويفكر ويحاول أن يفسر. من هذا الذي هاجمه الليلة؟ قاطع طريق؟ لص ليليّ؟ طالب ثأر؟ أحد أقارب النشيّان؟ كيف انتهى الخنجر إلى يده؟ وكيف عثر عليه هنا في الأحساء؟ الأمر مستحيل ولا يُصدق. لقد ترك الخنجرَ قبل شهور، أسقطهُ في بئرٍ تبعدُ مئات الأميال، في الجانب الآخر من الأرض. حين فعل، لم يره أحد، يستطيعُ أن يقسم على ذلك. كيف استطاعَ الخنجرُ أن يرجعَ إليه؟ الأمر بالغ الغرابة، متعذر على التصديق. أخذَ يسترجعُ في عقله الكلام الذي قاله البائع: إنهُ خنجر يمان، نفس الخنجر الذي استعمله كليب حين نحر تبّع اليماني. كُليب قتل تبّع، ثم قتله جسّاس. هل يُعقل أن جسّاسًا استعمل نفس الخنجر حين قتل ابنَ عمه؟ أحسَ مطلق برعشةٍ تسري في أطرافه. خُيّل إليه أن الخنجر هو من اختار أن يرجعَ إليه. أنّ الرجلَ مجرد أداة، وأن الخنجرَ هو الذاتُ القاتلة. أنّ الرجل هو الخنجر، والخنجرَ هو الرجل. تذكر كيف أراد أن يقتل النشيّان بواسطة الخنجر، فإذا بالخنجر ينغرز في خاصرته. تذكر كيف ألقاهُ شاتمًا وسط غياهب البئر، وها هو يرجعُ ثانيةً ناويًا قتلَه. حاولَ مطلق أن يبدد هذه الأفكار من عقله، حاول أن يصرفها، ولكنه حين وصل دارَه، إذا بهِ يُراعُ بمفاجأة ثانية، لا تقلُ رعبًا عن سابقتها.

فوقَ ألواح بابه الخشبي، كان الخنجرُ منغرزًا، ينتظره. لم يكن يحتاج أن يتبين هذه المرة، لقد كان نفس الخنجر. النصل المكسور. الزهرة المفقودة. تلفتَ الوجيعي حوله في خوف دون أن تقع عيناه على أحد. كان الدرب خاليا تمامًا. ماذا يعني هذا؟ لماذا غرزَ الشرطيّ الخنجرَ فوق بابِه؟ هل هي مزحة؟ هل هو متورطٌ مع العصابة التي تنوي تهديده وقتلَه؟ أحس مطلق بالحنق والهلع في نفس الوقت. ماذا يفعل؟ إلى أين يلجأ؟ هل يأخذ الخنجر إلى مركز الشرطة؟ ولكن الشرطي هو من غرز الخنجرَ فوق بابه! كما أنه نفس الخنجر الذي استعمله حين قتل النشيّان. ماذا يقول لهم؟ هذا هو الخنجر الذي قتلتُ بواسطته رجلًا في الصحراء ونهبتُ ماله. الأمرُ بالغ الغرابة، بالغ التعقيد، بالغ الخطورة.

اقتلعَ مطلق الخنجر من الباب، والتجأ إلى حِمى داره. عندما شاهدَ زوجتَه هتفَ بها:

«احزمي أغراضك، سوف نغادر في الصباح».

«نغادر! إلى أين؟».

«إلى حيثُ ألقت! الرياض، القصيم، الزلفي، قريح! أيّ مكان عدا هذه المدينة الملعونة».

«هل جُننت؟ أنا لم أخرج في حياتي كلها من الأحساء، وها أنت تريدُ أن تخرجني إلى حيثُ لا أعلم، وهكذا، دونَ سببٍ أو تفسير!».

«أنتِ لا تفهمين. المكان غير آمن. أحدهم حاول أن يعتدي عليَّ الليلة. هم يعرفون الدار، وقد يجيئون أي وقت ليقتلوني ويقتلوك».

«أبلغ الشرطة».

«الأمر أعقد من هذا».

«مطلق، هل أنتَ متورط بجريمة؟».

«لستُ متورطًا، ولا أدري من هم أولئك الذين يريدون قتلي. اسمعي يا امرأة، الليل قصير ولا نستطيع أن نضيعه بالنقاش. إن كنتِ تنوين الذهاب معي فأهلًا بكِ وسأضعكِ فوق عيني ورأسي. إن كنتِ لا تنوين، تركتكِ في دار أخيكِ مكرّمة معززة ولن أضمرَ شرًا أو أحمل ضغينة».

سكتت الزوجة. أطرقتْ برأسها لبعض الوقت وأخذت تفكر. حين نهضت، اتجهت بصمتٍ إلى إحدى زوايا المنزل وبدأت تحزم الأمتعة. أحسّ مطلق بالامتنان تجاهها. أحس بالامتنان لأنها لم تسأل الكثير من الأسئلة. لم يحاول أن يشرح لها الخنجر وملابساته، كيف يشرح شيئًا هو لا يفهمه؟ تساءل ماذا يحسنُ به أن يصنع بالخنجر؟ هل يتركه وراءه؟ هل يأخذه معه؟ أحسّ بالتوجس من هذه الفكرة. تخيّل زوجته تحمل الخنجر وتهاجمه أثناء الليل. الخنجر الذي سافر من الحناكية حتى الأحساء ثم هاجمه في الشارع وانغرز مهددًا على بابه، ما الذي يمنعه من أن يستخدم زوجته أداةً كي يحقق غرضَه؟ الأسلم أن يترك الخنجر، أن يخفيه في مكانٍ قصيّ لا يهتدي إليه أحد. أن يهرب ما أمكنه من ذاك المكان، وينساه، وينتهي الأمر.

لفّ مطلق قطعة قماشٍ حول الخنجر، وفتح بابَ داره مُعاينًا. عندما تأكدّ من خلو الدرب، انطلق عبر الشوارع والليل قاصدًا إحدى الزوايا الخربة حيث ينتهي الشارع بجدارٍ طويل. هناك، نبشَ الأرض وقلب تربتها ثم دفن الخنجر ملفوفًا في قماشته. عندما انتهى، سوّى التراب

براحتيه وتأكد أنّ أحدًا لا يراه. نظر إلى الأرض فأحسّ بالرضا، لم تكن هناك أية علامات تدلّ على الشيء المخفي وسط التراب. نفض راحتيه، ودار على عقبه منصرفًا وهو يحسُ بشعورٍ غريب: لقد دفن توًّا الخنجر وكما لو أنهُ يدفنُ كائنًا بشريًّا ملفوفًا في أكفانه. تمنى في قرارة نفسه أن تكون هذه الليلة آخر عهده بالخنجر المشؤوم.

توقفَ الرذاذُ عن الهطول، وانقشعت جُلب الضباب، وبدا القمرُ أكثر وضوحًا. عندما اقترب مطلق من داره بصرَ برجلٍ يقود ثلاثة بعارين. تذكرَ أنهُ يحتاجُ رواحل كهذه كي تحمل أغراضه وأثاثه وزوجته. هتفَ بالرجل:

«يا أخ، تبيع بعارينك؟».

«أبيع عيالي ولا أبيع البعارين».

«سأهبكُ المبلغ الذي تسميه».

«ابحث عن رجلٍ غيري. أنا مسافر إلى القصيم. أحتاج بعاريني».

«لكن ظهور رواحلك عارية، لا أرى فوقها حملًا أو متاعًا».

«وما دخلك أنت؟ بعتُ تجارتي وأريد أن أرجع».

«اسمع يا عبد الله، انسَ عرضَ البيع. أنا مسافر أيضًا، ووجهتي نفس وجهتك، القصيم، ولدي زوجة ومتاع كثير. ما قولك إن أنت حملتني ومتاعي ولك أجرة الحمل؟».

«دون أن أبيع بعاريني؟».

«دون أن تبيع البعارين».

«إن كان الأمر هكذا، فلا مانع».

شكر مطلق الرجل وطلبَ منه أن يوافيَه أمامَ داره بعد صلاةِ الفجر. واصل طريقه منحدرًا إلى أن انتهى إلى دارِه ليجدها خلاءً بلقعًا. كانت الملابس والأغراض والأمتعة مكومة في ثلاث حزمات تتوسط ساحة المنزل. توجه مطلق إلى زوجته وقبّل رأسها. عمد إلى حبالٍ غليظة كان قد اشتراها منذ مدة واستعملها في ربط الأغراض. ما إن انتهت صلاة الفجر، حتى سمع رغاء البعارين خارج بابِه. أخرج متاعه بمساعدة زوجته والرجل القصيمي، ثم ثبته فوق ظهور الرواحل. أغلق بابَ داره، تلفت يمنة ويسرة كي يتأكد من خلو الدرب من أي متربص، ثم انطلق بصحبة زوجته والرجل القصيمي والبعارين ميممين حيثُ تهوي الشمس.

سارت القافلة ببطءٍ حتى تركت البيوت وراءها. أخذت تقطع عروق الصحراءِ وترتقي الحزوم والصياهد. عندما هبط الليل توقفت القافلة عند قصر ابن عالج. أناخ الرجلان البعارين وتزودا بالماء من غديرٍ مجاور. استلقى الرجل القصيمي بجانب الرواحل، بينما بسط الرجيعي بمساعدة زوجته فراشهما تحتَ شجرة سدر. كان الجوّ باردًا، والسماء صافية. حدّقت زوجة الوجيعي في النجوم وقالت:

«لا أدري أين ستودي بنا يا مطلق!».

«ما دام معنا ما يكفي من النقود، وما دمنا سويًّا، فإن أي مكانٍ نختاره سيكون وطنًا ومحلَ سعادةٍ وأنس. لا تشغلي بالكِ، فقط تطلعي في قبة السماء، أليست جميلة؟ أتوجدُ سماء مثل هذه حيثُ كنا نعيش في الأحساء؟».

ما كاد ينهي سؤاله، حتى تناهت إلى أذنيه أصوات حوافرَ تجري

مقتربة. انتفض واقفًا، وعدا نحو الرجل القصيمي ليجده حاسرَ الرأس يحاول أن يتبينَ ما يجري. سألهُ إن كان يملك سلاحًا، ليجيب أنهُ لا يملك سوى عصا يهشّ بها بعارينه. سأله إن كانوا قطاع طرق، فهزّ القصيمي كتفيه في حيرة وعجز. ابتلع الوجيعي ريقه، حاول أن يتمالك أعصابه، أخذ يراقب الظلال السوداء وهي تقترب حتى تبين وسطها فارسين ملثمين ينهبان الطريق عدوًا نحوَهما.

ترجل الفارسان، وأخذا يعدوان باتجاههما والشرر يتطاير من أعينهما. ما إن حاذيا الوجيعي ورفيقه القصيمي حتى ارتميا عليهما بأعقاب بنادقهما. أخذ أحدُهما يصرخُ معنّفًا:

«أين الوثيقة؟ أخرجاها».

صرخَ مطلق وضربات البنادق تتناهبهُ يمنةً ويسرة:

«أيّة وثيقة؟ ليس معي وثيقة».

بينما صرخ القصيمي قائد الرواحل:

«لا أملك سوى البعارين. كل ما على البعارين يعود إلى الرجل. دونكما الرجل وما تطلبانه. ليس لي علم بالموضوع».

أفلتَ الفارسان قائد الرواحل ليعدو هاربًا وهو لا يلوي على أثر. أمسكا الوجيعي وسحباه نحوَ الغدير، بينما أخذت زوجته تصرخ مولولة:

«أخرج الوثيقة يا مطلق. اعطِ الرجلين ما يريدان».

ثبت الرجلان مطلقًا غلى الأرض، وجثم أحدهما فوقَه وهو لا يكاد يعي من شدةِ الضرب.

«اسمع يا هذا: إما أن تخرج الوثيقة، وإلا سننحرك كالخروف».

بصقَ الوجيعي الدمَ المتجمع في فمه. لم يكن يدري عن ماذا كانا يتحدثان. لم يحاول أن يعترض أو يستجدي. لم يحاول أن يفهم. كان الأمر أبسط من ذلك: إما أن يخرج الوثيقة وإما أن يموت، وهو لا يملك الوثيقة، ولا يدري ما هي أصلًا، ولذا لا بد أن يموت. إذا كان سيموت، فليكن بكامل كرامته ورباطة جأشه. لن يصرخ ولن يبكي ولن يستجدي، وبكل تأكيد لن يحاول أن يفهم. ليس هناك وقت للفهم. لقد بدأت الأمور تترامى عليه بصفاقة ودون منطقية منذُ هاجمه ذاك الملثم في الزقاق، وليس ما يحدث الآن بأغرب مما حدث على الباب أو الشارع ليلة البارحة. إن لم يكن هناك مفر من الموت، فليستقبله بقلبٍ حديدي. لقد كان يملك من بقايا الوعي ما يمكنه أن يتشبث بهذه الفكرة حتى لحظة نهايته.

تطلعَ مطلق في قبة الفلك، في النجوم. حاول أن يصرفَ كل صوتٍ وكل رائحةٍ وكل منظر كي يركز فقط على النجوم. أحسّ بروحه تتوحد وتفنى في فضاء الكون. أحسّ بشيء يشبه الانحلال وهو يتطلعُ في هذه القناديل الليلية. أحسّ أن كل الفوضى التي ملأت روحه تتموج وتتناسق في حزمٍ من الصفاء والجمال والطمأنينة. كادت روحه أن تبلغَ الذروة، كادتْ أن تمتلئ رضا ونشوة، لولا أن يدَ القاتل ارتفعت لتحجب عنه قبة الفلك، وليلتمع ذاك النصل بذبابته المنكسرة، ذاك النصل المشؤوم، ذاك النصل اليمان، وعندها، إذا بالصراخ يملأ روحَه، وإذا بالرعب يزلزل كيانه، وإذا بالفوضى تعصف وتعود في تلك اللحظة الحاسمة التي هي كل شيء، تلك اللحظة التي لفظ بعدَها نفسَه الأخير.

(4)

والآن، بعد أن توفي بطل قصتي، كيف أبيحُ لنفسي الاستمرارَ في الكتابة؟ لقد قلتُ كلَّ ما أعرفهُ عن النشيّان والوجيعي، وليس لدي أي حرفٍ جديد أضيفه كي أنوّر القارئ، ولكني لا أستطيعُ أن أتركه هكذا، أحسُ أني أدين له باعتذارٍ أو تفسير. لقد مات الوجيعي وهو يمتلئ بفكرةٍ لا يمكن أن يتقبلها قارئ من القرن الحادي والعشرين، لقد مات وهو يؤمن أن الخنجر اليماني الذي ابتاعه من سوق الحدرة هو نفس الخنجر الذي قتله. لقد اشتراه وتأمله وقضى معه وقتًا كافيًا كي يتأكد أنه نفس الخنجر الذي هاجمه في الأحساء، نفس الخنجر الذي انغرز مهددًا فوق بابه، نفس الخنجر الذي سلبه حياته على يد قاطع الطريق.

ولكن، هل الخناجر تملكُ وعيًا وإرادة؟ هل تستطيعُ أن تسخّر الأيدي البشرية وتقطع مئات الأميال كي تحقق نواياها؟ إنها فكرة غير معقولة، لا أستطيع أن أتقبلها، ولا أظن أن قارئي أيضًا يستطيع استساغتها. مطلق ـ عندما مات ـ لم يملك سوى جزء من الثانية كي يتبين النصل المكسور قبل أن يلفظ أنفاسه، ولذا أعذر له أن مات وهو يمتلئ بهذه الفكرة غير المعقولة. ولكن نحنُ ـ رجال ونساء القرن الحادي والعشرين ـ لا ينبغي لنا أن نتقبل هذه الفكرة بكل بساطة ونحنُ نملك من الدَعة والوقت ما يكفي كي نتأمل ونحلل ونفهم. الأمرُ بحاجةٍ إلى قائف، نعم قائف، ليس بالمعنى القديم للكلمة، إنما بالمعنى الحديث. القائف القديم يستخدم منطقًا يقول: أن الخطوة على التراب لا يمكن

أن تتكرر على بعد ميل إلا إن كانت هناك خطوات مماثلة تتواجد بين الخطوة الأولى والخطوة الأخيرة. إنه منطق يجمع بين السببية وما خبره القائف عن قدرة الإنسان واستحالة اختفائه ثم ظهوره على بعد ميل. لهذا السبب يتتبع القائف أثر الخطوات حتى يصلَ بغيته. سأستعملُ ها هنا منطقًا يشبه منطق القائف، منطقًا يقول: أن لكل سببٍ مسبب، وأن سلسلة السببية يجبُ أن لا تنقطع كي تفسر الحادثة (أ) الحادثة (ي)، منطقًا يؤمن مثلًا أنهُ عندما يموتُ رجل أو يختفي، فإنّه لا بدّ لأهله أن يفقدوه وأن يبدأوا بالبحث عنه.

أؤكد ثانية أنني لا أملك أية معلومة زائدة من شأنها أن تشرح الأمر. أنا أتلمسُ طريقي وسط الظلام، وقد أصيب وقد أخطئ، ولك كامل الحق في أن تمسك بيدي أو لا تمسك. كما قلتُ سابقًا، لنبدأ من حقيقة أن الرجل حين يختفي لا بد أن يُفتقدَ في بيته. لنستحضر إبراهيم النشيّان، ابن الرجل المقتول، لنستحضره وهو يتعهد زوجته وينتظر ولادة ابنِه. لا بدّ أن زوجته وضعت مولودها، لا بدّ أنهُ أخذ يتحرق شوقًا كي يري مولوده أباه. يتأخر والده فيقلق. يتأخر أكثر فيقلق أكثر. عندما يتطاول الانتظار يزمع إبراهيم أمره، لا بدّ أن يسافر إلى المدينة ويسأل عن والده. يرحل وحده، أو يرحل مع أبناء عمومته، أو بعض جماعته. عندما يصل المدينة يتوجه إلى التجار الذين اعتاد أن يتعامل معهم في سفراته السابقة مع والده. الكل يؤكد أن أبا إبراهيم كان موجودًا، أنه اشترى منهم ما يشتريه عادة من البضاعة. أبو مزيد يزعم أن أبا إبراهيم استأجر رجلًا مجهولًا لا يعرفه كي يكون دليلًا في الطريق. هنا، يشعر إبراهيم أنه قبض على أول الخيط. والده غادر المدينة بمعية رجل، والبضاعة التي اعتاد والده شراءها تركت المدينة

ولا بد أنها قد بيعت في مكانٍ ما. يترك إبراهيم المدينة بمعية أبناء عمه، يسافر بحذرٍ وبطء عبر طريق زبيدة صوب القصيم. عند كل قرية وكل هجرةٍ وكل مدينة يتوقف ليسأل التجار والأهالي: هل شاهدتم أبا إبراهيم؟ هل شاهدتم من صفته كذا وكذا؟ هل هناك رجل حديثُ عهد بثراء استوطن حديثًا بين ظهرانيكم؟ هل بيعت عليكم بضاعة جديدة من البهار والمرطبان والعبيّ والمشالح والأقمشة والمجوهرات؟ عند كل محطة يتشعب الطريق خلف أدلة كاذبة وإجابات غير مؤكدة. في الحناكية، يسمعُ إبراهيم أن البئر الموجودة شمال القرية غير صالحة للشرب، أو لنقل أن هناك من نصحه بالتزود بالماء في الحناكية وعدم الاعتماد على البئر الموجودة شمالًا لأنّ حمارًا أو فطيسًا سقط وسطها. يحسُ إبراهيم بوخزة في قلبه. يحسُ بضرورة ذهابه إلى هناك. هو يبحثُ عن أي غريب، أي مستجد، أي متغير. يعتزم الذهاب إلى البئر كي يتفقدَ الأمر. عندما يصل، يرى نعل أبيه مغمورًا وسط الرمل. يحسُّ بمثل الضربة فوق أضلاعه، يحسُّ أن قلبه يوشك أن يتوقف. يدرك أن مصيبةً حلت، وأن الجواب الذي يبحث عنه موجود أسفلَ البئر. يربط حبلًا حول خصره، يتدلى بمساعدة أبناء عمه وسط القليب. هناك، يجد جثة أبيه المنتفخة. هناك يجد الخنجرَ غير بعيدٍ عنها. الأمر لا يحتاج ذكاء أو فطنة. يدرك إبراهيم أن هناك قاتلًا، وأنه استعمل الخنجر كي ينفذ جريمته، وأنه سرق البضائع والجمال بعد أن رمى الجثة والخنجر وسط البئر. يحس إبراهيم بالدم يغلي في عروقه. يحس برغبة في الصراخ، يقسم على الثأر. لا بد أن يجد القاتل. لا بد أن يأخذ بثأر والده المغدور. ستكون البضائع المسروقة خيطه الوحيد في رحلة بحثه الشبه المستحيلة. يصل عنيزة، يسأل التجار والآهلين أسئلته المعتادة:

هل هناك رجل غريب سكن حديثًا بين ظهرانيكم؟ هل بيعت عليكم بضائع جديدة تشبه البضائع التي اعتاد والدي التجارة بها؟ يكتشفُ أن المشالح والعبيّ بيعت في عنيزة، ثم يكتشف أن التوابل والبهار بيعت في بريدة. يتبيَّنُ ها هنا ما يشبه النسق. لا بدّ أن والده أطلع القاتل على أسرار تجارتِه، لا بدّ أنه حدثه عن كل سلعةٍ وأين تلقى رواجًا. إذا كانت نظريته صحيحة، فلا بدّ أن القاتل اتجه بعد بريدة وعنيزة إلى الأحساء. لا بد أنه أتجه بالعطور والأقمشة والمجوهرات إلى هناك. فيما يشبهُ ضربة اليائس، يتجه إبراهيم مع ابني عمه إلى الأحساء. هناك يسأل عن البضائع ليكتشف أنها بيعت على التجار قبل رجوع الحجيج. يسأل عن البائع فيخبرونه أنه رجل قصيمي يُدعى مطلق الوجيعي. يخبرونه أيضًا أن الوجيعي اختار أن يستقرَّ حديثًا في الأحساء، وأنه صاهر التاجر سالم البقّاز. يحسُ إبراهيم أنه وصل أخيرًا إلى نهاية الطريق. يحسُ بالدم يغلي في عروقه وهو يقترب من قاتلِ والده. لكنه يحتاج أن يتبين الأمر. يحتاج أن يستوثق قبل أن يقتل. ها هنا تنبثق في عقله فكرة الخنجر. كيف سيتصرفُ الوجيعي عندما يبصرُ الخنجر الذي ألقاه في بئر الحناكية مُشهرًا في وجهه؟ لو كان بريئًا، فإن اهتمامه سينصب على مهاجمه أكثر من الخنجر. لو كان مجرمًا، فإنه سينشغل بالخنجر. كان إبراهيم يحتاج إلى أن يتبين كل هذه المشاعر في وجه الوجيعي. يختار أن يتلثم ويهاجم الوجيعي شخصيًا وسط قارعة الطريق. يطلب من ابن عمه أن يداهمهما في لحظة إشهار السلاح زاعمًا أنه رجل درك. تأتي الليلة المناسبة، ويخرج الوجيعي ماشيًا في الظلام، ويهاجمه إبراهيم شاهرًا الخنجر، فيتبين في وجهه ما يؤكد أنه من نسل قابيل، إنه القاتل دون شك، لم يتبقَ سوى الانتقام. ولكن الانتقام لن يكون سريعًا أو

رحيمًا. يجبُ أن يدفعَ الوجيعي نحو الجنون، يجب أن يجعله يمتلئ هلعًا ورعبًا قبل أن يموت. يطلب إبراهيم من ابن عمه أن يغرز الخنجر فوق باب الوجيعي. يراقب باهتمام الحركة التي عمت دار الوجيعي بعد أن دخل الأخيرُ داره. لا بد أنه يعتزم السفر، لا بد أنه يزمع الهرب، ولا بد أنه سيحتاج إلى مطايا ينقل فوقها متاعه وحمله. يعمد إبراهيم نحو رواحلهم لينزل الأحمال من فوقها. يطلب من ابن عمه أن ينتظر قرب بيت الوجيعي علّ الأخير يستعمله كدليلٍ أو مطية. عندما يخرج الوجيعي يتبعه إبراهيم وهو يتخفى في الضباب والظلام. يشاهده يدفن الخنجر في تلك الزاوية المهجورة. يشاهده يغادر. يعمد إلى نفس الموضع ويحفر باحثًا عن الخنجر إلى أن يعثر عليه. يخفيه داخل ثيابه وهو يعتزم أن يستخدمه أداة انتقام في اللحظة الأخيرة. يقع الفأر في الفخ، ويستأجر الوجيعي البعارين كي تقله في رحلةِ هربه. يسمي إبراهيم قصر ابن عالج كمكان مناسب كي يتوقف فيه ابن عمه بصحبة الوجيعي إلى أن يلحق بهما. يبتاعُ إبراهيم وابن عمه جيادًا وينطلقان متجهين نحو قصر ابن عالج حيث تتواجد بغيتهما. يختلق إبراهيم قصة الوثيقة كي لا تتبين زوجة الوجيعي هويَّتهما أو السبب الذي من أجله يقتلان زوجها. يتم الأمر، وتكتمل العُقد، ويسقط الخنجر الذي قتل الضحية فوق جسد القاتل.

هل أنا راضٍ تمامًا عن هذا التفسير؟ هل يملك من الصلابة والتتابع والمنطقية ما يجعله عصيًّا على مطرقة الشك؟ لا أظن! فمثلًا؛ لا أستطيعُ أن أفسرَ كيف يمكنُ لرجلٍ أن يتركَ ابنه الوليد وزوجته النفساء، ثم يرحل مسافرًا من مكان إلى آخر، ليس لشيء إلا كي يشبعَ عاطفة سوداء يسميها الثأر، دون أن ترجع تلك العاطفة والده الميت. لا أستطيع أن أفسر ذلك

ولا أفهمه، ولكني أعلمُ تجربةً أنه يحدث، بينما أعلمُ تجربةً أن الخنجر لا ينتقل من مكان إلى آخر دون يدٍ فاعلة، وهذه التجربة هي كل ما أعتمد عليه في إقامة هذه السلسلة السببية المتهالكة كي أفهم أو أصل إلى شيء يقارب الفهم.

شيء واحد أستطيع أن أقوله بشيء من الاطمئنان، أعتقدُ أنه يملك من المنطقية والصلابة ما يجعله جديرًا بالقول: عندما قُتلَ مطلق الوجيعي، ماتَ وهو يؤمنُ بأن الخنجر الذي قتله هو نفس الخنجر الذي ابتاعه من سوق الحدرة، ولكني أزعم أنه كان مخطئًا في تصوره. صحيح، لقد كان الخنجر يخصه، ولكنه ليس نفس الخنجر اليماني. الخنجر الذي قتل مطلقًا ليس النصل المعدني ذا الذبابة المكسورة. الخنجر الذي قتل مطلقًا هو خنجر صنعه بنفسه، شكّله من العدم، بدأهُ كفكرةٍ في مسجد الرسول، تعهده بعنايةٍ وبطء في طريقه إلى القصيم، ثم أخرجه أخيرًا إلى الواقع المادي شمال الحناكية، في نفس اللحظة التي انهال فيها بنصلهِ المعدني فوق رقبة النشيّان. لقد صنع خنجرًا أسودَ من شأنهِ أن يقتلَه، صنعه وقذفه ونسيه، دون أن يدرك أن مثل هذه الخناجر السوداء لا تستريح ولا تهدأ إلى أن ترجع إلى قلوب صانعيها. هذه هي الحقيقة الوحيدة التي أؤمن بها، وهي الطريقة الوحيدة التي أستسيغها كتفسيرٍ لأحداث هذه القصة الغريبة.

اختفاء الحاكم بأمر الله

(1)

في صباح الثامن والعشرين من شوال سنة 411 للهجرة، استفاقت القاهرة المحروسة على خبرٍ هزّ شوارعها وبيوتها وجعل الناس يلهجون طويلًا والخوف لا يزايلُ عيونهم. بدأ الخبر أولَ ما بدأ في القصر الشرقي الكبير، ثم انحدر في غضون ساعات عبر الأزقة والشوارع ليصلَ إلى كلِّ بيتٍ وكلِّ أذن: خليفة الله، أبو علي المنصور، الحاكم بأمر الله، اختفى! هكذا وبكل بساطة، خرجَ إلى قرّافة المقطّم غيرَ أنه لم يرجع. بعدَ ساعةٍ أو ساعتين اكتسبَ الخبرُ مزيدًا من اللحم، فحُكي أن الحاكم بأمر الله ركب على حماره تلك الليلة، وخرجَ إلى جبلِ المقطم وبصحبته رجل وصبي لم يستطع أحدٌ أن يسميَهما. خرج كي يتدبر النجوم كما جرت عادته، ثم حين شارف القرّافة أمرَ تابعيه بمغادرته، ومنذ ذاك وهو مفقود لا يُعلم عنه خبر. يتزيد آخرون فيقولون أنّ ستَّ الملك ـ أخت الحاكم ـ أرسلت رجالًا إلى المقطم كي يتبينوا جليّة الأمر. هناك، وتحديدًا في موضعٍ يُطلق عليه بركة القصب، عثر الرجال على حمار الحاكم يعرجُ مجروحًا بضربة سيف، كما عثروا على جبّة الحاكم معفرةً بالتراب، وقميصه ممزقًا ملقىً على الأرض.

سرعانَ ما عمّت الفوضى، وتعقدَ الأمرُ، إذ خرجَ رجلٌ صعيدي من بني الحسين، وأخذَ يطوّف في الأسواقِ حاملًا في يدهِ اليمنى جلدة

رأسٍ، وفي يده اليسرى قطعة فوطة، زاعمًا أنهُ قتل الحاكم بأمر الله إحقاقًا للحق وانتقامًا لحرمات الله. قبض رجال الدركِ على الرجل، إلا أنه غافلهم، وسحب سكين لحمٍ طويلة كان يخفيها في مئزره، ليغرزها سريعًا وسطَ عنقِه. بعد صلاة العصر، خرجت جماعةٌ من رجالِ حمزة بن علي الزوزني من مسجد ريدان، وأخذوا يطوفون ويصرخون مهتاجين، زاعمين أن الحاكم بأمر الله لم يُقتل وإنما احتُجب، غادر مصر بفسادها وشرورها قاصدًا ما وراء الهند. اختلطَ الأمرُ على العامة، ولم يدروا ما الصحيح وما المُلفق، وبقيت الأخبار تزيد وتتعقد وتتشابك وتتناقض إلى أن هبطَ الليل. جماعة لا تُحصى من سكان القاهرة سجدوا لله شكرًا تلك الليلة أن سمع نجواهم واستجاب دعاءهم وأراحهم من ذاك المأفون الذي حرقَ مدينتهم وقتل رجالهم ورمّل نساءهم وزرع الرعبَ في قلوبِ عيالِهم.

في صباحِ اليوم التالي، ومع أوائل أشعة الشمس، اجتمع ثلاثة من غلمان القصر في أحدِ الدهاليز المظلمة، وأخذوا يتهامسون بحذرٍ عن القضية المُلغِزة التي أصبحت الشغلَ الشاغل لكل قاطني مصر. أين اختفى مولاهم الحاكم بأمر الله وكيف؟ كانوا يعلمون أن الحديث في هذا الموضوع ممنوع وسطَ القصر، بل إنّ القهرمان المعني بشؤون الخدم توعد بالجلد كل من سُمع يلهجُ بالموضوع، إلا أنّ قلوبهم الفتية وجدت في هذه الحادثة الغريبة موضوعًا مثاليًّا يخرجهم من رتابة الخدمة اليومية وحياة القصر المُملة. كانت أعمارهم تتراوح بين العاشرة والخامسة عشر، وكانت أعينهم تتفجرُ أسئلةً وفطنة. الأول يُدعى حسينًا، الابن البكر لسايس خيول القصر. الثاني أحمد، ابن الطباخ، والمسؤول عن حمل أكياس الرزّ والطحين. الثالث إسماعيل، أحد الغلمان

المُلحقين بخدمة أم الحاكم. بعد محادثةٍ سريعة وهامسة، اتفق ثلاثتهم على أن يتفرقوا ليعودوا إلى أشغالهم، ثم يجتمعوا بعد ثلاث ساعات بعد أن ينهي كل منهم ما يتوجب عليه إنهاؤه من أعمال القصر. سموا باب النصرِ مكانًا للاجتماع، ومن هناك سيشخصون إلى بركة القصب للتحقيقِ في موضوع اختفاء الخليفة الحاكم. تعهد كل واحدٍ منهم بإحضارِ شيء يستعينون به في رحلتهم القصيرة. حسين سيحضرُ مطيةً يتناوبون الركوب عليها، أحمد سيتكفلُ بالشراب والطعام، أما إسماعيل فسيحضرُ فرشًا ومعاولَ وأغطية.

اجتمع الثلاثة بعد انقضاء صلاة الظهر، وانطلقوا بحمارهم ومتاعهم ميممين شطرَ المقطّم. ما إن خرجوا من القاهرة حتى استقبلتهم الريح الشرقية وأخذت تعبثُ بعقص شعورهم وتنفخ جيوب قمصانهم. مشوا مُصعدين مسافةً من الوقت، وأخذوا يتناوبون ركوب الحمار. عندما وصلوا بركة القصب، ربطوا دابتهم ووضعوا لهم فرشًا فوقَ الأرض وأوقدوا نارًا. أخذت الشمس تتمايلُ بأشعتها القرمزية هاويةً نحو الغرب، إلا أنّ ذلك لم يكدرهم، إذ أنهم كانوا في غنىً عن نورها الكوني بما يمتلئون به من الأسرار والخبايا. كان من الواضحِ أنهم لم يخرجوا إلى هذا المكان إلا ليناًوا عن الآذان المسترقة وعن الجواسيس، وحينها سيستطيعون أن يتباحثوا الموضوع ويتبادلوا الأسرار كما يحلو لهم. أخرج أحمد من الخُرج ما جلبه من طعام، بينما دعكَ حسين راحتيهِ ببعضهما بعضًا وقربهما من اللهب. افتتح حسين الحديثَ مخاطبًا زميليه:

«لا بدّ أنكما سمعتما الشائعات التي تقول أن مولاتي ست الملك هي من قتلت مولاي الحاكم بأمر الله بمساعدة الأمير سيف الدين ابن داوس!

أنا أيضًا سمعتُ الشائعة، وكدتُ أن أرفضها كغيري، إذ أنّ الجميع يعلم مقدار الحب الذي تكنّه مولاتي ست الملك لأخيها الحاكم وكيف فعلت المستحيل لتحفظ ملك آبائها لأخيها الأصغر. نعم، قلتُ لا يمكنُ أن تعمل مولاتي ست الملك بغير صالح أخيها الحاكم، إلا أني بدلتُ رأيي ليلة البارحة بعد أن أخبرتني فجر - جارية مولاتي ست الملك - عن ما حدث بين الحاكم وأخته. هل تعلمان أن الحاكم بأمر الله اتهمَ مولاتي ست الملك بالزنا؟».

«معاذ الله! أحقا ما تقول؟».

كانت تلك الشائعة قد وصلتْ كلًّا من أحمدَ وإسماعيل كغيرهما من خدم القصر، إلا أنهما اصطنعا الجهلَ لأجل خاطر حسين، ولكي يحثاه على الاسترسال في الموضوع عله يبوح بخبايا وأسرار لا يعرفانها.

«نعم الزنا. تخيلا! كنتُ في حيرةٍ من أمري بخصوص الحاكم، أسمع عن أفعاله من العامة فأقول بجنونه، ثم أراه أمامي في القصر فيتبدل رأيي وأجزم بكياسته، لكن الآن، وبعد أن ثبتَ أنه اتهم أخته ذات الخمسين سنة بالزنا، والله لا أستطيع إلا أن أقول أنه مخبول بالغ الخبال. تقول فجر أنّ الحاكم اقتحم جناح الأميرة ست الملك وهو يرغي ويزبد. كان هائجًا جاحظ العينين، تعلمان كيف يبدو مخيفًا حين يغضب. اقتحم جناحها، ثم أخذ يصرخُ متوعدًا، قائلًا أنها زانية ابنة نصرانية، وأنها تدخل الرجال وتعاشرهم، وأن بطنها لم يتكوّر إلا سفاحًا، إلى غير ذلك من ألفاظ الخنا والخبال».

«ماذا فعلت ست الملك؟».

«ماذا فعلت! أنا متأكد أنها اتفقت مع الأمير سيف الدين على البطش

بأخيها الحاكم قبل أن يبطشَ بهما. هذا ما يجدرُ بها أن تفعلَه، وهذا ما أعتقد أنها فعلته. تقتله.».قالها وهو يمررُ إصبعيه أمام عنقه.

«كل هذا لا يدخل العقل»، تمتمَ أحمد، «مولاتي ستّ الملك بريئة من دم أخيها براءة الذئب من دم يوسف. المستفيد الأول والأخير من اختفاء الحاكم ليس مولاتي ست الملكّ وإنما جماعة الريدانيين وزعيمهم حمزة بن علي اللباد. هكذا يقول أبي. منذُ بدأ الحاكم بالاستماعِ إلى تخاريفِ الفرغاني والزوزني ونشتكين، والبلاد مقلوبة رأسا على عقب. أوهموه بأنهُ الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا يفنى ولا يموت، ثم قتلوه وقالوا باختفائه كي تنتقل الإمامة إلى زعيمهم الزوزني. ها هم الآن يطوفون الأسواق قائلين أنه اختفى وأيديهم مصطبغة بدمائه».

«لحظة يا أحمد»، تدّخل إسماعيل، «أنتَ وحسين تطرحان آراءكما المختلفة بخصوص مقتل مولانا الحاكم، ولكن ما الذي يؤكد أنه قُتل؟ لماذا لا يكونُ قد اختفى كما يقول الرِيدانيون؟».

«اختفى! إلى أين؟ لا تقل أنكَ تصدق خرافة ما وراءَ الهند. هل اتبعتَ مذهب الريدانيين أنتَ أيضًا؟».

«ليسَ هذا، إنما ما سمعته وشهدتهُ يدل على أن الأمرَ مصطنع وقد عُمِلَ له منذ مدة. فكرا باللهِ عليكما: لماذا يخرجُ الحاكمُ كل ليلة إلى المقطّم وهو يعلم أن آلافًا من المصريين يتربصون به ويتمنون قتله؟ لماذا يدخلُ على أخته ست الملك ويتهمها بالزنا ويغضبها قبل أسبوع من اختفائه؟ أليس شيئًا يبعث الحيرة؟ كما أني رأيتُ بعينيّ هاتين مولاي الحاكم وهو يدخل على أمه ليقبل رأسها ويسمعَ منها ويهبها مبلغًا من المال قبل مغادرته. أليس هذا سلوك شخص ينوي أن لا يرجع أبدًا؟

أقولها لكم وخذوها مني: الحاكم لم يُقتل وإنما اختفى. هناك شيء في داخلي يؤكد لي أن الحاكم كان ينوي أن يرحل منذُ مدة، وأنه دبر الأمر كي يظهرَ كما لو أنه اغتيل غدرًا».

«أهذا سلوك شخص يريد أن يرحل، أم سلوك شخص يُريد أن يُقتل؟ وأيم الله أنتَ المخبول يا إسماعيل وليس الحاكم! لا تستطيعُ أن تستنجدَ بالعقل، كي تشرحَ سلوك شخصٍ لا يملك ذرةً من عقل».

«لكنه ليسَ مجنونًا. لقد رأيتماه وسمعتما منه مثل ما رأيتُ وسمعتُ منه. كيف تصفانه بالجنون؟».

هكذا دارتْ عجلة الحديث بين الغلمان الثلاثة، وأخذت الآراء تقارعُ بعضها بعضًا دون أن ترجح لإحداها كفة. عندما هبط الليل أطفأ الثلاثة نارهم، وأيقظوا حمارهم، ثم انطلقوا صامتين باتجاهِ القصر الكبير شرقي القاهرة. لم يكن ليكدر خواطرهم أنهم يرجعون خائبين بلا حلٍ أو تفسير لقضية اختفاء الحاكم. كانوا شاكرين - على الأقل - هذه الفسحة التي ما كانوا ليسرقوها من وقتهم لولا اضطراب نظام القصر الناجم عن اختفاء الخليفة. نام حسين على الحمار، بينما أخذَ إسماعيل يقود الزمام وعيناه لا تبارحان ترابَ الأرض، أما أحمد فلقد أخذ يمشي متطلعًا إلى الأعلى، متأملًا النجومَ المرصِعة لقبة السماء، متسائلًا عن سر ولعِ الحاكم بها، وخروجه كلَ ليلةٍ من أجل مشاهدتِها.

في تلكَ الهدأةِ من الليل، في تلك الظلمة الغابشة الممتدة، كان هنالك صوت خافت لم يتمكن الغلمان من التقاطه. صوت مذعور يتدحرج، صوت هزيل، لو أنهم سمعوه، لربما اهتدوا إلى إجابة لبعض أسئلتِهم! صوت من المستحيلِ أن تحدد كيف ومن أين انبعث. لربما من تحت

الأرض، حيثُ كان إسماعيل ينظر! لربما من عند النجوم، حيثُ كان أحمد يُحدِق! ولربما من جوفِ العتمة والظلام وما وراء الحُجُب، حيثُ كان وعي حسين يسبحُ حالمًا. صوت خافت، بالكاد يسمع، يتوقفُ مليًّا ثم يعاودُ التدحرج. صوت يقول..

(2)

«أحاولُ أن أحدّق، فلا أرى سوى الظلام. أغلقُ حاجبيّ، فلا أرى سوى الظلام. هل الظلامُ أمامي أم أنه داخلَ كرةِ عيني؟ لا أرى سوى الظلام! ها! أين أنت يا عكبري؟ أينَ أنتَ كي تنهرني قائلًا بصوتك الأجشّ: الظلامُ لا يُرى، وإنما هو غياب الرؤى. سفسطة وأيمَ الله! أكادُ أجزمُ أن الضياء الساطع والظلام الدامس لهما نفس اللون. أكادُ أجزمُ أنني لو حدّقت في كوكبٍ دريّ، بالغِ الضياء، لبضع دقائق، لاستحال ذاك الضياءُ ظلامًا. أهذا ما أفعله الآن؟ أحدقُ في نجمة! أين أنا يا رب الملكوت؟ أين أنا يا رحمن؟ أمُعفّر الوجهِ، مكسور الهامة، ملقىً فوق التراب؟ أم أني أسيرُ في طريقٍ لانهائي، وسط الليل، باتجاهِ النجوم؟ أكادُ لا أحيرُ جوابًا. كيف أجيب، وأنا لا أحسّ بأطرافي، ولا أسمع رجعَ أنفاسي، ولا أرى ما يحوّطني. ربما أنا ميت! أو في مرحلةِ ما بعد الموت! أو ما قبله بقليل! لا أدري! لربما عالقٌ في البرزخ! لا أشعر سوى بكينونتي. كينونتي المسكينة وهي مطروحة ومسحوبة من كل اتجاه، حتى غدت باتساع الليل. هنالك حدسٌ داخلي يشعرني أنني أمشي. وسط الظلام. نعم أمشي بلا انقطاع. منذ ساعات. بل أيام! أكاد أجزم. ربما هي روحي تنزعُ أو تكاد، بينما يسقط الوعيُ في قاعٍ بلا قرار. لا بدّ

أن لهذا السقوط من نهاية! لا بدّ أنّ لهذا الخطوِ الحثيث منتبذًا أخيرًا! هناك نقطة ضوء تتراقصُ في الجانب الأيمن من بصري. هناك أخرى على الجانب الأيسر. وأخرى. وأخرى. أهي نجوم؟ لا يمكن! أراها حتى بعد أن أغمضَ عينيّ. لا يمكنُ أن تكونَ النجوم داخلَ محجريّ! إلا أن أكونَ أنا والليل شيئًا واحدًا. يا لها من فكرة! أنا والليل شيء واحد! ربما هو الناسوت الذي حدثني عنه كلٌّ من حسين الفرغاني وحمزة الزوزني عليهما لعنة الله. ما الذي أتى بي إلى هنا؟ إلى هذا المكان؟ هذه الحالة؟ لا أستطيع أن أذكرَ أين كنتُ هذا الصباح. بل إن زمني الحالي هو قطعة منفصلة لا تتصل بزمن بشري، لا تتصلُ بصباحٍ ولا مساء. أستطيع ـ على الأقل ـ أن أتذكر العكبري، والفرغاني، واللباد. ها هنا حبل أستطيعُ أن أتشبثَ به. العكبري. طفولتي. لربما قادتني البداية إلى نهاية، إلى ما أوصلني إلى وضعي اللعينِ ذا.

«أزقة القاهرة، قاهرة المعزّ، قاهرة أجدادي وطفولتي، نعم، أستطيع أن أسترجعَ أسواقها وأزقتها وتعرّجاتها وكأنها خطوط راحتي. أستطيع أن استروحَ ضوعَ التوابل والعطور، أن أسمع ضجيج الباعةِ والمتسولين. كم كنتُ أحبها! أحبها، وأخافُ أن أضيعَ في متاهتِها اللانهائية. القاهرة المحروسة، القاهرة التي أحببت، القاهرة التي أحرقت. كم كنتُ أودّ لو أنَّ والدي ـ العزيزُ بالله ـ تركني أجوبُ أزقتها وأسواقها حرًا طليقًا كالطيرِ في جنانِ الفلكِ بدلَ أن يعهدَ بي إلى ذاك الكهلِ المحدودبِ الظهر أبي الجلاء العكبري. أتذكرُ جيدًا كيفَ كان يضربُ براحتهِ فوق رأسي قائلًا: ركّز يا منصور، اجعل من الفوضى التي داخل عقلِكَ نسَقًا، اجعل من عقلكَ مرآةً تعكسُ نظام الكون وصَنعته. تعلمتُ على يدِهِ فنونًا من العلومِ لم يكن غيره قادرًا على التعرضِ لها أو تدريسها: الفلك

والنجوم، الكيمياء والرياضيات، الطبيعة والإلهيات. كنتُ سأشكرُ له كل هذه الكنوز العقلانية التي أودعها رأسي، لولا أسلوبه البغيض وتمارينه العقلية الطويلة التي استغرقُ فيها حتى يكادُ حاجبايَ أن ينعقدا تركيزًا. اجعل الفوضى نَسَقًا! استذكر نظامَ الكون! من قالَ أن للنسقِ فضلًا على الفوضى؟ ولمَ لا تكونُ الفوضى التي يزعم نسقًا لا يمكننا أن نتبيّنه؟ كنتُ أحاججهُ بمثلِ هذهِ الجدليات، لكنه سرعان ما يوبخني قائلًا: يا منصور، إذا كنتَ لا تؤمن بنسق، فأنتَ لا تؤمن بخالق، وإذا عميت عن الجمال، عميت عن الله. ذاك كان الشغل الشاغل لي أثناء طفولتي: الفوضى والنسق، الجمال والعلّة الأولى، كم أمضيت من ليالٍ وساعاتٍ طويلة وأنا أفكرُ في هذه المسائل وأحاول أن أتدبرَ لها حلولًا.

«كنتُ أظنُ أني أتقدمُ في الدَرس والتحصيل، حتى جاء ذلك اليومُ الذي صادف أن كنتُ ألهو فيه وراءَ ستار، وإذا بصوتِ العكبري يتناهى إلى أذني وهو يخاطب والدي بتلك الكلمات الكريهة: ولدكَ يا مولاي ضعيف عقل، لا أدري إن كان حملي إياه فوقَ طاقته سيقود إلى خير! نزلت علي هذه الجملة نزول الصاعقة، وأخذت أتهادى خائرًا نحوَ الشرفة الغربية، تلك التي تطلُ على النجوم والظلام وأحياء القاهرة. أخذتُ أتأملُ النجومَ وأنا أسترجعُ مذعورًا ما سمعت. ضعيف عقل! كيفَ ولماذا؟ وأنا الذي كنتُ أعتقدُ أنني أتقدمُ في سائر العلومِ والمعارف، وأرى في عينيه علائم الرضا والتشجيع! ضعيف عقل! لمَ يكدرني رأيه السلبي بحقيّ، ولا تلك الأقنعة التي سقطت بمجردِ أن أدار الأستاذ ظهرَه لتلميذِه، لكنَّ ما أرعبني وجعلَ ركبتيّ تصطكان فَرَقًا هو عجزي عن إدراكِ هذا الحالة التي وصمني العكبري بها. ضعيف عقل! هل أنا حقًا كذلك؟ كيفَ لي أن أدركَ بواسطة عقلي أن ذاك العقل خائر

ضعيف؟ أنا حبيس عقلي، ولا أستطيع أن أستخدمه كي أستدلَ به على خوره. تلك الفكرة سببت لي هلعًا، ومعها تداعت كل دروس العكبري وفلسفته بخصوص الفوضى والنسق. إذا كنتُ داخل الكون، فكيفَ لي أن أخرجَ منه لأتبينَ فوضاه من نسقه؟ أتذكرُ جيدًا كيفَ أخذت أراقب النجومَ، وأنا أترقب كل لحظةٍ أن أراها تسقط متهاويةً إلى الأسفل، وكأنها شهبُ غضبٍ من الرحمن.

«كتمتُ الأمرَ في باطني ولم أُطلعْ عليه أحدًا. بعدَ أيام، فاجأتني والدتي بجرةٍ من الفخّار زعمت أنّ رجلًا ذا كرامات يُطلق عليه ابن الوشيع هو من صنعها. يبدو أن رأيّ اللعين العكبري قد وقعَ موقعًا صعبًا على والدتي! موقعًا دفعها إلى أن تزور غياهبِ السجن، وأن تستجدي والدي كي يسمح لها بإطلاق سراح ذاك الرجل الصالح الذي كان حراسه قد قذفوا به في السجن، ابن الوشيع، وأن تطلب منه صنع تلك الجرة التي نقش في جوفها جميع آي الذكر الحكيم، وأن يقرأ عليها، ويبارك ماءها، علّها تشفي بمائها المبارك عقلَ ابنِها الخائر! شربتُ الماءَ من الجرة امتثالًا لأمر والدتي، ولأجل أن لا أكدرّ خاطرها، إلا أني لم أستطع أن أكمل الدرسَ على يد العكبري بعد أن سمعتُ منه ما سمعت. طلبتُ من والدي أن يضعني تحت جناح مدرسٍ آخر، وهذا ما حصل، إذ عهد بي إلى رئيس الخدم أبي الفتوح برجوان. لم يكن أمري مع برجوان بأحسن حالًا من العكبري، إذ أن الخبيث ما إن سمع بما وصمني به العكبري حتى بدأ يتجرأ عليّ ويهزأ مني، بل بلغت به الوقاحة أن أخذ يدعوني بالوزغة جهارًا هكذا!

«مات والدي، وأصبحتُ أنا الخليفة، العلة الأولى، ما عناه الشاعر الأندلسي حينما قال في مدح جدي المعزّ: ما شئتَ لا ما شاءت الأقدارُ.

هكذا خلتُ أولَ الأمر، إلا أن القوم كانوا يستخفون بي، ويتعامون عني، ويديرون الأمرَ باسمي دون أخذ مشورتي أو نصحي، أختي ست الملك، ورئيس الخدم برجوان، وقائد الجيش الحسن بن عمار شيخ كتامة. ظنوا أن الصبيَّ السفيهَ ذا الأحد عشر عامًا لا يحسن أمرَ الخلافة ولا يدري ما يدور حوله. بقيت كامنًا أتربصُ مدة أربع سنوات، أبني خطتي العظيمة في هدوءٍ وتؤدة، أوهمت الجميع أنني المغفل الغبي الذي يحسبون، حتى إذا انقضت السنوات الأربع، إذا بي أكشِّر عن أنيابي، وأدعو اللعين برجوان إلى دّويرة التين والأعناب. كان يومًا قائظًا، وكنتُ قد خرجت إلى البستان بدعوى التبرد، مصطحبًا معي صاحب المظلة ريدان، وعشرة من الغلمان والركابية. جلستُ على الكرسي وسط الدويرة، ووضعت الجندَ فوق رأسي، وجلبتُ غلامًا أمردَ أردت أن أستعمله رسولًا. قلت له: اذهب إلى اللعين برجوان، وقل له أن الوزغة الصغيرة قد صار تنينًا عظيمًا وهو يدعوك. لا بدّ أن العبارة سقطت على برجوان سقوط الصاعقة، إذ أتى الخبيثُ متعثرًا في ثيابه، يرتجف فَرقًا، جثا بين يديّ، وأخذ يقبل قدميّ وطرف ثوبي. أشحتُ بوجهي عنه، وخرجتُ من البستان، لأسمع صرخته الأخيرة بعد أن عاجله ريدان بطعنة في عنقه. فعلتُ مع شيخ كتامة ما فعلته بغريمه برجوان، فأوغرت صدور المشارقة عليه، وأظهرت له الأمان، حتى إذا خرج من بيته، إذا بالأتراك يثبون عليه ويتناهبونه بخناجرِهم.

«هكذا أمسكتُ بأمر الخلافة، وبدأ الجميع يرتعدون أمام خليفتهم الأعظم، ومنهم العكبري، معلمي السابق، صاحب القول المأثور عن خور عقل الخليفة، أخذ الوقح يقبّل الأرض بين يديّ، وينافقني، ويعلي من شأن كل ما أنطق به، وكأنه لم ينبزني سابقًا بالخرقِ وضعف العقل!

كان لزامًا أن تسقطَ رأسُ العكبري، كذلك رأس ريدان الصقلبي، وابن القائد جوهر، والقاضي حسين بن النعمان، ورؤوس خمسين غيره من الركابية. هكذا يجبُ أن تُبنى الخلافة، فوق عرش من الجماجم والجثث والدماء. لكن أين النسق من كل هذا؟ أين الصَنعة وأين التوازن؟ أين الجمال وأين العدل؟ أهذا هو الكون الذي خلقهُ الله على أحسن ما يكون؟ لماذا لا أسمع صوتَ الله؟ لماذا لا أرى أثرَ صنعته فيما يحدث من الأمور حولي؟ أتذكر جيدًا ـ مذ أيام طفولتي ـ مشهد تلك الأرملة الفقيرة التي استفاقت صباحًا لتجد عنق ديكها مقطوعة، أتذكر كيف أخذت تبكي وتستغفر وتحوقل وتقول أنها تستحقُ ما حدث لها، ذلك أنها لم تراعِ حقّ زوجها الميت، ولانت بالقول لرجلٍ عرض لها بالسوق. أريد أن أرى الأمر بهذا الوضوح. أريد أن أرى الصنعة، أن أقع على النسق، أن أفعل الخير فيدركني التوفيق وأقول لقد جازاني الله على حسنِ عملي، أن أفعل الشر فتصيبني طامة وأستبين العلاقة بين العقوبة والجرم. أي نسقٍ هناك إذا لم يكن المجرم يُؤخذ بجريرته؟ هناك الحياة الآخرة، أعرف هذا، يوم الحساب والثواب، لكن ما الفائدة من محو ما في الجدار بعد أن ينهار الجدار؟ أريد أن أرى النسق أثناء حياتي، قبل أن أموت، أن أشاهد يدَ الله في الكون. هكذا كنتُ أفكر تلك الأيام، وأنا أستشعر بفزعٍ كيف أن قوى عقلي بدأت تضعف وتتمنع، كنتُ أحتاجُ إلى أن أخرجَ إلى المقطم يوميًا كي أتأمل الليلَ والنجوم. كنت أقضي ساعاتٍ طوالًا وأنا أتأمل قبة الفلك، مستشعرًا ضعفي وخوري، إذ أنني كلما حاولتُ أن أنصرف بانتباهي إلى واحدة من النجمات، إذا بأخواتها يتمنعن على بصري، فيخبو نورهنّ، أو يضعف استشعاري لهنّ. كنتُ أريدُ أن آخذهنّ جميعًا في نظرةٍ واحدة. مثل هذا التمرين من شأنه أن

يعيد فوضى عقلي إلى سابق نظامِها، أن يريَني نسقًا مؤقتًا أستمسك به إلى حين.

«هكذا، وصلتُ أخيرًا إلى قراري الأكبر، خطتي الحاسمة، الفعلة التي ستجيبُ السؤال الذي بقي عالقًا مستعصيًا، ذلك التصميم الكبير الذي سيُسمعني صوت الله قبل أن أموت. لتتصرفْ كما لو أنك العلة الأولى يا منصور - هكذا حدثتُ نفسي- لتبدأ سلاسل وسلاسل من الأفعال التي لا تخضع لتفسير ولا تتأثر بما حولها، لتبدأ تلك الدَفعة التي ستحرك التروس إثر التروس في آلة القدر الضخمة، تَبدأ ولا تُبدأ، تؤثر ولا تتأثر، تخفض وتعلي، تقتل وتحيي، تبني وتهدم، هكذا بلا سببٍ ودون نظام، مخلّفًا حولَك الخرابَ والدمارَ والفوضى، ولتسمّ يومًا ترحل فيهِ مخلّفًا وراء ظهرك مصرَ وعرشَ مصر بأوصابه ووساختَه وقبحه. إن كان هناك نسقٌ في الدنيا، إن كان هناك عدل وتوازن وصَنعة، فلا بدّ أن آلة القدر هذه سوف تدركك في النهاية وستسحقك تحت تروسها الضخمة قبل يوم رحيلك، أما إذا استطعت أن تُنفذ بجلدك وتخرجَ من أرض مصر دون أن يمسّك أذى أو تدركك نازلة فلتعلم حينها أن هذا الكون فوضى لا يحكمه قوانين ولا يخضع لنسق.

«أتذكر شعور الحبور الذي امتلأت به بمجرد أن اكتملت تفاصيل تلك الخطة داخل عقلي، إلا أني لا أتذكر التأريخ الذي سميته موعدًا للرحيل. بدأتُ بإدارة تروس آلتي الرهيبة، التي لن يستطيع أحد أن يدركَ سرها أو يشرح فعلها، أمرتُ بهدم كنيسة القيامة في بيت المقدس حتى ضجّ الأقباط وأهل بيزنطة من الفعلة، وكذلك فعلت بجامع عمرو بن العاص. هدمت الحمامات، وأمرتُ بحرقِ أحياء القاهرة حتى كاد لهبها أن يمسَّ عنان السماء ويأكل الأخضر واليابس. أمرت بإلزام اليهود

بلبس السواد، وأن يعلق المسيحيون حول رقابهم صلبانًا ثقيلة. حرّمت على الناس الملوخية والجرجير والعنب، وكذلك حرمت أكل السمك بغير قشر. غيّرت في كلام الأذان، ومنعت صلاة التراويح، أمرت بقتل الكلاب، ومنعت خروج الحريم من بيوتهن أو صعودهن فوق الأسطح. أمرت بفتح الدكاكين والأسواق بالليل، ثم أمرت بعدم خروج الناس بعد صلاة المغرب. فعلت كل هذا، والجميع يتقولون ويجتهدون محاولين استنباط حكمة معينة وراء كل فعلة آتي بها. البعض قال أني حرّمت العنب كي لا يُستخدم في صنع الخمر! آخرون قالوا أنني حرمت الملوخية لأن معاوية كان مفتونًا بها! حتى حادثة الحرق ـ هناك من اعتذر لي عنها وقال أنني فعلتها بسبب شتائم رفعتها العامة في وجهي أثناء مرور موكبي بالسوق.

«اقترب الموعد المُسمى للرحيل، غير أن الأحداث أخذت منعطفًا آخرَ لم يكن مُتوقعًا بالنسبة إلي. وسط هذا الدمار وهذه الفوضى، خرج في الناس رجل يُدعى حسين بن حيدرة الفرغاني، وأخذ ينشرُ بين الناس كلامًا عجيبًا يزعم فيه أن روح الإله قد حلت في جسد مولاهم الحاكم، وأنني أنا المعلّ الذي لم يعله أحد، وأنّ الله خلقني علة أولى، منه وفيه وإليه، واستودع فيَّ عقلَه الكلي، وجوهره الروحاني، وكل ما كان وما سيكون. أحضرت الرجل إلى مجلسي، وسألته عن عدة مسائل كنتُ أبغي من خلالها أن أختبره وأن أقف على سره. يبدو أن الخبيث كان أذكى مما توقعت، وأنه قد استشف من أفعالي ما وراءها من ولع بقضية السببية وانشغال بمسألةِ العلة الأولى. سألته بعد أن مثل أمامي: يا فرغاني، إني مختبرك في مسألة سيكون جوابك عليها موضوع حكمي في أمرك: أرأيت بعد أن تفرغ العلة الأولى من إحداث السبب والمسبب،

هل تبقى منفصلة خارجة عن الكون الذي أحدثت، أم أن تلك الحوادث والأسباب من شأنها أن تدركها وتؤثّرَ فيها؟ أطرق الرجل برأسه برهة، ثم رفعه وقال متلعثمًا: مولاي أعلم وأحكم، والله حين أودع في مولاي جوهره الروحاني.. قاطعته: دع عنك هذه التخرصات التي خبّلت بها العامة فأنا لا أحفل بها. حدثني حديث الرجل ندَّه، حديث من فكر في هذه المسألة لأول مرة بجدية وعبّر عنها صراحةً دون تورية. هنا التمعت عينا الرجل، وانطلق يقول بعد أن تشجع: مولاي، السببية والعلّية والتأثر والحدوث، كلها مفاهيم منطقية استنبطها العقل كي يتعامل مع عالم الظاهر والمحسوس، لذا ليس لها معنى حين نتحدث عن ما وراء إدراكنا، كما أن الله سبحانه حين يفرح بعمل عبده ويغضب لمعصيته، هو لا يتأثر بمخلوقاته، وإنما يعلم ويشاء أن العبد سيحسن أو يخطئ، ويعلم ويشاء أنه سيفرح لإحسانه وسيغضب لمعصيته. ابتسمتُ لتخلصِ الرجل وقلت: أحسنت يا فرغاني، إلا أني رجل بسيط، لا أحسن الجدليات التي تستدير بواسطتها حول المسألة. لقد فكرتُ طويلًا في الموضوع، ولقد انتهى بي التفكير إلى أن أؤمن أنه من المستحيل للمعلة الأولى أن تبقى خارج إطار الكون الذي أحدثت، ذلك أنها تدرك بعلمها الرباني ما يحصل في خلقها، وهذا العلم يبقيها سجينة متأثرة داخل الكون الذي صنعت. تمتم الرجل: إنهُ لأمر حزين يا مولاي. هززتُ رأسي موافقًا: هو كذلك يا فرغاني.

«وافقَ الرجلُ هوىً في نفسي، فألحقته بحاشيتي، وجعلته يخرجُ في موكبي، إلا أنّ العامة لم يطيقوا صبرًا على ما جاء به الزنديقُ من الهرطقة، فوثبوا عليه ذات عصرٍ أثناءَ مرور موكبي بالسوق وتناوشوه بمطاويهم وخناجرهم. أمرتُ بإعدام القتلة، كنتُ أظنُ أنّ القضية ستنتهي هكذا،

غير أنّ رجالًا آخرين خرجوا ينادون بنفس دعاوي الفرغاني، وعلى رأسهم: حمزة بن علي اللبّاد الزوزني، ونشتكين الدرزي. هذه المرة كانوا أكثر تنظيمًا وأعظم خطرًا، جعلوا لهم أماكن وأتباعًا، وعينوا النواب وبعثوا الرسل. بلغت الجرأة برجال اللباد أن دخلوا جامع ريدان وأمسكوا بالقاضي وأمروه أن يعترف بإلوهيتي، مما أغضب المصريين وجعلهم يفتكون بهم. بعدها تعقد الأمر أكثر، فانشق نشتكين الدرزي على حمزة اللباد، وزحف برجاله نحو مسجد ريدان حيث يتواجد اللباد بصحبة اثني عشر رجلًا من جماعته. علا الصراخ وعمت الفتنة، إلا أني لم أكن أملك الوقت الكافي كي أتصدى لكل هذه القلاقل والمحن، لقد اقترب وقت الرحيل، كما أنّ هذه الفوضى تصب في صالح هدفي الرئيس وخطتي الكبرى. مضيتُ إلى شرفة القصر كي أشاهدَ قاهرة جدي تشتعل، وعندما بصرَ بي رجال نشتكين صُعقوا لهيبتي وتفرقوا عن زعيمهم. في اليوم التالي قُتل نشتكين.

«حزمتُ متاعي، وأزمعتُ أمري، وتوجهت إلى أمي كي أودّعها وأقبلَ رأسها دون أن أطلعها على سريرتي وما بيّته من أمر. افتعلتُ مع ست الملك شجارًا ألقيتُ خلاله أقذع الأوصاف فوقَ رأسها على مسمعٍ ومرأى من خدم القصر، كل هذا من أجل أن أزيد سلسلة الخناجر المشرعة خنجرًا جديدًا، كي أمنح آلة القدر التي صنعتُ سببًا آخرَ كي تطحنني وتدمرني تحتها. نعم، لقد كنتُ أحملُ في داخلي قناعةً كاملة أنيّ لن أنجو. يستحيل أن أنجو! سوف يتم الأمر، وسأقضي نحبي، وسيكون الأمر رائعًا، وسأبكي حينها. أعلمُ ذلك، أعلمه. سوفَ يخرجُ لي ابنُ أول ضحيةٍ سقطتْ في أول يوم جلستُ فيه على العرش، هكذا دورةً كاملة، سوف يخرج من مكمنه حين تغيب شمس اليوم الذي

سميته للرحيل، سوف يخرج من مكمنه، وسيعلوني بهراوته، ولسوف أزحف إلى أن ألقي نفسي تحت عرش الرحمن قائلًا والدموع تجري فوق خدي: حمدًا لك يا رب، لقد كشفت لي بديعَ صنعتك، لقد أريتني النسقَ في خلقِك.

«هذا هو آخر ما أتذكره، وأما بعد ذلك فلا يوجد سوى الظلام، لا يوجد إلا حالتي اللعينة هذه التي أنا عالق فيها. كيف وصلتُ هنا؟ ماذا حدث بالضبط؟ أين أنا؟ لماذا لا أشعر بجسمي؟ لماذا لم يبقَ من وعيي غير هذا النزر القليل؟ أظنُ أنني أمشي! نعم. لا بدّ أنني غادرتُ القصر، ومضيتُ أقطع فيافي الصحراء، والليل يعلو رأسي ويغطيني، مشكلتي الوحيدة هي أنني لا أستطيع التوقف. ربما أنا جريح! نعم جريح! قد يكون أحد قطاع الطرق خرج وعلاني بالهراوة التي كنتُ آمل، وأنا الآن مثخن طريح، لا أستطيع أن أتذكر ما جرى بسبب الضربة. ربما أنا ميت! جائز جدًّا. قد أكون قضيتُ فوق فراشي، في نفس ليلة الرحيل، وها أنا الآن تحت الثرى، بعد أن دفنوني وأهالوا التراب فوقي. يا ربّ السماوات! ما هذا الوضع المستحيل الذي رميتني فيه؟ أهذا هو مآل خطتك العظيمة وتصميمك الأكبر يا منصور؟ أن تبقى عالقًا في الظلمة لا تدري أميت أنت أم حي؟ أن تبقى عالقًا في لايقينك لا تدري إن كنت تمشي بلا توقفٍ أم تستلقي بلا حراك؟ أين هو النسق الذي أمِلت؟ هه، هذا هو النسق، هذا هو النسق يا منصور! انظر إليه، تمعن في الظلمة، كحّل بها ناظريك. هل كنتَ تنوي أن تستنطق الرحمن، ثم تختار يومًا، هكذا بكل صفاقة، وكأنك تهبه مهلة! يالغرور! ياللشطط! انظر إلى النسق، كحّل به ناظريك. ها هنا يتجلى النسق، ها هنا تظهر الصنعة: أن تعلق في الظلمة بلا يقين ولا إجابة!

«ماذا أفعل الآن؟ أين أمضي بأفكاري وذكرياتي؟ وهل بقي لدي سوى التفكير والتذكّر؟ كيف أنجو بنفسي من وضعي الرهيب ذا؟ لا بدّ أن أبحث في خضم أفكاري وذكرياتي عن ذكرى جميلة أتشبث بها، عن ذكرى أبتلعها أو تبتلعني كما فعل الحوت مع يونس. حوتُ يونس! هذا ما أحتاجُه. إنها الذكرى الأبرع جمالًا، الشيء الأكثر طهارة، إنها ما أحتاجه الآن، حتى وإن كانت قصة موضوعة. أتذكرُ جيدًا ذلك النهار القائظ، حين غادرني العكبري كي يتبرد في شرفة الدرس العلوية. وضع بين يديّ دواة وصحائف، أوصاني أن لا أغادر الغرفة حتى أملأ الصحائف بأي شيء كي يراجع خطي وأسلوبي في الكتابة. كنا قد فرغنا توًّا من درس التفسير وكان موضوعنا سورة يونس، ولأني لم أكن أحتفظ في عقلي بموضوع معين أريد الكتابة عنه أخذتُ أتخيل وأكتب عن حوت يونس، وكيف كان مصيره بعدَ أن لفظَ يونس.

«أستطيع أن أتذكرَ ما تصورته يومَها وأن أراه الآن رأيَ العين. أستطيع أن أرى الحوتَ وهو يسبح في أعماق المحيطات، سادرًا لاهيًا، ثم يلقي اللهُ في روعه أن اقفز فوق صفحة الماء وابتلع الرجلَ المقذوفَ من السفينة، فيفعل، وما كان له إلا أن يفعل. يبتلع الحوتُ يونس، ثم يغوصُ في أعماق المحيطات، ويرجع إلى سابق عهده. لكن هذه المرة يحصلُ شيء مختلف، يبدأ يونسُ بالتسبيح، فيُصاب الحوتُ بمثل الصعق. لقد استمع إلى تسبيح دواب وحيوانات البحر ردحًا طويلًا من الزمن، لكن ما يسمعه الآن شيء مختلف، ها هنا ندم وإيمان يفيضان ويمتدان على امتداد المحيط. دواب البحر تسبّحُ باستمرارٍ وبصوت مطمئن خفيض، لكن ها هنا عصفٌ وطرق عنيف على أبواب السماوات. يقفل الحوت

اتصاله بالخارج، ويركز جميع جوارحه إلى أحشائه، إلى مصدر التسبيح. لقد أصبح يونس بالنسبة إليه قلبَه النابض.

«وفجأة، وبمثل البداهة التي دفعت الحوت أن يبتلع يونس، يلقي الله في روعه أن اقذف يونسَ إلى الساحلِ، فيفعل، وما كان لهُ إلا أن يفعل. آهٍ كم شعرَ بالفقدِ والصمت بعد أن لفظ يونس! آهٍ كم شعر بالخواءِ والموت بعد أن لفظ يونس! يحسُ الحوتُ فقدًا هائلًا، يحسُ بقلبه يتوقف، بأحشائه تتمزق، يتعلم التسبيح ليلته تلك، إلا أنّ تسبيحه لن يبلغَ وجعَ يونس! يهبطُ الحوتُ إلى قاع المحيطِ علّه يتعزى بتسبيح الدواب إلا أنها لا تبلغ وجعَ يونس! يصابُ الحوت بما يشبه الحمى، يتمنى قربًا من الله بعد أن سكت قلبه النبوي إلا أنه لا يجد! تخطرُ في ذهن الحوت هذه الخاطرة: لا بدّ أنّ الله فوق السماوات! يصعدُ الحوتُ إلى أعلى، ويشقُ عبابَ الماء، ويقفزُ في الهواءِ باتجاه السماء والنجوم والليل، إلا أنه لا يصل. يحسُ بالفقد يعذّبه ويجلده، فيسبّح، ويغوص إلى القاع طلبًا لمزيدٍ من التسبيح، إلا أنه لا يلقى. يعاودُ الحوتُ ديدنه المحموم المرة تلو المرة، تارةً يقفز في الهواء، وتارة يغوص إلى القاع، تارةً يقفز في الهواء، وتارةً يغوص إلى القاع. كل هذا وهو يلهجُ بذكر الرحمن، ويسبح بحمده، ويتمنى قربه. يختلطُ الوضعُ على الحوت، وينسى نفسَه، وتختلط عليه النجوم السماوية مع الحصى في قاع المحيط. لقد تحولت لديه صفحة الماء مرايا يتناظر فيها الأعلى مع الأسفل والأسفل مع الأعلى، فلا يدري أهو يسبح في المحيط ويقفز في الهواء، أم يسبحُ في الهواء ويقفز في المحيط! عندها فقط يفهمُ الحوتُ أنّ المكان والاتجاه ليسا مهمين، أنه لن يقترب مزيدًا من الله بقفزه إلى السماء أو بإصغائه إلى دواب البحر. المهم هو أن يسبّح بنفسه، أن يسبّح باستمرار، أن يحمل

فكرة الله دون انقطاع عوضًا عن حمله لنبيه، هذا ما سيقربه إلى الله، وإلى السماء، وإلى الجنة.

«ما أشبه وضعي الحالي بوضع الحوت! ها أنا عالق وسط الظلام واللايقين، بين الحياة والموت، لا أدري أين أنا ذاهب وكيف وصلتُ هنا. كل هذه الأسئلة لا تهم، أسئلتي السابقة بخصوص النسق والجمال والعلة الأولى لا تهم. ما يهم الآن هو أن أسبّح، أن أتشبث بهذه الفكرة الجميلة، أن أسافرَ وأقطعَ هذه الظلمات وسط بطن الحوت، علّه يقذفني في النهاية تحت عرش الرحمن، وحينها سأسجدُ وأمرّغ وجهي على التراب قائلًا: حمدًا لكَ يا الله أن وهبتني يقينًا في اللايقين، حمدًا لكَ يا الله أن جعلتني أصنعُ الجمالَ بدلَ أن أفتشّ عنه».

علّيون

«آهٍ يا قوىً إلهية، امنحي عزيمتي الخائرةَ
إرادةً كافيةً كي تحدّقَ فيَ ذاك الظلَ
الذي طبعتهُ المملكةُ العلوية فوقَ ذهني».

(دانتي إليجيري)

(1)

بمجردِ أن سلّم إمامُ الحيّ من صلاة العصر، بدأت النساءُ بالتقاطرِ على بيتِ أم سليمان كي يؤدينَ واجبَ العزاء. كانت الكراسي مصفوفةً بالتوازي على امتداد الجدار في الجهة الجنوبية، وكانت المصابيحُ معلقةً فوقَ رؤوس الحاضرات، راسمةً على البلاط لوحةً كئيبةً من الظلال البطيئة الراقصة، لوحة تناسب الحادثة الفاجعة التي ألمّت بسكان المنزل، وحوّلت بهجةَ عيدِهم عزاءً قاتمًا.

تمتمتْ إحدى الحاضرات مخاطبة امرأة تجلسُ جانبها:

«لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، عزاءٌ في العيد!».

«لا اعتراض على حكم الله. انظري إلى الزينة المعلقة فوق رأسك،

لقد علقوها احتفالًا بالعيد، فإذا بالفاجعة تدهمهم، وتشغلهم حتى عن إزالة الحبالِ والزينة».

«كيف مات ولدهم؟».

«كان يلهو مع باقي الأطفال في حوش منزلهم، حيثُ كانوا ينوون طبخ ضحاياهم في قدرٍ كبيرة تمتلئ ماءً ساخنًا. لا أدري ماذا حصل بالضبط، لكنه في غمرةِ لعبِه، سقطَ في القدر، ولم يدركوه حتى تسلّخ جلده بالكامل. عندما وصلوا المستشفى كان قد لفظ أنفاسه».

«لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله».

داخلَ الدار، كانت أم سليمان تتلفعُ بعباءتها السوداء، وتتصدر مجلسَ العزاءِ دون أن تعيَ حقيقةَ ما يجري حولَها. كانت نظراتها مذهولةً حزينة، وكان لسانُها يردُ دونَ وعيٍ تلك الألفاظ التي يتوجبُ عليها أن ترددَها: إيانا وإياكم.. جزاكِ الله خيرًا.. إيانا وإياك.. جزاكم الله خيرًا.. فوقَ رأسِها وقفت ابنتها نورة، تسرّي عنها، وتقبّل رأسها، وتشدّ على يديها. كان المنظرُ حزينًا ومُفجعًا بما فيه الكفاية كي يضيفَ مرارةً تفوقُ مرارةَ القهوة الدائرة بين الضيوف.

عندما خفّت قاطرة النساء المتجمهرات حولَ أم سليمان، نهضت شيخة، جارة أم سليمان، وسارت بخطى عريضة واثقة في اتجاه الأم الثكلى. ظهر القلق على وجه نورة وهي تراقبُ جارتهم تنحني بقامتها النحيلة بين يديّ أمها، وتقترب بعدساتِها المقعرةِ وأنفها الممشوق.

«لا بأسَ عليكِ يا أمَ سليمان، لله ما أعطى، ولله ما أخذ، وما تدري نفسٌ متى وفي أي أرضٍ تموت. أفهَمُ حزنكِ يا أمَ سليمان، لكن واللهِ

لو تدبّر المفجوعُ في مصيبته لحمدَ الله على قضائه وقدره، ولرأى خفيّ حكمته في أشد المصائبِ إيلامًا».

تطلّعت أم سليمان بذهولٍ في جارتِها، وتغضّن وجهها وهي تحاولُ جاهدةً التركيز. أكملت شيخة حديثها دونَ أن يرفَّ لها جفن:

«وردَ في حديثِ عائشة أن من مات من صغار المسلمين كان من عصافير الجنة. طوبى لولدك، فلربما لو عاش، لأدرك من العمل ما منعه من دخولها».

فجأة، وسط هدوء وخشوع مراسم العزاء، دوّت صرخةُ أم سليمان:

«تعرفينه؟».

توقفت الهمهمةُ، واستدار كل من بالمجلس نحوَ أم سليمان والمرأة النحيلة. أخذت شيخة تتطلعُ في حرج في وجهِ أم سليمان.

«هل تعرفين ابني سليمان كي تتحدثي عنه بهذه الصفاقة؟ هل أنتِ أمه؟ هل أنتِ من حملت به؟ هل أنتِ من ربتهُ وكانت توقظه كل فجرٍ كي يؤدي الصلاة في وقتها؟ هل أنتِ أمهُ التي كانت ترجو أن ترى فيه إمامَ مسجدٍ أو طالب علم؟ عصفورٌ في الجنة! مجردَ عصفور؟ يأخذهُ الله مني قبلَ وقتِه، ثمّ يجعلهُ مجردَ عصفورٍ من عصافير الجنة، لا كغيرهِ من الرجال؟».

انحنتْ نورة على أمها تحاولُ تهدأتها، بينما هرعت إحدى الأقارب إلى شيخة ساحبةً يدها، علّها تتمكنُ من إنقاذِ الموقفِ وإخماد الفضيحةِ قبل تفجُرها. سحبتْ شيخةُ أصابعها النحيلة من بين يديّ حصة، وأخذت ترتجفُ بعصبية وسط المجلس.

«أنا أفهمُ حزنكِ وعظمَ فقدك، لكن، لكن ما تقولينه تجديف

واعتراض على قدرِ الله، وواجب المؤمن أن يذكّر أخاه بذنبه وينبهه إليه كي يستغفر ويتوب».

«أخرجي من بيتي». صرختْ أمُّ سليمان.

بلغت الفضيحة الآن أوجها وصار من المستحيل كبح جماحِها. سارعت النساءُ المتحلقات إلى شيخة يحاولن إسكاتها وإخراجها من المجلس، بينما سقطت أم سليمان بجسدِها على الأرض، وانخرطت في بكاءٍ مرٍ طويل، وكأن كلَّ مخازن الحزنِ تفجرتْ في داخلِها، لتنهمرَ الدموعُ دفاقًا فوقَ خديها.

أنهضتْ نورةُ أمَّها من الأرض، وسارتْ بها إلى خارج المجلس، وسرعانَ ما علتْ الجلبةُ والهمهمةُ بمجردِ خروجهنّ.

صعدتْ نورةُ بأمها إلى غرفةِ نومها، تسندها إسنادًا كي لا تقعَ متهالكةً على الأرض. كانت أنفاسُ أم سليمان تتقطعُ وتتلاحق في نشيجٍ مبحوحٍ مرّ، كان بقاؤها في مجلس العزاءِ على هذه الحال غير ممكن. فتحت نورة باب غرفة النوم، وأجلستْ أمَّها على السرير، وقبلّت رأسها، ثم سألتها أن تنامَ بضعَ ساعاتٍ علّها تسترد بعض قوتِها وتتمكن لاحقًا من النزول ثانية إلى العزاء.

عندما غادرت نورة، نهضت أم سليمان متحاملةً على نفسها وتوضأت. وضعتْ جِلال الصلاة فوقَ رأسها وصلّت ركعتين تبتهلُ فيهما إلى الله كي يغفرَ لولدِها ويغفرَ لها. بعد أن فرغت، استلقت على السرير، وأغمضت عينيها. كان قلبها يفيضُ ندمًا على الكلام الذي تفوهت بهِ في مجلس العزاء، لكنهُ أيضًا كان يفيضُ حزنًا وفجيعة على ولدِها الذي احترق وقضى وسط نيران القدر، قبل أن يبلغَ مبلغ الرجال. عصفورٌ في الجنة؟ رحماكَ يا الله!

(2)

عندما فتحتْ أمُ سليمان عينيها، أحسّت بخفةٍ هائلة. كانتْ تتطلعُ من أعلى على جنان وبساتين شاسعة، تمتدُّ تحتَ مرآها على طولِ الأفق. كانت الأنهارُ تجري، والنسائمُ تتراقص، والروائحُ العطرية تملأ الروحَ بالنشوةِ دون أن تزكمَها.

أكثر ما أشعرها بالذهول، هو شعورُ الخفةِ الذي امتلأت به، والذي لم تكن تتوقعُ أن تستيقظَ لتجدَه يملأ روحَها. أينَ الفجيعة وأينَ الحزن؟ أين الندم وأين الفقد؟ لا شيء من هذا! لقد امتلأت روحُها بالخفة، حتى اعتقدت أنها روحٌ لا جسد، ولكي تتأكدَ من ذلك، قامتْ بتركيزِ جميعِ ماهيتها إلى الأسفل، نحوَ ما تحسبهُ قدميها، فإذا بها تهتزُ إلى أعلى وأسفل، وكأنها تقفُ على غصن!

يا إلهَ السموات! هل أنا عصفور؟

يا إلهَ السموات! هل أنا في عَدْن؟

تطلعتْ أمُ سليمان حولَها وهي تلعبُ على الغصن؛ ترتفعُ تارةً وتهبطُ تارة، ترتفعُ تارةً وتهبطُ تارة.

على ضفةِ أحدِ الأنهار، جلسَ رجلٌ بجانب امرأة، وقد غطسا رجليهما في الماء حتى ركبتيهما. كانا يتحدثان بسعادةٍ، والبسمة تملأ محياهما. كانا جميلينِ إلى درجةِ الطُهر، وصبوحينِ إلى درجةِ الإشعاع. أحستْ أم سليمان بفيضِ حبٍ يملأ قلبها تجاه هذا الرجل وهذه المرأة.

فجأة، لمحتْ أم سليمان عصفورًا يحلقُ أمامَها. كان ريشهُ نظيفًا، وغناؤه عذبًا، وعيناه تفيضان سعادةً ورضا. إنْ كان يطير، فأنا أطير! لم تنتظر أم سليمانُ أكثر، بل قذفتْ بنفسها من أعلى الغصنِ لتهوي إلى الأرض، وعندما فردت جناحيها، التفت النسائم الهيّنة حواليهما، لتحملهما معها إلى أعلى عليين.

أخذتْ أم سليمان تتطلعُ فيما تحتها وهي تتطايرُ مع الهواء. ها هنا منتهى النعيم! كانت حواسُها مفتوحةً لاستقبالِ كل هذا التناغمِ والتناسقِ وامتصاص كلِ هذه المتعة. ها هنا؛ لا ألم ولا تفكير، لا طموحَ ولا ندم. مجرد موسيقى. لحظة أبدية خالدة.

عندما يفيضُ قلبُ العصفور، يحسُّ بحاجتهِ إلى الغناء. غرّدتْ أم سليمان، غرّدت وهي تدركُ أنهُ ليس من المهم الشكلَ الذي تتخذهُ في هذا المكان، لا يهم أن تكون شجرةً أو عصفورًا أو إنسانًا، ما يهم هو أن تكونَ فيه، في هذا المكان، أن تغرّد، أن تكونَ جزءًا صانعًا في هذا المكان الأبديّ التناغم.

عندما دخلتْ نورة إلى الغرفة لتوقظَ أمَها، أصيبتْ بالذهول. كانت عينا أمها المغمضتان تفيضان دمعًا وهيَ نائمة.

الأفكار الأخيرة التي دارت في رأس جيوردانو برونو

(1)

لطالما تساءلتُ وأنا أقرأ في ملاحم المنكوبين والمصلوبين والمُعذّبين: كيف أمكنهم أن يصمدوا حتى لحظةِ لفظِ نفسِهم الأخير؟ كيف أمكنهم أن يجتازوا مراحلَ التعذيب، الواحدةَ تلوَ الأخرى، دون أن تحدثَ ـ ولو لمرةٍ واحدة ـ تلك اللحظة الهائلة؛ حين يصرخُ الواحدُ منهم بأعلى صوته: «بحقِ الله أطلقوني، لم أعد أحتمل! أكفرُ بما تشاءون، وأقولُ ما تشاءون، لكن أوقفوا الألم، أوقفوا الألم».

أفكر في الموضوع ثانية، فأتمتم: «لا بدّ أنّ هناكَ شيئًا ما يشغلهم! شيئًا يفصلهم عن العالم الخارجي، ربما هيَ فكرةٌ بالغة الجمال تملأهم، ربما هي نفس الفكرةِ التي يموتون من أجلِها!».

الأفكار! الأفكار! كم أعلينا من شأنها! إلى درجة أن عُزيت ماهية الجنس البشري إلى هذه الخاصية العقلية. إن لحظة مثل هذه ـ أعني لحظة الإعدام ـ من شأنها أن تمحّص هذه المَلكة العقلية، أن تختبرَ هذا التراث البشري الطويل من المعارف والفنون والأفكار ـ ما جدواه إذا نحنُ لم نبقَ؟ بعدَ دقائق سوف

يموت الفرد! يموتُ ويختفي ويصبحُ عدمًا، جمجمةً نخرة يسكنها الدود، ولا تمتلئ بالأفكار بل بالهواء والعفن. أيّ نوعٍ من الأفكار سوف يدورُ في رأسِ رجلٍ ينتظر لحظته الأخيرة؟ ذكريات سابقة! صورٌ قديمةٌ! وجهٌ حبيب! طلبُ مغفرة! فزعٌ هائل! ظلمة أبدية! العقلُ أم الروح؟ الدنيا أم ما بعدَها؟ ولكن، وأثناء هذه اللحظات العصيبة، وبينما يحضّرُ المحكوم بالإعدام نفسَه كي يغادرَ هذا العالم، هناك الألم! هذا المسمار الهائل الفظيع، الذي يربطه بتراب الأرض، إنه النار أو الصليب أو الخازوق، وفي كل لحظةٍ تحاول فيها روحهُ التحليقَ والنجاءَ من هذه الأرض، يسري الألمُ مزمجرًا على طول أعصابِه، ليطردَ أيّة فكرةٍ من شأنها أن تعزّيه أو تسرّي عنه.

دارت هذه الأفكار في خاطري وأنا أقرأ عن الفيلسوف النولاني المنكوب جيوردانو برونو. هذا الراهب الدومينيكي الذي خلعه الفاتيكان، ومن ثمّ قامت محاكم التفتيش بحرقه حيًّا. للأسف، ليس هناك إلا وثائق معدودة تطفحُ منها نبرةُ التعصب والتشفّي. إحداها رسالة سطّرها رجل نكرة يُدعى جاسبار شوب، لا يمكنُ الاعتمادُ عليها، خصوصًا أن صاحبها المتذبذب بين البروتيستانية والكاثوليكية عُرفَ بخداعه وتزويره. أينَ أجدُ الحقيقة إذن؟ كيف أستطيع النفاذ إلى أفكار جيوردانو برونو في لحظاته الأخيرة، كيفَ لي أن أتطلعَ في وجهه؟

بعد أن أدركت أن الموارِدَ التاريخية شحيحة ولا تملك مصداقية، عندها عمدتُ إلى طريقة أخرى: الاعتماد على أفكار وكتب برونو. لا بدّ أنّ فكرته الأخيرة التي تعلق بها قبل موتِه هي

نفسها إحدى تلك الأفكار التي كانت هاجسًا لهُ أثناء حياته والتي ملأ بها كتبه: السُعار البطولي، عشاءُ رماد الأربعاء، طرد الوحش المنتصر، حامل الشمعة. عندما اعتمدتُ هذه الطريقة، انزاحَ الغبارُ فجأة، وإذا بي أتطلعُ في وجهِ جيوردانو، مباشرة! يُقالُ أنّ للجمال سطوةً تعادلُ سطوةَ الحقيقة، وسواء أكان هذا القولُ صحيحًا أم لا، صرتُ أؤمن بأن الأحداث لم تجرِ - ولم يكن يمكنُ لها أن تجري - إلا بهذه الطريقة..

(2)

في ظلام إحدى زنزانات برجِ نونا الرطبة يقبعُ جيوردانو برونو. لم يكن ليأبه لرطوبة الزنزانة أو برودتها، لم يكن ليلتفت إلى وعورتها أو ظلمتها، وهو الذي قضى فيها ما يقاربُ سبع سنوات، ولم تبقَ لهُ سوى ليلة واحدة. كان يتمنى شيئًا واحدًا فقط، شيئًا واحدًا كان من شأنه أن يعزّيه في ظلمته وخوفه: لو أنّ سقف هذه الزنزانة مرصعٌ بالنجوم.

يتذكرُ أولَ ليلةٍ قضاها في العراء، عندما ترك خلفَه قرية نولا، وغادرها قاصدًا نابولي كي ينضم إلى أخوية الرهبان الدومينيكين. عندما أظلّه الليل، استلقى على ظهره، وأخذ يتطلع في قبة الفلكِ الواسعة. فوقه، كانت ملايين النجمات تتألقُ في السماء. تمتمَ في نفسه: لو أنّ للجمال صورةً مطلقة لكانت هذه! لا بدّ أنَّ وجهَ الله يطلُ عليها! لا بدّ أن النورَ الذي تعكسهُ هو نورُه! مضى على تلك الليلة خمسة وثلاثون عامًا، وها هو الآن محبوسٌ في زنزانة مظلمة في روما، ينتظرُ أن يُحرقَ حيًّا أمام الملأ، والسببُ هو النجوم!

يسمعُ جيوردانو صرير مِفتاحٍ يدور في قفلٍ حديدي، وعندما يُدفع الباب، يتسلل إلى الزنزانة ضياء بسيط. لم يرفع جيوردانو رأسه، لقد كان يتوقع حضورَ ضيفه الأخير وينتظره. الكاردينال بيلارمينو! لا بدّ أنه يريد أن ينتزع منه توبةً في اللحظة الأخيرة قبل أن يمضي إلى الحرق! يرفعُ الكاردينال بيلارمينو طرفَ ثوبه، يجترئُ بضعَ خطواتٍ إلى الأمام ليقع نور مصباحهِ على جبهة الراهب الهرطيق. يتنحنحُ بيلارمينو:

«غدًا سوف يأتي الجلادون، ويقتادونك إلى ساحة الورود، حيثُ ستحرقُ حيًّا أمام الملأ. قبل ذلك، سوف يدقون مسمارًا طويلًا، ينفذ من أسفل فكك حتى الحنك، وستصبحَ عاجزًا عن الصراخ. أنا هنا حمامةُ سلام، بكلمة مني سوف تتجنب كل هذا. سأقولها بصراحة: لولا أنك لم تكن راهبًا دومينيكيًّا ومحسوبًا علينا لما وجدتني هنا».

«مقابل ماذا؟».

«أن تتنكّر للمسائل الثلاث التي نوقشت أثناء محكامتك: قولك ببشرية المسيح، وقولك بأنّ الله سيعفو عن الشياطين في النهاية، وقولك بأنّ الكون بلا نهاية، أنّ الأرض التي نسكن فيها ليست مكانَ الحياة الوحيد».

«أتنكّر لإحداها! هي كلها ذات جدلية واحدة، وتقدم تصورًا واحدًا لله. كيف تريدني أن أقللَ من شأنِ الله، فأجعله يمشي بيننا، ويموتُ من أجلنا، على الصليب؟ أهذا هو الرب الذي صنع هذا الكون اللانهائي والبديع، ومن ثمّ نصلبه، بكل بساطة، على الصليب؟ ثمّ تريدني أن أقلل من رحمته ومن قدرته، فأقول أن رحمته نهائية، وأن كونه محدود! لك أن تؤمن بأن الحياة على هذه الأرض هي الحياة الوحيدة، لك أن تظن أنها كل شيء، أنكَ مركز الكون، لكنك لن تجبرني على تغيير تصوري لله، والذي لا يصلح أن يكون الكون الذي خلقه إلا مرآةً لقدرته اللامتناهية».

«المسألة لم تعد مجرد هرطقات ميتافيزيقية. المسألة بكل بساطة: هل تريدُ أن تُحرقَ غدًا أم لا تريد».

«تستطيعُ أن تُحرقَني، وتحرقَ كتبي، وتحرقَ الورق. لكن الفكرة

أطلقت وانتشرت ولن تستطيع أن تحرقها أو أن تتخلص منها ما دام هناك نَفَس حيّ. حتى لو تنكّرتُ للفكرة - أنا نفسي مؤلفُها - لن يضرها ذلك شيئًا. لذا تبقى المسألة شخصية، مسألة كرامة ذاتية. هل أريد أن أُحرقَ حيًّا؟ بالطبع لا! لكني لا أستطيع أن أتنكّر لتصوري الجمالي لإلهي، لا أستطيع أن أحيا تحت سماء وكون لا يعكسان تصوري لله».

يستديرُ الكاردينال بيلارمينو راجعًا على أعقابه. كان يعلمُ في قرارة نفسه أنه من المستحيل استدراج هذا الرجل العنيد. لقد كان صادقًا حين أخبره أن أخوته الدومينيكية كانت سبب مجيئه، لكنه لم يأتِ من أجل ما تقتضيه هذه الأخوة من رباط روحي، بل لأن انشقاق راهب دومينيكي على كنيسته - وفي وقت عصيب مثل هذا - أشد إيلامًا وطعنًا في حق الكنيسة الكاثوليكية.

بعد أن يُغلق الباب، ينطوي جيوردانو على نفسه داخليًا.

أُحرقُ حيًّا! يا له من شيء مُرعب! هل سأحسُّ بالألم؟ هل سيملأ الفزعُ روحي حتى أتقيأ؟ كم سيستغرق الأمر حتى تفيضَ روحي وترحل؟ وكيف سأبدو؟ وكيف سأصبر؟ ربما يكونُ دقّ المسمار في سقف حلقي نعمةً لا نقمة! فلولاه لربما صرخت وبكيتُ ولعنتُ من أمامي ولعنتُ القدر! لكنهم سيرون ذلك في عضلاتي المشدودة، سيرونه في عيوني المرعوبة، في انقباضات وجهي المتوسلة. كيف سأبدو؟ وهل سأتقيأ؟ والألم والفزع! الألم والفزع!

(3)

عندما يدخل الجلادون، يجدون جيوردانو نائمًا. يسحبونه على قدميه، فينتبه فزعًا. جسدهُ نحيلٌ وخفيف، وكأنهُ بالكاد يحتفظ بروحه. يتطلّعُ جيوردانو في جدران السجن التي بقي محبوسًا بينها سبع سنوات. اليوم سأخرج منها!

يُلبسونهُ قباءً جلديًّا بنيّ اللون. يرفعونَ ذقنه للأعلى، ويدفعون مسمارا عاموديًا حتى ينشب باللسان ويشق الحنك. يمتلئ فمُه دمًا غزيرًا يبتلعه بلا مبالاة. الآن، وبعد أن ثبتوا المسمار، لم يبق أمامه غير الترقب الطويل للمرحلة الأكثر إيلامًا.

يضعونهُ في عربةٍ خشبية تستخدم في نقل القشّ. يجلسون متحلقين حولَه. كان بعضهم يرمقه بهدوء، والبعض الآخر يتجاذب أطرافَ الحديث اليومي. يتطلّع جيوردانو في البيوت المصطفة على طول الشارع، فيحسُّ بغصةٍ مريرة. يا لهذه الحياة العزيزة! كم كان بوده لو يبقى الآن في أحد هذه البيوت، وأمامه نار صغيرة قد اشتعلت لتدفئَه، لا لتحرقه. يقتربون من مسرح بومبي، فيرى جيوردانو العمود الخشبي الطويل الذي نُصبَ له وسط ميدان الورد. خشبٌ سوف يحترق كما يحترقُ جسدهُ تمامًا، ولربما أصبحا رمادًا واحدًا!

يربطُ الجلادون جيوردانو إلى الصارية الخشبية. عُقدُ الحبل حول يديه غليظة وكبيرة. يستطيعُ تحرير رسغيه لو أنه دفعهما بإصرار عبر عقدتي الحبل، لكن أين الفرار وقد أحاطَ بهِ كل هؤلاء الجنود والقتلة؟

يبدأ العامة بالتحلقِ حول مكان الحرق، بينما الجنود منهمكون في إلقاءِ الحطب تحتَ قدميه. يتعالى صوتُ أحد القساوسة وهو يقرأ نصًّا ما، بينما يقلّب جيوردانو عينيه الزائغتين في الجماهير الملتفة حوله. أسفل قدميه، تقف أمٌّ تحمل طفلها الصغير، وتلقنه شيئًا وهي تشير نحوَه. كانت بعض الوجوه تنظر إليه بكرهٍ، وكانت وجوه أخرى تنظر إليه بتوجع.

تطلّع جيوردانو المربوط إلى صاريته نحو أطراف الساحة البعيدة، وراءَ الجموع، حيثُ السوق. هناك على المدى البعيد، كان الناس يصطفون أمام محلٍ لبيع الخبز. في زاوية مقابلة، كان شاب يغازل شابة ويسرُّ في أذنها ما يضحكها ويخجلها معًا. صبي صغير كان يقفز فوق ما يشبه الحصان الخشبيّ. يالللفزع ويالللرعب! ها أنا أموتُ هنا محترقًا، بينما الحياة تستمر بشكلها الطبيعي! لماذا يعتقدون إذن أنهم مركز الكون؟ لماذا يحرقونني لمجرد أن قلتُ أنهم لا يمثلون إلا ذرةً بسيطة في هذا الكون الكبير الشاسع؟ ولماذا أموت؟ أمن أجلهم؟ أمن أجل كتبٍ كنت أبغي من خلالها أن أوصلَ أفكاري إليهم؟ وها أنا أحترق، أصبحُ رمادًا وعدمًا، بينما الحياة تستمر، مثلها مثل أيّ يوم عادي!

كان أكثر ما أفزع جيوردانو أنه يموتُ الآنَ وحيدًا. يسري الفزعُ في كيانه، يحسّ بالغثيانِ يملأ معدته، ويحسّ بمرارة في حلقه تختلط بطعم خثرات الدم المجتمعةِ فيه.

ينتهي القسيس من تلاوة ما يقرأ، وعندها يدني أحدُ الرهبان صليبًا نحو جيوردانو، فيزيح الأخيرُ وجههُ بامتعاض. حتى المسيح

الذي يؤمنون به، مات وبجانبه سارقان يُصلبان معه، أما أنا فأموتُ وحيدًا.

تشتعلُ النارُ في كومة الحطب، ويحسّ بلذعها يسري في قدميه. سأموتُ وحيدًا! سوف يسري الألمُ في أعضائي، وسيكون قاسيًا، وبطيئًا.

تكادُ روحهُ تتهاوى، والألم لمّا يزلْ بعدُ في بداياته، لولا أن فكرةً قصيّة انبعثت فجأة وسطَ عقله لتملأ روحَه وكيانه..

هل أنا فعلًا أحترقُ وحيدًا؟

إذا كانت فكرة اللانهاية صحيحة، فأنا بكل تأكيد لا أموت وحيدًا!

الأرض ما هي إلا كوكبٌ من الكواكب، والشمس نجمة من النجمات، والمجرة واحدة من ملايين الملايين من المجرات. وليست الحياة مقصورة فقط على كوكبنا، بل إنها في ملايين الملايين من الكواكب التي تتظافر فيها شروط الحياة، كل ذلك انعكاسًا لقدرة الله اللانهائية.

إذن فلا بدّ أنَّ هناك رجلًا يُحرق الآن لمثل فعلتي! رجلًا يحرقُ لأنه نادى بلانهائية الكون. ليس رجلًا واحدًا، بل اثنان، وليس اثنين، بل ثلاثة، وهكذا.. حتى يصبحَ العددُ أيضا لانهائيًا بما يتناسب مع قدرة الله المطلقة.

تبدّلَ المنظرُ المنبسط أمام عيني برونو، بينما أنشبت النار في قبائه الجلدي. لم يعدْ يرى قساوسة متجهمين، ولا جنودًا صارمين، ولا أناسًا متحلقين. ساحة الإعدام لم تعد ساحة الورود، وإنما أصحبت الكونَ بمجراته ونجومه وكواكبه: ملايين الملايين من الكرات الدائرية التي

تحلقُ في فضاءٍ أسودَ رحب، وفوق هذه الكرات صوارٍ خشبية كمثل هذه التي يُربطُ إليها، ترتفع عاليًا وقد شُدَّ نحوَها أشخاص ينادون بمثل ما نادى، وها هم الآن يحترقون، معَه، وهم يرفعون نجواهم نحو ربٍ غيرِ نهائيّ القدرة.

«أنا ـ بكل تأكيد ـ لا أموتُ وحيدًا».

كانت هذه هي الفكرة الأخيرة التي دارت في رأس الفيلسوف النولاني جيوردانو برونو قبل أن يلفظ أنفاسَه.

برج بابل

«قيل سابقًا بأنّ الله قادر على خلقِ أيّ شيءٍ عدا ما يتعارض مع قوانين المنطق. لكن الحقيقة هي أننا لا نستطيعُ أن نصفَ بألسنتنا كيف سيبدو هذا العالمَ الغير المنطقي».

(ليدفيج فيتجنشتين)

أنا أحدُ الحكماء الأحد عشر الذين أشاروا على الملك نمرود ببناءِ برجِ بابل. لا أدري ما الذي حصل لباقي زملائي، فلقد نزحتُ إلى واحةِ نخلِ أسفلَ نينوى بعدَ أن انهارَ البرج. لا بدّ أن أكثرهم قضى تحت أنقاض البرج! أخرجُ كلَ صباح مع الشمس فأروحُ بغنيماتي، حتى إذا اعتليتُ التلّةَ الرملية، تركتُ أغنامي ترعى، وأخذت أتأمل السوافي وهي تلعب بالرمل. حينَها أفكرُ في بابل.

بابلُ الآن خربة، لا ترى فيها إلى الأنقاض المحيلة والصخرَ المهشّم. يا تُرى هل ستُبنى من جديد، أم ستبقى على حالِها؟ فكرة متكررة تلحُ على عقلي وتصيبني بالرهبة: بعدَ آلاف السنين، بعدَ أن تندثر حضارتُنا ويأتي إنسان جديد، حين يرى أنقاضَ بابل بجدرانها المهشّمة وصخرها المثلوم، هل سيعرف أن ما يراه بقايا إنسان سابق، أم سيحسبها جزءًا أصيلًا من طبيعة عذراء لم تمتدَّ إليها يدُ بشرٍ ولم تطوّعها آلة، تمامًا كالشمس والنجوم، كالجبال والرمل؟ أنحني بجسدي المنهك لأملأ

راحةَ يدي بالرمال الذهبية، ثم أسمح للريح بسرقة حبات الرمل من راحة يدي. ما أدراني! لربما كان الرملُ أيضًا بقايا حضارةٍ سابقة! لربما كان مادةً أخرى، اشتغلتْ عليها يدُ الإنسان الجشعة حتى حوّلت كل شيءٍ على وجه الأرضِ رملًا!

قلتُ أني كنتُ من عِداد الحكماء الذين أشاروا ببناء البرج، لكنّ هذه العبارة ليست بالغة الدقة، إذ أنّ الأمرَ بدأَ في الأساس كمشروعٍ لبناءِ مكتبة. كانت مدارسُ الحكمة آنذاك تنقسمُ إلى قسمين: تلكَ القديمة، التي تؤمنُ بأنّ الشيء لا يجتمعُ مع نقيضِه، وأنّ النورَ يلغي الظلام، وأنكَ لا تستطيعُ أن تضعَ طاولةً في الفضاء الذي يشغله كرسيّ. هذا هو المنطق الذي قامت عليه حضارتُنا، وبنينا به معابدَنا، وطوّعنا عبرَه الأرض. لكنّ مدرسةً أخرى حديثةً انبعثت من رحم المدرسة الأم، وبدأ المرء يسمع أفكارًا ومفاهيم جديدة كنتُ من أشدّ المتحمسين لها والمنافحين عنها: الشيء لا يلتغي بوجود نقيضِه، إنما يمتزجُ به امتزاجًا، ليعطي النقيضان خَلقًا جديدًا يحتفظُ في فحواه بخصائصهما لكنهُ يختصرهما. الكينونة لا تلغي العدم، وإنما تجتمع به لتصيرَ تحوّلًا. وهكذا، وعلى مرّ التاريخ، تجتمع جميع التناقضات وتمضي قدمًا، لتصبحَ علمًا واحدًا، كاملًا، عندَها سوف تحلُ نهاية التاريخ البشري، وسوف يملك الإنسان العلمَ المطلق!

نحنُ الحكماء لا نملكُ صبرًا كافيًا لانتظار حدوثِ ما نتنبأ به، ولا عمرًا ممتدًّا للعيش حتى زمنِ وقوعِه. ما فائدة امتلاك الإنسان للعلم المطلق إذا هو لم يحدثَ إلا في نهاية الزمان، بعدَ أن نكون عظامًا بالية؟ لذا، وللتعجيل بحصول ما نتوقعه، اجتمعنا نحن الحكماء الأحد عشر، وطلبنا أن نحظى بشرفِ المثول أمام الملك نمرود. دخلنا قاعة الملك

الفسيحة ونحنُ نعثرُ في ثيابِنا، وبدأنا نشرحُ أمامه طبيعة الحكمة الجديدة التي نبشّر بها. قلنا أننا نحتاج إلى إذنه كي تُبنى مكتبة هائلة دائرية، ننقل في رفوفها كل ما أنتجه عقل الإنسان وفكر به، كل ما رآه أمام عينيه وسمعَ عنه. هناك سوفَ نشتغل على معالجة نصوص الكتب، على جمع المتناقضات وتطويرها في مفاهيم جديدةٍ، وبجدٍ ومثابرة سوف نمضي قدمًا، إلى أن نصل إلى المعرفة المُطلقة. أصغى نمرود بصمتٍ إلى حديثنا المتحمس. لا أظن أنه فهمَ أكثرَه، لكن يبدو أن فكرةَ الوصول إلى المطلق شدّت انتباهه.

«دعوني أسألكم سؤالًا كي أتيقن من فهمي ما تقولون. بعدَ أن تجمعوا الكتب وتشتغلوا عليها، وتطوروا هذه المفاهيم الجديدة التي تقولون، حتى تصلوا إلى العلم المطلق— هذا يعني أننا سنملك نفسَ المعرفة التي تدورُ في عقلِ الله؟».

هززنا رؤوسنا في رهبة. يبدو أن نمرود ليس بهذا الغباء الذي افترضناه. لقد نجح بالتعبير عما يجول في رؤوسنا بطريقة أكثرَ جرأة. أطرقَ الملك نمرود برأسه وأخذ يفكر. كان من الواضح أننا نجحنا في إثارتِه. يحسنُ بي أن أذكرَ أن الملك نمرود لم يكن خلوًا تمامًا من المواهب. كان يحظى بموهبة خلاّقة، هي تحويل كل ما هو معنوي وتجريدي إلى شيء ماديّ وملموس. بعدَ برهةٍ من التفكير، رفع رأسه وقال:

«نعم، أعطيكم الإذن ببناء المكتبة، وسوف أشرفُ على مشروع بنائها بنفسي. ليس هذا وحسب! فكرتكم عظيمة سامية. هذه هي العقول التي أريد لشعبي أن يحظوا بها، عقول تسمو إلى السماء ولا تتوقف أمام شيء.

اسمعوا ماذا أنوي أن أفعل: سوف نبني المكتبة على مساحة هائلة من الأرض، مثلما طلبتم تمامًا، وسوف آمرُ بتخصيص مرتبٍ لكل منكم، وسأسخّر آلاف الرجال لمساعدتكم. لكن في نفس الوقت الذي تنهمكون فيه بشغلكم، سوف نبني برجًا على قواعد المكتبة، برجًا هائلًا يمتدُ عاليًا إلى السماء، ليس إلى السماء وحسب، إنما ما وراءها، وفي اللحظة التي تصلون فيها إلى العلم المطلق، أنا متأكد أننا سنصل إلى الله».

تطلعنا في وجوه بعضنا بعضًا بحرج؛ يبدو أنّ الرجلَ مخبول! لكن بما أنّ فكرة برجه تضمن لنا تحققَ مشروع المكتبة، انحنينا برؤوسنا، وقبلنا الأرض بين يديه شاكرين.

وهكذا بدأ المشروع. على رقعةٍ هائلة من الأرض بنيت المكتبة. بدأنا نجمع الكتب وندوّن الأفكار حتى قبل انتهاءِ معمارِها. عندما اكتملت، اعتكفنا في دهاليزها الملتوية وزواياها المظلمة وبدأنا ننهش الكتب. لم نكن لنضيق بصوت القرعِ والبناء الذي يعلو رؤوسَنا، فلقد صرنا نرى في البرجِ رمزًا حسيًّا يدفعنا إلى الأمام في مسيرتنا المستحيلة والطموحة نحو المطلق. كنا مطالبين بالمثول كل أسبوع أمام الملك للتحقق من مضيّنا قدمًا، ولنشر هذه المفاهيم الجديدة بين العامة. في البداية كان الأمر سهلًا، كنا نجمع المتناقضات ونطورها في مفاهيم جديدة جامعة. بعد ذلك كنا ننتقل إلى هذه المفاهيم الجديدة، فنبحث عن المتناقض منها، ونقوم بجمعه في مفاهيم أكثر جدّة. ازداد الأمر وعورة مع مضيّ الوقت، وقد يمضي الشخصُ منا ليلةً كاملة كي يصنعَ مفهومًا جديدًا من أمرين متنافرين. صرنا حتى لا نفهمُ بعضنا بعضًا بشكلٍ واضح، وهذا دفعَ كلًّا منا إلى العمل وحيدًا في ما يشبه العزلة. كان عزاؤنا الوحيد هو منظر البرج وهو يرتفع عاليًا إلى السماء مع تقدم الوقت.

أتذكرُ جيدًا ذلك اليومَ الذي سقطَ فيهِ برجُ بابل. كنتُ قد أمضيتُ الليلة السابقة وأنا أحاول جاهدًا الاشتغال على أكثر من متناقضين في نفس الوقت. عندما انبلج نورُ الصبح خرجت من المكتبة واتجهت إلى سوق بابل. كان الهواء باردًا عذبًا. افترشَ الباعةُ الأرض على جوانب السوق وأخذوا يتنادون محاولين جذب المارة. اشتريتُ خبزًا وجرةً من العسل، وأخذت أتهادى في طريقي وأنا أغمس إصبعي في الجرة ثم أمصهُ بلذة. فجأة، دوّى صوتٌ تحطم هائل كما لو أنّ السماء انفطرتْ شقين. تعالتْ أصواتُ الفزعِ وسطَ السوق، بينما أخذَ يصرخُ رجلٌ بجانبي وهو يشيرُ بذراعه ناحيةَ البرج. أتذكرُ جيدًا ملامحَ الفزع التي ارتسمت على وجهه، لكن ما أتذكره أكثر، هو ذاك الفزع الذي لحق بي عندما لم أستطع أن أفهم كلمةً واحدة مما كان يقول ـ كان يتكلمُ لغةً جديدة! نظرتُ إلى الأعلى، فإذا بقطعةٍ هائلة من البرج تسقطُ من الأعلى كما لو أنها مجرد صخرة، لتهشم البيوت وتسحل البشر المتواجدين في نطاقِ سقوطها. رميتُ جرة العسلِ على الأرض، أخذتُ أجري كالمجنون ناحيةَ البرج، لكني توقفتُ فجأةً عندما أحسستُ بالأرض تهتزُ تحتَ قدميّ، وإذا بالبرج يتصدعُ من أساساتهِ ليسقط كالصريع مائلًا نحوَ الجهة الشرقية. لا أدري ماذا حصلَ بعد ذلك! تطايرت الحجارة وتعالى الدخان واندكّت الأرض، بينما أخذ البكاء يملأ الساحة ويبلبل الأفئدة. انتفضتُ واقفًا فوقَ قدميّ لأحدق في الخرائب التي تمتدُ على مرأى البصر. كانت الساحة ممتلئةً بالجثث، وبأحياء يبكون ويلطمون، دون أن تستطيع فهمَ ما يقولونه.

مضت على تلك الحادثة أربع سنواتٍ، وما زلتُ أتذكر ذلك اليوم وأراهُ رأي العين. اختلفَ الناسُ في الأسباب التي أدت إلى سقوط

البرج. العقلانيُ منهم قال أن برجًا محدود القاعدة، غير محدود الارتفاع، من شأنه أن يسقط ـ لا محالة ـ عندما يتجاوز ارتفاعه النسبة التي تسمح بها قاعدته. الروحاني منهم قال أنّ الله انتقم منهم لأن غرورهم دفعهم إلى أن يتعالوا نحو منزلته، وأنه دكّ البرج بيده الربانية، مما نتجَ عنهُ تبلبلُ ألسنتهم. كل هذه النظريات خاطئة، إذ أنها وقعت في الخطأ الشائع الذي يقلبُ تسلسل السبب والنتيجة؛ أحد أهم مرتكزات المنطق القديم.

فكرتُ في الأمر طويلًا وأنا أرعى أغنامي في عزلتي الاختيارية، وأظنني اهتديتُ أخيرًا إلى تفسيرٍ وافٍ لما حصل. ما حصل لم يكن انشطارًا في البرج، ما حصلَ كان انشطارًا في اللغة!

اللغة بناءٌ منطقيّ، مثلها مثل علم الحساب. لا يمكن أن نملك لغةً مشتركة إذا لم نملك منطقًا مشتركًا. ما يجعلك توافقني على إطلاق هذا الصوت على ذاك الشيء هو أننا نستخدم نفسَ الصوت لنفسِ الشيء، وليس لنقيضه، وأننا نعني نفس الشيء بتكررٍ يعطي للأمر حقيقتَه. لا يمكن للغةٍ أن تبقى إذا كانت الحياة لا تناقض الموت، وإذا لم نؤمن بأن الطاولة لا تستطيع أن تشغل نفس الفضاء الذي يحتله الكرسيّ. ما كنا نفعله ونحن نعتكف في دهاليز المكتبة هو أننا كنا ندمر المنطق الذي تقوم عليه لغتنا المشتركة. ولذا عندما انشطرت اللغة لم يعد بإمكاننا أن نشتغلَ سويةً، ولم يعد بإمكان العمال الذين يبنونَ البرج فوق رؤوسنا أن يفهموا ألسنةَ بعضهم بعضًا. كان انهيارُ البرجِ نتيجة حتمية لانهيار اللغة، وكان انهيار اللغة نتيجةً حتمية لانهيار المنطق.

قد يسألني أحدُهم: ولماذا لم ينتبه أحد إلى ذلك؟ لماذا حصل الأمر بهذه الفُجاءة؟ الأمر أشبه بعود الخيزران الأخضر. قد تثنيه قليلًا فينثني، لكنه لا ينكسر. قد تثنيهِ أكثر فينثني أكثر، لكنه لا ينكسر. هذا لا يعني أن ما تصنعه صحيح على الإطلاق، أن عود الخيزران غير قابل للكسر! واصل الشدّ، وعندها سوف ينقصفُ العودُ فجأة ويتهشم لحاؤه. هذا هو ما حصل تمامًا مع اللغة. هذا هو ما حصل تمامًا مع البرج.

شجرة النبق

وقف إبراهيم أمام منزل خاله، نظر إلى شجرة النبق، وابتسم. عشرون سنة أو تزيد، كانت كفيلة بتغيير مظهر الحيّ بكامله، إلا أنها لم تمتد قيد أنملة إلى السدرة العتيقة والبيت الذي تجثم فوقه. تذكّر كيف كانا يتقاذفان شجرة النبق بنعليهما، هو وابن خاله أحمد، كيف كانا يقتسمان غلتّهما حسب اللون: البني من نصيبه، والأخضر نصيب أحمد. كانا إذا أنهكهما اللعب يستلقيان على ظهريهما، وينظران إلى السماء والنجوم من خلال الفجوات العديدة التي تتخلل أغصان الشجرة، وعندها يسري في جسديهما خدر مريح ، وكما لو أن المنزل بجدرانه الأربعة يسبح بهما عبر الفضاء، وأن هذا كله يعتمد على وجود شجرة النبق، وأنها لو قطعت سيسقطان فجأة في القرار السحيق.

فتح أبو أحمد الباب، وقاده إلى الداخل. لاحظ إبراهيم ثمار النبق ملقاة على طول الفناء وقد انكمشت وشحبت وبهت لونها. كان الهدوء يخيّم داخل المنزل، وهو شيء لم يكن يتناسب وحجم الفضيحة التي انفجرت فيه قبل أسبوع، تلك الفضيحة التي بقيت موضوعًا تلوكه الألسن في كل بيوتات العائلة. أحس إبراهيم بشيء من الضيق والخَرَق، ولولا مناشدة أمه إياه لما وافق أن يدخل بيت خاله - بعد كل هذه السنين - في مثل هذه الظروف. طرق الخال باب غرفة أحمد ليؤذنه بوجودهما، ثم أدار المفتاح في القفل، وسمح لإبراهيم بالدخول ومعه

صينية الشاي. بعد ذلك، سمع إبراهيم المفتاح يدور مرة أخرى وراء ظهره، ليتركه وحيدًا مع السجين، في غرفة مقفلة.

حدث الأمر بهذا الشكل: قبل أسبوع، اكتشف الخال أن ابنه أحمد ينوي السفر إلى الشام للانضمام إلى المجاهدين في «الدولة الإسلامية في العراق والشام». هل كان ذلك بوشاية من صديق، أو بوقوع الخال على ما يشي بذلك في مراسلات وجوال ابنه؟ هذا أمر تباينت فيه القصص والآراء. حاول الخال أن يصرف ابنه عن عزمه دون فائدة، وعندما استيأس من ذلك، سحب أوراقه الثبوتية، وحبسه في غرفته، صارخًا بأعلى صوته أنه لن يخرجه إلا بعد أن يقسم بأغلظ الأيمان أنه لن يعود إلى سابق غيه، بينما سقطت أم أحمد تبكي منهارة وراء الباب، ناشدة ابنها أن يمتثل لأمر والده، وأن يرحم ضعفها ويحنو عليها.

مضى أسبوع كامل والطرفان ثابتان لا يتزحزحان عن موقفهما. عندها ناشد الخال أخته كي ترسل ابنها إبراهيم لعله يحدث بعض التغيير في موقف صديق طفولته. هتف إبراهيم محتجًّا: ولكني لم أره منذ عشرين سنة! ماذا عساي أقول وهو رجل بالغ بيّت أمره وعقد عزمه، أنا لا أوافق حتى على حبسه بهذه الطريقة المذلة! لكن أمه أصرت عليه إلا أن يلبي رغبة أخيها المكلوم. حدثته كيف أنه القريب الوحيد الذي يُعد من أقران أحمد، وكيف أن الشباب يسمعون من بعضهم بعضًا، ويتأثرون أكثر بما يقولونه في ما بينهم. ذكّرته كيف أن الخال يحترمه كل الاحترام، ويعوّل عليه أشدّ التعويل.

وهكذا، وجد إبراهيم نفسه أمام صديقه القديم في هذا الموقف الغريب. ابتسم إبراهيم بخَرَق، وأنزل صينية الشاي كي يصافح أحمد.

لشدّ ما تغير السنون الناس وتعبث بملامحهم! كان أحمد هزيلًا، كما عهده دائمًا، لكن شعرات لحيته المتفرقة، وابتسامته الهادئة، أضفت عليه وقارًا خجولًا ذكره بالتصاوير الغربية التي تحاول أن تتخيل هيئة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام.

جلس إبراهيم على الأرض بجانب ابن خاله، ونظر حوله في جدران الغرفة البيضاء وما يعلوها من آيات وتسابيح، ولمّا لم يجد ما يكسر هذا الصمت الحرج، لجأ إلى ما يلجأ إليه الناس عادةً عندما يعوزهم الموضوع وتعزّ عليهم الفكرة:

«الجو خانق في الخارج. حتى أثناء الليل».

«أهو كذلك؟ كما ترى، لم أخرج منذ أسبوع من هذه الغرفة الباردة».

«أعانك الله. لا بدّ أن الأمر صعب عليك».

«هو كذلك. لكنه قد يكون أصعب عليك. لا أتمنى أن أكون في مثل موقفك».

«لا بأس. لم أرك منذ مدة. بالتأكيد لم أكن أتمنى أن أجدد بك العهد في وضع حرج مثل هذا، لكن ـ على أية حال ـ ها أنا أراك ثانية، وهو شيء كنت أتمناه منذ مدة، لكنها الحياة والأشغال وما اعتدنا عليه من غلظة قلب وقطع رحم».

«جزاك الله خيرًا».

«كيف تقضي وقتك هنا؟»

«بالاستغفار والتذكر. سبحان الله، لا يصنع الله أمرًا إلا وراءه حكمة.

كنت أحتاج إلى خلوة مثل هذه أنظم فيها أفكاري وأراجع سابق عملي. ماذا عنك؟».

«في خلوة مشابهة، لكنها ـ لحسن الحظ ـ اختيارية»، ابتسم إبراهيم بمرارة، وابتسم أحمد مثله، «أغلب وقتي أقضيه في قراءة الكتب وكتابة القصص».

«أما زلت مهووسًا بالكتب؟ أتذكر كيف كنت تأتي في طفولتك إلى دارنا والكتاب تحت ذراعك لا يبارحها. لم نرك يومًا دون كتاب. هنيئًا لك هذه العزلة. ماذا تكتب؟».

«أقاصيص مختلفة، تستند معظمها على التاريخ. هل تعلم؟ كنت منهمكًا مؤخرًا في التفكير في قصة عن مفهوم الهجرة».

«الهجرة؟».

«أي نعم. ورغم أني فكرت بالقصة طويلًا إلا أني لم أكتب منها حرفًا واحدًا بعد. لا أدري كيف أبدؤها. ربما إذا حدثتك عنها بصوت عالٍ ساعدني ذلك على الإمساك بخيط قد يكون بداية لها. بداية القصص أصعب ما فيها. هل تريد أن أحكيها لك؟».

«بالتأكيد».

لم يدرِ إبراهيم لماذا اختار هذه القصة بالذات! أو ـ بالأحرى ـ لم يفكر بهذا الاختيار مسبقًا ولم يمهّد له. هذا ما أخبر به نفسه بمجرد أن نطق كلمة «هجرة». كانت عشرات القصص والمشاريع تطنّ في عقله. لماذا هذه القصة بينهنّ؟ لكن الجواب أوضح من أن يخفى، بل إن في هذا النوع من التعامي والتضليل احتقارًا للنفس وللذكاء معًا. الهجرة! أليس هذا هو المصطلح الشرعي الذي يستعمله الشباب لوصف

سفرهم إلى الشام؟ ماذا سيقول خاله وماذا ستقول أمه إن هما سمعا ناصحهما الأمين يحكي قصة عن فضل الهجرة لرجل يفكر بها؟ لكن إبراهيم - حين كتبها - لم يفكر بالوضع الحالي ولا بالسياسة ولا بما يجري حوله. لقد قرأ عن حادثة الهجرة، وأثارت في عقله بعض الأفكار والصور، وكانت جميلة بما يكفي كي تملأ عقله وروحه. هذا كل شيء. القصة أجمل من أن يكون في حكايتها شيء يضرّ. كما أنه نطق اللفظة السحرية، وأثار انتباه أحمد، ولا يستطيع التراجع الآن.

«هي ليست قصة أكثر منها أمثولة. أمثولة تستلهم قصة الهجرة النبوية وتعيد حكايتها من وجهة نظر العنكبوت والحمامتين».

«ماذا تعني بأمثولة؟».

«قصة تحكي عن شيء ما، وهي بحكايتها عن هذا الشيء تخبر عن كل شيء».

«أها. لكنك تعلم أن قصة العنكبوت والحمامة موضوعة؟ اتفق علماء الحديث والتاريخ على ضعفها».

«أهي كذلك؟ وماذا يعرف علماء الحديث والتاريخ؟ بالله عليك، لو جمعت أطفالًا أمامك وقلت لهم: سوف أحكي لكم قصة الهجرة النبوية الشريفة. ما أول شيء سوف يقفز إلى مخيلتهم قبل أن تبدأ القصة؟ العنكبوت والحمامتين! أليس كذلك؟ لا أكتمك خبرًا؛ لقد اكتملت القصة في عقلي بهذا الشكل، ثم قرأت الكتب والمراجع فاكتشفت ضعف رواية العنكبوت والحمامتين. آهٍ لو تعلم كم أسقط في يدي! لكني فكرت: ما الضير في ذلك؟ ما الضير إن كانت أمثولة العنكبوت والحمامتين - كما تصورتها - تقول في جوهرها

أكثر مما يفهمه كل أساتذة الحديث والتاريخ مجتمعين عن مفهوم الهجرة؟».

«منطقك غريب. لكن هاتِ القصة، أو الأمثولة كما تسميها».

«الأمثولة، نعم. كما قلت سابقًا، لا أدري كيف أبدؤها. أحيانًا أفكر أن أبدأها بالحديث عن محطات الطريق.. طريق الهجرة، أن أبدأها هكذا: الطرق إلى يثرب جدّ طويل: ثور فعسفان، قديد فالخراز، ثنية المرة فطريق العرج، ماء الغابر فبطن رئم. الطريق إلى يثرب جدّ طويل، لكنه لم يكن أطول من حديث الحمامة وهي تحاول إقناع صاحبتها العنكبوت ببناء النسج. هكذا أريد أن أبدأها، ولكني في كل مرة أبيت العزم، أراجع نفسي، وأرى كيف أن هذه البداية متكلفة ظاهرة الصنعة، فأعرض عنها. أحيانًا أفكر أن أبدأها بطريقة أسطورية، بطريقة تشبه قصص هانس كريستيان أندرسن، أن أقول مثلًا: هناك ياقوتة حمراء تلمع على ضفاف أحد أنهار الجنة. وهناك ريح تلعب ممهلةً أمام الضفاف وبين الأشجار وفوق الياقوتة الحمراء. ثم أخلص إلى القصة لأشرح كيف أن هذه الياقوتة الحمراء هي العنكبوت، وكيف أن هذه الريح الممهلة هي روح الحمامة».

«تكلفت شططًا في قصتك. لا يجوز أن تخبر عن الجنة بما لم يرد عنها في القرآن أو الحديث».

«صحيح، صحيح. لهذا أعرضت عن هذا المطلع كما فعلت مع سابقه. المهم، أننا نبدأ بطريقة ما لنجد نفسنا في ذاك الصباح، أمام غار ثور، حين وقفت الحمامة أمام العنكبوت كي تقنعها ببناء النسج. كيف علمت الحمامة بقرب الهجرة؟ لا بدّ أن هاتفًا سماويًّا أو روحًا من

الأرواح ألقت في روعها أن محمدًا ﷺ سوف يخرج مهاجرًا إلى يثرب، وأن أقيال قومه وصناديدهم سوف يخرجون في إثره طالبين دمَه، وأن عليها أن تصنع عشها وتبيض فيه، وأن على العنكبوت أن تبني نسجها كي تضلل الطالبين عن بغيتهم. لكن العنكبوت تعيش في تلك الزاوية المريحة من العالم، في ذاك الركن المظلم من الغار، حيث لا تدري ولا يهمها أن تدري ما يجري خارجه. تستمع العنكبوت إلى جدلية الحمامة الطويلة، تستمع وتستمع وتستمع، ثم إذا فرغت، تقول لها ما معناه: إنما هم بشر تنازعوا أمرهم وحريٌ بهم أن يسووا الأمر بينهم، وحريٌ بي أن ألزمَ عشي، وأشبعَ بطني، وأتعهدَ صغار بيضي. أحست الحمامة بخيبة كبيرة بسبب هذا الخذلان المفاجئ. طارت وتركت العنكبوت وراءها، في ظلها الظليل وعشها البارد، وطفقت تجمع أوراق الشجر وأعواد النباتات كي تبني عشها المزموع جانب الغار. في العصر، أو المساء، أو فجرَ اليوم التالي - لم أقرر الوقت بعد - تهب ريح دافئة تنبعث من بطن مكة، وتخرج العنكبوت إلى فم الغار ليقع بصرها على رجلين على مرمى البصر يسعيان مجدّين نحوها».

هنا، اعتدل أحمد في جلسته، أو خيّل لإبراهيم أنه فعل، إن كان بالإمكان وصف هذا النوع من الحركة التي تحدث داخل جسد الشخص دون أن تنقبض له عضلة أو يتحرك فيه عضو. إنه ذاك النوع من الحركة الذي يتخذه المنصت كي يبقى منتبهًا لا يفوته شيء دون أن يزعج محدثه. تابع إبراهيم:

«لكن أنّى لي أن أصف ما رأته العنكبوت؟ أن أصف هذين الرجلين القادِمَين نحوها؟ كتب التاريخ قد تسعف الآن. أحدهما كان أبيضَ، نحيفًا، ناتئ الوجه، غائر العينين. لقد كان يتقدم صاحبه ويستطلع له

الطريق، والخوف والقلق باديان على وجهه. أما الثاني، فقد كان أدعج، سبط الشعر، سهل الخدين، كأن عنقه إبريق فضة. إذا مشى كأنما ينقلع من صخر، وإذا التفت التفت جميعًا».

«ليس بالطويل ولا القصير، كأنما العرق في وجهه اللؤلؤ».

ابتسم إبراهيم موافقا على الإضافة التي انتزعها أحمد من فمه.

«أنا هنا لا أسميهما لأني أتحدث من وجهة نظر العنكبوت. لم تكن تعرف هذين الرجلين. ليس بعد. لكن قارئ قصتي - بطبيعة الحال - سوف يعرف مباشرة عمّن أتحدث، كما فعلتَ أنت. دخل الرجل الأول الغار، كي يتأكد من خلوه من الوحوش والسباع. فحص الأرض بباطن قدمه، وأدخل يده في كل جحر، فلقد كان خوفه على صاحبه، ولقد كان قلقه لأجل صاحبه، والذي كان يحبه كل الحب، ويبجله أشد التبجيل. عندما تأكد من خلو الغار من الدواب والأفاعي أشار إلى صاحبه كي ينضم إليه. دخل الرجل الثاني الغار، وبقيت العنكبوت مكانها تفكر في ما رأت، لكنها سرعان ما دخلت هي أيضًا كي تلقي نظرة أقرب على هذين الرجلين المختلفين. لم تكن العنكبوت تفهم الكلام البشري. هذه نقطة مفصلية. لقد كانت تشاهد بعينيها فقط، ولقد كان ما شاهدته كفيلًا كي يزلزل عقلها وقلبها معًا. كان العرق يتصبب من الرجل الأول، الرجل النحيل الغائر العينين، وكانت ركبتاه تصطكان فَرَقًا، وعندها، وضع الرجل الثاني يده على كتف صاحبه، وهمس له بشيء، وبمجرد أن قال هذا الشيء توقف اصطكاك الركبتين وتصببُ العرق. لكن كيف أستطيع أن أصف هذه الحركة؟ هذا الحنو اللانهائي في لمسة يده؟ كيف أصف كل تلك الطمأنينة وكل ذاك الحب المنسابين من راحة يده حين وضعها

مطمئنا فوق كتف صاحبه؟ وكيف كانت هذه الحركة، هذه الكلمات، كافية كي تبدد مخاوف صاحبه، هكذا، دفعة واحدة، وكأنه نفخ على نار فأطفأها. كل هذا شاهدته العنكبوت. المشهد لم يستغرق سوى دقيقة. لكنه كان من الضخامة بحيث لا أستطيع أن أعبر عنه إلا بهذا الشكل الضخم. تذكّر مرة أخرى: العنكبوت لم تفهم شيئًا مما يقولان. لكنها كانت ترى، ولقد رأت في قسمات هذين الرجلين وفي تلك اللمسة ما كان كافيًا كي يجعلها تدرك الأمور على حقيقتها. انطلقت العنكبوت إلى فوهة الغار كي تبني النسج. انطلقت وكل ذرة في كيانها تخبرها أن هذا ليس نزاعًا عاديًا أو شأنًا بشريًا ليس لها علاقة به. الأمر أكبر من ذلك وأجلّ. إنها معركة بين الخير والشر. كل ذرة في كيانها كانت تجزم بذلك. لم تكن تحتاج أن تنتظر لتنظر إلى غرماء هذين الرجلين كي تتحقق من هذا اليقين. أيًا كان هؤلاء الغرماء، إن مناصبتهم العداء هذين الرجلين - الحاملين لهذه القسمات والقادرين على اجتراح حركات بالغة الحنو مثل هذه - يضعهم مباشرة في الضفة المقابلة، في خانة الشر. هكذا قالت العنكبوت لنفسها. وهكذا مضت تبني النسج لتنهيه في اللحظات القليلة التي سبقت وصول كفار قريش.

«وصل فتيان قريش وأقيالها ومعهم عصيهم وقسيهم وهراواتهم وتوقفوا أمام فوهة الغار. رأوا أمامهم نسج عنكبوت لا يمكن لأحد أن يجتاز دون أن يتلفه. ورأوا عش حمامة بائضة لا يمكن لأحد أن يمر بجانبها دون أن يفزعها ويضطرها إلى الطيران. وهكذا انصرفوا خاسئين خاسرين عن الغار. ولبث الرسول ﷺ وأبو بكر في الغار ثلاثة أيام بلياليها. ثلاثة أيام، والعنكبوت تقف مشدوهة مكانها لا تريم، تراقب كل حركة أو همسة أو نبسة يقوم بها الرجلان. تراقبهما حين يصليان،

وحين يتحدثان همسًا، حين يأكلان، وحين ينامان ليلًا. حدّثت نفسها قائلة أنها لم تنقذ الرجلين، وإنما أنقذت نفسها حين نسجت العش. بعد ثلاثة أيام وصل عامر بن فهيرة - مولى أبي بكر وربيبه - ومعه دليل من بني عدي. انطلق الأربعة في رحلتهم الطويلة نحو يثرب، تاركين الغار والعنكبوت وراءهم.

«آهٍ يا صاحبي، أيّ خواء وأية وحشة شعرت بهما العنكبوت حين رحلوا! وأية حياة وأي عش يمكن أن تركن إليه بعد أن رأت هذين الرجلين مدَّةَ ثلاثة أيام متتالية؟ كيف لها أن تنام هانئة كما كانت تفعل قبل أن تراهما؟ كيف لها أن تشبع بطنها وتتعهد بيضها كما كانت تفعل قبل أن تراهما؟ كيف لها أن تركن إلى هذه الزاوية المظلمة الباردة الهانئة، وهناك معركة كونية تدور رحاها بين الخير والشر؟ بين النور والظلام؟ بين الرجال القادرين على ابتسامة مثل تلك، والرجال القادرين على تقطيبة مثل تلك؟

«وهكذا نزلت العنكبوت من عشها، وانطلقت متوجهة إلى يثرب. لكن الشمس حارة، والعنكبوت صغيرة وبطيئة، والطريق إلى يثرب طويل طويل: ثور فعسفان، قديد فالخراز، ثنية المرة فطريق العرج، ماء الغابر فبطن رئم. هل بإمكان عنكبوت صغيرة أن تقطع كل هذه المسافة؟ وسط الرمل، والشمس، والرمضاء؟ نعم يا صاحبي، لقد ماتت العنكبوت. ماتت في الطريق. أدركها الجفاف واشتد بها الحر حتى يبست وسكنت وتوقفت حركتها، لقد تحولت حجرًا، ولو مررت بها لما استطعت أن تفرق بينها وباقي الأحجار والحصى الملقى على طول الطريق. إنها قصة تدفع إلى اليأس. أليس كذلك؟ لولا أن صاحبتنا الحمامة هبطت من السماء، وأطبقت عليها بمخالبها، وطارت إلى الأعلى. إلى الجنة.

ستسألني أين هي الجنة؟ كيف اهتدت الحمامة إليها؟ هل هي إلى الأعلى؟ هل هي إلى الداخلِ صوبَ القلب؟ هل هي جهة يثرب؟ أم أنها ملتقى هذه الطرق جميعًا؟ لا أعلم يا صديقي. لكني أرجح الخيار الأخير. أخذت الحمامة ترتفع أعلى، وتبتعد أكثر، إلى أن جاوزت حدًّا شعرت بعده أن روحها تنتزع انتزاعًا. وعندما نظرت أسفل قدميها، تأكد ظنها، عندما رأت أن ما بقي من العنكبوت تحول ياقوتة حمراء نشرت نورها الساطع حولها وأضاءت لها طريقهما إلى الجنة. وهذه يا صاحبي هي قصة الياقوتة الحمراء التي ترقد بسلام في ضفاف الجنة، والريح التي تلعب ممهلة في جنباتها».

فرغ إبراهيم من قصته، ونظر بخجل إلى صديقه فوجده صامتًا لا يحرك ساكنًا. لقد كان يتوقع مقاومة أكثر، أسئلة واعتراضات وشيئًا من العنف، لكن أحمد بقي صامتًا يفكر. وعندما تكلم أعرب عن عجبه كيف يقول إبراهيم أنه لم يبدأ كتابة قصته ولا يعرف كيف يكتبها وهو يحفظ في مخيلته كل هذه التفاصيل والتعابير والتشابيه التي أعادها ـ بكل تأكيد ـ على نفسه مئات المرات؟

كان هذا آخر عهد إبراهيم بابن خاله أحمد، قبل أن يسافر الأخير إلى الشام للجهاد. حدث ذلك بعد أسبوعين من لقائهما. طرق الخال أبو أحمد الباب ذات مرة ليجد أن ابنه اختفى ومعه أوراقه الثبوتية. بعد أسبوعين أو ثلاثة، علم الخال أن ابنه موجود في الشام، وأنه انضم إلى الجماعات الجهادية أو الإرهابية كما يسميها البعض وينبزها البعض الآخر. لقد كان مصابًا جللًا، وقع على الأم المسكينة وقعًا صعبًا، واضطرها أول الأمر إلى الذهاب إلى المستشفى. ولكن أحدًا لم يدرِ كم كان الخبر قاصمًا وصعبًا بالنسبة إلى إبراهيم. لقد أحسّ بتأنيب هائل في

ضميره وهو يتذكر القصة التي حكاها لأحمد، عن الحمامة والعنكبوت، والهجرة إلى يثرب. هل كانت قصته هذه الشعرة التي قصمت ظهر البعير؟ أمن الصواب أن يحكي قصة مثل هذه لرجل يفكر بالسفر للجهاد ويسميه هجرة؟ كانت هذه هي الأفكار التي تملأ رأس إبراهيم وتقضّ منامه كلما رأى خاله أو سمع بانتكاس حالة زوجته.

وفجأة، وبمثل الطريقة التي اختفى بها، عاد أحمد. رجع شخصًا آخر، بعد ما يقارب الثلاثة أشهر، بقسمات جديدة وروح مختلفة، بعد أن لفحته الحرب ووسمته بميسمها. كان للخبر دويٌّ هائلٌ في العائلة، وتحدث الجميع كيف أن الحياة رجعت لأم أحمد بعد أن رأت ابنها، وكيف أن والده نسي كل اللعنات التي كان يصبها فوق رأس ابنه وارتمى يقبل نفسَ الرأس ويطوقه بذراعيه المتعبتين. كان الأمر لا يُصدق. وتمنى الجميع أن يلتقوا أحمدَ ليسألوه عما رأى وماذا حصل. وسرعان ما تحققت أمنيتهم عندما أولم أبو أحمد على شرف ابنه العائد، ووجه الدعوات إلى أفراد العائلة كافة.

كان إبراهيم من أوائل من توجه إلى الوليمة تلبية للدعوة بصحبة والده. عندما دخل المنزل وجد فناءه نظيفًا هذه المرة، خاليًا من ثمار النبق، ووجد الشجرة مقلمة الأغصان والورق. فكر إبراهيم: كم كان تصرفًا عديم الحساسية من قبل خاله، عندما وجه هذه الدعوة للجميع دون أن يراعي وضع أحمد، من المؤكد أن أنظار الجميع سوف تنصبّ على صديقه المسكين وكأنه طائر نادر أو تحفة عجيبة. عندما دخل المجلس رأى ما وافق حدسه، كان المكان يغص بعشراتٍ وعشرات من الأقارب، وكان اللغط يملأ الغرفتين المتصلتين وكأنه هدير موج بعيد. سلّم إبراهيم على خاله، وهنأ صديقه بالسلامة، ثم جلس بعيدًا حيث

انتهى به المجلس. من مكانه البعيد، لاحظ أن صديقه أحمد كان يرمقه بإصرار، ويوجه إليه النظرات بين الحين والحين. أحسّ إبراهيم ببعض الحرج، وتذكر قصته والحديث الذي دار بينهما قبل شهور، فعاوده شعور الذنب والخَرَق. حتى عندما انتقل المدعوون إلى الغداء، كان أحمد يرمقه من بعيد ويحاول أن يسترق منه نظرة عارف. لم يُتح لإبراهيم أن يتبادل أية محادثة ذات دلالة مع أحمد. ولكن عندما ودع وأبوه الخالَ وابنه، وهمّا بالخروج من المنزل، لحق أحمدُ بهما، واستوقفهما تحت شجرة النبق. قام أبو إبراهيم بالتخلص بلطف عندما استشعر حاجة الشابين إلى التحدث على انفراد.

شدّ أحمد على يد إبراهيم بحرارة، وقال له:

«لا أرى كتابًا تحت ذراعك! هل تنكرت لعاداتك القديمة؟ ياله من حشد! لا تستطيع أن توجه أية كلمة ذات معنى في مثل هذا العدد. أردت أن أشكرك يا إبراهيم، فمن بين هؤلاء جميعًا أنت الأقرب إلى قلبي، كنتَ دائما في بالي. هل تتذكر أمثولتك التي حكيتها عن العنكبوت والحمامة؟ آهٍ يا صاحبي، لن تصدق الأشياء التي شاهدتها بعينيّ هاتين. لقد رأيت أعناقًا تقطع، وجماجم تسقط، ودماء تُسكب، وأناسًا يُحرقون. كنت حين يظلني الليل، أتذكر بيتي هذا، والسدرة التي لعبنا تحتها، وأمي، وقصتك عن العنكبوت والحمامة والياقوتة الحمراء، ثم أتطلع في الرجال الذي ينامون حولي، وأبكي. كان أكثر ما هالني اتهام الناس لنا أننا خوارج وكفار وأذناب لأياد خارجية. والأحاديث والآيات يا إبراهيم، كان الفريق الآخر يستعمل نفس الأحاديث والآيات كي يكفرنا وليخرجنا من الملة! آهٍ يا صديقي، لقد رأيت الموت رأي العين مرتين أو ثلاثًا، وخرجت بحمد الله سالمًا، وإن كان بقلب موجوع

وضمير يسأل دائمًا: وماذا بعد؟ لم أجد من أتحدث معه بحرية، كان الخوف والتربص يجللان الجميع، والخيانة عقابها القتل. لكن وسط هذه القلاقل والخوف بقيت قصتك تدور في ذهني، وبالأخص ذاك المشهد العجيب، تلك النظرة وتلك اللمسة التي أدركت العنكبوت إثرها أين الخير وأين الشر. هل تذكر؟ عندما وضع الرسول صلوات الله وسلامه عليه يده فوق كتف أبي بكر. لقد عبّرتَ عن ذاك المشهد بطريقة عجيبة، بودي لو كنت أحفظها. تلك النظرة يا إبراهيم، تلك النظرة! هي التي أرجعتني. لقد كنت أبحث في وجوه أصحابي عمّا يملأني بمثل تلك النظرة، وعندما لم أجدها، رجعت».

سرُ أبي الطيّب

«وإذا كانت النفوسُ كبارًا، تعبتْ في مرادِها الأجسامُ».

(أبو الطيب المتنبي)

كانت الشمسُ تجنحُ نحوَ الغروبِ عندما تركَ الأمير لؤلؤ بوابةَ حمص وراءَ ظهرِه.

التفتَ وراءَه فأحسّ بالرضا: مئة من فرسان الإخشيد ينهبون الطريق عدوًا خلفَه، والشرر يتطايرُ من سنابك خيولِهم. سوف يمضون حيثُ يأخذهم، وسيفعلونَ ما يأمرهم به، حتى وإن جهلوا السببَ الحقيقي وراء هذه الغارة. قائدهم نفسه ـ الأمير لؤلؤ ـ لم يخرج على رأسهم إلا ليتبين الأمور عن كثب. بعض الشائعات التي تناهت إلى أذنه تزعمُ أنّ هناك قرامطةً في بادية السماوة يحوكون في الخفاء ثورةً ضد أميره الإخشيد. شائعات أخرى تزعم أن رجلًا كوفيًا يُدعى أحمد بن الحسين الجَعفي تنبّأ في قبائل بني كلب، وأنه يطوّف في بيوتهم قائلًا: إذا كان محمدٌ قد أتى بأمّ الكتاب، فأنا أتيتكم بخفيِ الكَلِم.

عندما جاء الصباح، عسكرَ الأمير لؤلؤ بكامل جيشه أمام مضارب بني كلب، وأمرَ جنوده بإثارة الغبار وركزِ الأسل. ارتعدت فرائص الكلبيين عندما رأوا ما يحمله الجنود من سلاح وعَتاد، وسرعان

ما تفرق أصحاب الجَعفي ليسلموه إلى جندِ الأمير. دُلَّ الأمير على الخيمة التي يقطنها الجعفيّ، وأحاطها بجنوده من كل صوب، إلى أن خرجَ الجعفيّ مستسلمًا من الخيمة، يتبعهُ غلامٌ حدِثُ السن يُدعى مفلح. تأملَ لؤلؤ وجهَ الرجل الجعفي. كان أسمرَ، طويلَ القامة، لا يتجاوز العشرين من عمرِه، لكنّ أكثرَ ما يجذبُ الانتباه فيه هو عيناه الحادتان وعروقه النافرة، وكأنها تشي بمزاجه النزق وطبيعته المتوترة. بحثَ الأمير لؤلؤ في أمر هذين الرجلين، وعندما تأكد من براءة الأول وجُرم الثاني، أمرَ بإطلاق مفلح، بينما زجّ بمولاه الجعفيّ في غياهب السجن.

عندما وجدَ أحمد بن الحسين نفسَه داخل السجن كاد أن يطيشَ عقلُه. كانت الجدران الأربعة تحيطُ به وتطبق على روحه حتى لتكادَ أن تخنقَها. أين هذه الجدران من بادية السماوة، حيثُ الريحُ تلعبُ مُمهِلةً، وحيثُ النوقُ ترعى آمنةً، وحيثُ صحارٍ وهواء على مرمى البصر؟ لن يقدر بطبيعته الحرة على تحملِ هذا الحبسِ المُظلم. ولذلك، وبلا وعيٍ منه، بدأت شهيتهُ تتراخى، وبدأ جسمهُ يَهزل. بدأ النومُ يتمنعُ عن عينيه، وبدأت عزيمتهُ تضعف. عندما مرّ أسبوع كامل على حبسه، دخلَ السجانُ حاملًا آنية الطعام، ليُراعَ بسجينِه وهو يستلقي شاحبًا على الأرض، بالكاد يتنفس. انحنى السجانُ على الرجل الجعفيّ، وأخذ يتأمل وجهَه الفتيّ الجميل.

«الحياةُ يا ولدي عطيّة من الله، لا يحسنُ بك أن ترميَها حتى وإن كنتَ في السجن. لقد أمضيتُ ها هنا سنينَ طويلة، ورأيتُ أصنافًا من الناس، بعضهم يُصاب بالجنون، وبعضهم الآخر يتوبُ ويبدأ حياةً جديدة، وأكثرهم يخرجُ من هُنا بعدَ مدة. تشبث بالحياة يا ولدي، فما زلت في

ميعةِ شبابِك، وسيكتبُ لكَ اللهُ عمرًا جديدًا. سمعتُ أنكَ شاعر، تنظمُ القصائد، لِمَ لا تكتبُ شعرًا؟».

في اليوم التالي، وقبلَ أن يقصدَ السجّانُ موضعَ عملِه، مرّ بدكاكين الوراقين قرب جامع خالد بن الوليد. مِن هناك اشترى ورقًا ودواةً وحبرًا. عندما دفع باب الزنزانة، وجدَ نزيلَه السجين يستلقي منهكًا على الأرض. وضع صحن الطعام وكوب الماءِ على الأرض، ثمّ أخرجَ من تحتِ ردائِه صحائف الورق البيضاء مربوطةً بخيطٍ أسودَ رفيع. وضع صحائف الورق والدواة والحبر بجانب سجنيه، ورسم ابتسامةً عذبةً على محيّاه وهو يتمم: هذه لك.

عندما خرجَ السجّان، مالَ أحمد بن الحسين بجسمه تجاهَ الصحائفِ البيضاء وأدناها من أنفِه. كانت رائحتها قريبةً وأليفة، نفس الرائحة التي كانت تملأ رئتيه كل صباحٍ في كتاتيب الكوفة ودكاكين وراقيها. آهٍ لو يرجعُ حرًّا طليقًا، تأخذه قدماهُ الفتيّتان حيثُ يريد!

إن كانت جدرانُ السجنِ ضيقّة، فإنّ خيالي فضاءٌ مُشرع!

هنا بدأت مَرحلة جديدة في سجنِ أحمد بن الحسين، بَل في حياتِه! تناولَ الورقَ والدواة، وبدأ يكتب. لم يكن مُهتمًّا بحياةٍ ماضية، ولا بصباباتٍ خائبة، ولا بطللٍ قديم. أخذ يتخيلُ الحياةَ في الخارج، كما تجري الآن، ويعيشُها. لم يكن على عجلةٍ من أمرِه، رغمَ طبيعته العصبية وخيالِه النزِق. أخذ يدحرجُ كلَ بيتٍ في عقلِه، مرةً، مرتين، وألفًا، إلى أن يصلَ إلى الكمال، إلى أفضل طريقةٍ يُمكنُ أن يُكتبَ بها هذا البيت.

وهكذا، وببطء، أخذتْ روحُ أحمد بن الحسين تحلّقُ خارجَ السجن، وتتخيلُ حياةً لها وراءَ جدرانه. أخذ يتخيلُ ملوكًا عربًا لا يركبُ رقابَها

العَجَم، وشرفًا رفيعًا يسيلُ من أجلهِ الدم. تخيّل فارسًا عربيًّا، يجندلُ أسدًا بسوطِه، وتخيّل أميرًا حلبيًّا، يخرجُ كل شهرٍ للقاء الروم، فيدكّ حصونهم، ويجندلُ أبطالَهم. تخيّل أن أختَ هذا الأمير تموت، فيرثيها بشعر تقطّع له نياط القلوب، وتخيّل أنّ الوشاة يسعون في تأليب الأمير ضدَه، فيخرج مُغضبًا من إيوانه، وينزح بعدَها إلى مصر، أرض الكنانة. تخيّل عبدًا زنجيًّا يغتصبُ تاجَ الإخشيد، وتخيّل أنهُ يحرمه الولاية فيتشاجر معَه، ليهربَ يومَ العيد في مسيرةٍ بطولية قاطعًا مصر والشآم والعراق. تخيّل أن جدته تمرض، وأنها تكتبُ إليه، لكن الأعداء يحولون بينَه وبينها، لتموت تاركةً حفيدَها وحيدًا بين طغام الخلق. تخيّل النيروز في أرجان، وتخيّل نفسه غريبًا في شيراز، يمشي في مماليكه وعبيده تحتَ ورق الشجرِ الورديّ، دون أن يحسّ ببهجةِ الربيع وبأنسِه. تخيّل، وتخيّل، وتخيّل، وما كان له أن يحيا لو لم يتخيّل.

بعدَ مرورِ عامٍ على حبسه، أمرَ الأميرُ لؤلؤ بإطلاق سراحِه. خرجَ متهاديًا من الحبس، ليجدَ غلامَه مفلح - رفيقَ صباه - ينتظرُه بسرورٍ عندَ باب السجن. سار الاثنان إلى إحدى حانات حمص القديمة، وهناك جلسا على طاولةٍ خشبية. أخرجَ أحمدُ بن الحسين المخطوطةَ الورقيةَ من جرابه، ثم وضعها أمامَ مفلح. كانت الصحائف البيضاء تمتلئ حبرًا من الجهتين، وقد فقدت مع الأيام رائحتَها النفّاذة. تطلّع مفلح بدهشة إلى الأوراق، ثم شرعَ بقراءتها ببطء وصمت.

لم يتحدثْ أحمد بن الحسين. كان يجلسُ صامتًا على كرسيه، متطلعًا بانتباه في وجه مفلح، قارئًا في تعابيرِه كلَ انفعالةٍ وكلَ خاطرة. كان يثقُ بذوق مفلح، وبلغته السليمة الصافية. لولا ذلك لما لزمه مفلح كل هذا الوقت، ولما أصبح من أشد المتعصبين له.

عندما فرغَ مفلحُ من القراءة، اشرأب بعنقه تجاه أحمد بن الحسين وقال بصوتٍ لاهثٍ مُنفعل:

«هل تدري ما الذي كتبتهُ هنا؟».

لم يجبْ أحمد بن الحسين. كان يبتسم في رضًا، بعد أن تبيّن في محيا مفلح ولهجته ما ينمّ عن إدراكه عظم الشيء الموجود بين يديه.

«يا الله! هذا أفصحُ ديوان كتبته العرب. ليسَ فيه هنّة واحدة!»

«لكنه بلا قيمة».

«بلا قيمة! ماذا وكيف؟ ألا تعي عِظمَ الشيء الذي كتبته؟».

«أدري. لكنها أشعار كتبتها في حبسي أثناءَ الوحدة. ليس لها أية مناسبة. ليسَ لها من سياق. كلها خيالاتٌ باطلة. لو قرأها أيّ أحدٍ فسيرمي بها في أقربِ ماخور. كل شيء يحتاجُ إلى سياق. حتى آي القرآن كانت لها مناسبات نزول. لكن هذه! هذه خيالات حمّى. كلها بلا معنى».

«ماذا يعني ذلك؟ هل ستتخلص منها؟».

«بالطبع لا! ليس بإمكاني أن أكتب مثلَها. ليس بعد أن خرجتُ من الحبس. لكن خطرتْ ببالي فكرة. وأريدكَ أن تكونَ عونًا لي كي أنفذَها».

تطلّع أحمد بن الحسين في وجه غلامه مفلح. كان الأخير ينظر إليه بذهول وثقة. نعم، يستطيعُ أن يعوّل عليه.

«إذا كانت هذه الأشعارـ التي قلتَ عنها توًّا أنها أعظمُ ما كتبتهُ العربُ ـ بلا سياق، فمن الأحرى أن نصنعَ لها سياقًا».

«لم أفهم!».

«أريدكَ أن تسافرَ معي: أنطاكية وحلب ومصر وبغداد، دمشق وأرجان وشيراز. هناك سوفَ نبدأ بصنعِ سياقٍ لهذه القصائد. سوف نقومُ بكل حدبٍ، بكل انتباه، بخلقِ مناسباتٍ لهذه القصائد. مناسباتٍ يمكن أن تبررَ كتابة هذه القصائد، تكسبها معنىً، تعطيها خلودًا».

«لحظة يا أحمد. هل أصبتَ بلوثةٍ بسبب السجن؟ هناكَ فرقٌ بين الشعر والحياة. أنتَ الكاتبُ الوحيد لقصائدك، تستطيع أن تلوي أعناقها كيفَ تشاء وتأخذها أنّى شئت. أما الحياة! الحياة شيء آخر. لستَ أنت المتحكم الوحيدُ بما يجري. ما الذي يضمنُ لك أن تتم الأمور ويتصرف الأشخاص حسب ما جاء في قصائدك؟ الحياة ليست بهذه البساطة. كما أنّ قصائدك ممتلئة بالأسماء والمواضع! ما الذي سيجعلُ هذه الأسماء تتوافق مع ما يدور في عقلك، على هذه الشاكلة، وبهذه الطريقة؟».

«أنتَ مخطئ. بل الحياة كالشِعر، نستطيعُ أن نطوّعها وأن نلوي عنقَها حيث شئنا. كل ما يلزمنا هو أن نصرفَ عليها من الحَدبِ والعناية والتعهّد ما نصرفه على الشعر. حينها سوف تدورُ الأحداث بالطريقة التي نريدها، تمامًا. سوفَ يفعل الآخرون - وبمحض إرادتهم - ما تريدهم أن يفعلوه، ودون علمٍ منهم. عيبنا في الحياة، أننا نندفعُ فيها اندفعًا، نرمي بأنفسنا وسطَ قَدرِها، وكأننا نرتمي في اليمّ. صدقني، سوف تجري الأحداث كما نريد، وعلى الطريقة التي تخيلتُها، دونَ أن نضطرَ إلى تغيير اسمٍ واحدٍ في الديوان، دونَ أن نضطرَ إلى تغيير بيتٍ واحد، أو حرفٍ واحد».

وضعَ صاحبُ الحانة خوان الطعام أمام الرجلين، فتوقف أحمد بن

الحسين عن الحديث، وخصوصًا بعد أن لاحظ الارتعاش العصبيّ الذي سيطر على يديه. رسمَ مفلح ابتسامةً على وجهه، متحاشيًا النظرَ إلى كفيّ سيدِه. ابتسمَ أحمدُ وهو يشبكُ ما بين أصابع يديه. تنحنحَ مفلح:

«متى نرحل؟ وما هي وجهتنا الأولى؟».

«أنتَ معي إذن؟».

«أنا معك».

وهكذا شدّ الرجلان مطايا رواحلهما، وبدآ رحلتهما المستحيلة ميممين شطرَ بحيرة طبرية. هناك التقى المتنبي ببدر بن عمار، فرآه يجندلُ الأسد (مع أنّ كلمة «رآه» لا تدلل على الجهد والحَدب اللذين بذلهما كي يراهُ يجندل الأسد)، بعدها سارا إلى أنطاكية عند أبي العشائر، ومنها إلى سيف الدولة الحمداني في حلب. هناكَ أوقع سيفَ الدولة في حبه، وببطء وخبث، سعى بالأمر حتى دفعَ ابن خالويه كي يشجّ رأسَه بالمفتاح، ليغادرَ بعدَها قاصدًا كافورَ في مصر. من مصر إلى بغداد، ومن بغداد إلى شيراز، وهكذا، وبلا توقف، ليصنعَ بصحبةِ غلامه مفلح أعظم ديوان عرفتهُ العرب، ليصنعَ ديوانَ العرب!

أفكرُ في الموضوع كثيرًا، لكن نقطةً واحدةً تظلُ مستعصيةً على فهمي. إذا كان المتنبي قد تخيّل جميع ما وردَ في الديوان ثم سعى في تنفيذه، إذا كان قد تخيّل جميع هذه البطولات واختلقها في السجن، لماذا إذن لم يتصور نهايةً أكثر بطولية لنفسه؟ لماذا اختار أن ينتهي مقتولًا بواسطة قاطع الطريق فاتك الأسديّ؟ ألم يجد ميتةً أكثر مجدًا؟

أحسّ باليأس وأنا أقلّبُ هذا السؤال في ذهني، فأنحني بجسدي عبرَ الوقتِ وأمدّ يدي باتجاهِ أعرفِ الناس بالمتنبي، باتجاه أبي الفتح

عثمان ابن جنّي. أحضرهُ من هناك إلى حيثُ أنا، وأجلسهُ أمامي على الطاولة، في نفس الحانة التي جالس فيها المتنبي غلامَه مفلح. أطلعهُ على السرّ، أريه صفحات الديوان المكتوبة بحبرٍ واحد، وخطٍ واحد، لم تغيره التجربة ولا تقادم السنين. أشرحُ له أن الشعراء ـ عادةً ـ يولدون في مدينتهم، ويموتون في مدينتهم، وأنّ حياة المتنبي الملحمية لا تعدو أن تكون خيالاتِ رجلٍ محبوس. يهزُ رأسهُ بغيرِ اقتناع، وإن كانت علامات الاهتمام لا تفارق محياه، ولا ينفكّ يقلبُ بيديه المعروقتين صفحات الديوان. عندما ألقي عليه في الأخير السؤال الذي يحيرني، يغلقُ الديوان، ويفكرُ مليًّا، ثمَ يقول:

«الأمرُ كله يصعبُ تصديقه، لكني سأجاريك فيما ذهبت إليه لمجرد أن أجيبَ على سؤالك. أخالُ أنني أملكُ إجابةً عليه، ليس لنباهةٍ أبزّك بها، وإنما لأنني اشتغلُ في حرفةٍ تقاربُ حرفة المتنبي. أبو محسّد رحمه الله، حينما كان في السجن، لم يتخيل موتَه بالطريقة التي حصلتْ على يدِ فاتك، بل إنهُ لم يتخيلْ موتَه بالمرة، فهوَ ـ حسب ما تذهب إليه ـ قد لجأ إلى الشعر أولًا وأخيرًا كي يتشبّث بالحياة. الشعر كان كل شيء بالنسبة إليه، ولذا سخّر حياته ـ كما تزعم ـ كي تكون مبررًا لما كتبه داخلَ السجن. إذا كانت هذه هي الحقيقة، فإنه من الأحرى به، بعد أن وصل إلى آخر قصيدةٍ في الديوان، قصيدته في هجاء ضبّه، أن يلقي بنفسه فوقَ رؤوس الرماح، أيًّا كان حاملُها، إذ أنّ حياته قد توقفتْ مع آخرِ حرفٍ في ديوانِه».

شاخ نبات

سألَ مُنتهنكٌ يفترشُ الطريقَ
مُسافرًا يقطعُ أرضًا غريبة:
«أيُّها المسافرُ ماذا تخفي في جرابِك؟
هاتِ بذرًا كي ننصبَ شَرَكًا من متاعِك».
ردَّ المسافرُ: «أجل، أحملُ شَبَكًا
لكني لا أرتضي سوى العنقاء هدفًا».
قالَ لهُ: «كيفَ لكَ أن تجدَ أثرَها
إنها بلا أثرٍ، وكذلكَ عُشها!».
«نعم يا شيخ، ما أطلبه شبهَ محال
إلا أنّ اليأسَ أشبه بالعار».
ذاكَ الشيخُ لم يرعَ بي إلًّا ولا ذمةً
يا مسلمُ، يا مسلمُ، اتقِ اللهَ!
لربما جاءَ الخضرُ المُباركُ ذاتَ ليلةٍ
وساعدَ وحيدًا ضائعًا كي يُدركَ مبتغاه!

(حافظ الشيرازي)

قمرٌ بين الشبابيك

عندما رأى حافظ شاخَ نبات، حسبَ أنه رأى القمرَ بين الشبابيك، وعند نزوله سُلمَ كبير البزازين، أخذَ يعززُ هذه الصورةَ مع كل درجة تخطو قدمهُ عليها: قمرٌ بين الشبابيك.. قمرٌ فوقَ غصنٍ بان ميّاد.. قمرٌ تحفُ بهِ رائحةُ القرفةِ والندّ.. قمرٌ يرمشُ بعينِ ظبيٍ ويتكلم بلسانِ عصفور.. قمرٌ بين الشبابيك.. وهيهات لخبازٍ أن يقطفَ القمر!

كان الطحينُ الأبيضُ يملأ شعرَهُ الكثّ وجلبابه القشيب، أما قلبه وبصره، فلقد فاضا بصورة الفتاة التي رآها في دارِ كبير البزازين. قالت له من وراء الباب: من هناك؟ قال لها: محمدُ شمس الدين. قالت له: محمدُ من؟ قال لها: محمد الخباز. وعندما فتحت الباب، كاد حافظ أن يُغشى عليه لفرطِ جمال ما رآه. نوعان من الجمال على هذه الأرض: جمالٌ ترتاحُ له العينُ ويطمئن له القلبُ، وهو النوع الشائع من الجمال، أما الثاني، فهوَ جمالٌ تُخطف له الأبصار وترتعد له القلوب، إذ أنها تحاول أن تحيطَ به دونَ أن تكون جاهزةً ولا قادرةً على الإحاطة باللامحدود واللامتناهي، والكامل.

أنزل حافظ خوانَ الخبز وهو يقّلبُ هذه الفكرةَ في عقله: كيف لي أن أحتفظ بصورة شاخ نبات دون أن يمحوها تقادم العهد؟ كيف لي أن أحفظ ذاك الشعور الذي خامر قلبي تلك اللحظة؟ ذاك الشعور المشوب باللذة والخشوع والرهبة؟ أن أحيط بسرِ الجمال؟ أن أصلَ إلى كنههِ؟ أن أرتقيَ إلى القمر؟ أن أقطف ما بين الشبابيك؟

نفض حافظ الطحين من جلبابه وسارع إلى دواته. حاولَ أن يكتب شيئًا، لكن الشعر لم يكن مطواعًا. أزاحَ الدواة ورمى بالصحيفة وسارع

إلى مرقده. اضطجع على سريره وأغمض عينيه. كان نور القمرِ أقل سطوعًا داخلَ عقلِه، وكان صوتُ العصفور أبعدَ ما يكونُ عن أذنه، وكانت رائحة القرفة أشد استعصاءً على أنفِه، وهو أكثر ما أفزع حافظَ وأقلقَ عليه فراشَه.

لبثَ حافظ في مرقده بضع ساعات وهو لا يتحرك ولا ينبسُ بشفة، وعندما فتح عينيه أخيرًا، حانت منه التفاتة فإذا بالبدر يعتلي متن السماء ويشع نورًا ويكتمل جُرمًا. كان نور القمرِ الفضي ينسكب وسط الليل ليغمرَ الجنان الشاسعة الممتدة حتى مقبرةِ «بابا كوهي» شمال شيراز. أخذ حافظ يحدقُ بالبدر طويلًا عبر الشباك، وعندما نهض من مرقده، كان قد بيّت في قلبه نيةً غريبةً مفادُها أن يلازم مقبرة «بابا كوهي» وأن يعتكف بها مدة أربعين يومًا حتى يفتحَ اللهُ عليه ويمكنه من كتابةِ غزلٍ في شاخ نبات.

يُقالُ أن الضدَّ لا يتضحُ إلا بوجود الضد، وأن البدرَ لا يطلعُ إلا بالليل، ولذا حقَّ لحافظ أن يبحث عن الجمال وسطَ المقبرة!

حافظ أول

الليلُ والمقبرةُ والغربان لها لونٌ واحد، لذا تختار الغربانُ المقابرَ مكانًا لها كي تنامَ الليل.

أسندَ حافظ ظهره المتعب على جذع شجرة، بينما نامت الغربانُ حولَه فوقَ القبورِ وعلى الأشجار. مرّ على اعتكافه في المقبرة أكثرُ من ثلاثين يومًا، وفرغ الطعامُ الذي كان يتزودُ به في صيامه واعتكافه، أما صحيفته فلقد بقيت مطروحةً وسطَ متاعه دون أن يلطخها حرفٌ واحد.

اختلطت الأيامُ في ذهنِه حتى غدت ليلًا طويلًا لا فجرَ له، وتمنّعَ النومُ من عينيه حتى تداخلت فيهما الصور، وتسارعت أنفاسهُ حتى اكتسبت رائحة سكّرٍ أحرقهُ اللهب، لكن أذني حافظ اكتسبتا حدةً وحساسيةً مفرطتين، حتى بدأ يخالُ أن بإمكانهِ سماع أفكار أهل القبور وهم يرتجفونَ تحتَ الأرض.

كانت أشجارُ الزانِ والتنّوب تنتشر حولهُ وتغطي عليه مجالَ بصره، حتى ليُخيل للرائي أنه وسط بستانٍ وليسَ مقبرة! تناولَ حافظ قربة الماء وأفرغ آخر قطراتها في حلقه العَطِش. فجأةً، سمع صوتَ حركةٍ في الجانب الغربي من المقبرة. انتصب على قدميه وأخذ يحدق وسط الظلمة علّه يتبين مصدرَ الصوت. كان الظلامُ حالكًا ومُعميًا حولَه. أنصت بأذنيه محاولًا أن يستخلص من الريحِ ما تحملهُ معها من أصوات، وحينَها سمعَ نفسَ الصوت مرةً ثانية. صرخَ حافظ: من هناك؟ لكنه لم يظفر بإجابة. بدلا من ذلك، اختفى الصوت.

فتش حافظ في متاعه حتى وجد مصباحَ زيت. أشعل المصباح وأخذ يتلمس طريقه بين القبور. كانت الأشجار السوداء تتمايل بأغصانها النحيلةِ وكأنها تبحث هي أيضًا عن مصدر الصوت، أما ظله الطويل فلقد أخذ يتمايل وراءه كالسكران مع كل خطوة يأخذها. رفع حافظ مصباحه وهو يقترب أكثر من المكان الذي خيّل له أنه سمع الجَلَبَة تبعثُ منه. فجأةً، قفزت ظبية نحيلة من خلف إحدى الأجمات لتقف أمَامه مباشرة. حدّق حافظ وسط الظلمة محاولًا تبيّن وجه الظبية، وعندما فعل، كان وجه شاخ نبات - بعينيها السوداوين وشعرها الطويل - ينتصب أمامه! أصيب حافظ بالذهول، وكاد أن يُسقطَ المصباح لفرط غرابة ما رآه. اقترب حافظ من الظبية بحذر وهو يكتم أنفاسه كي لا ينفّرها، لكنها،

بمجرد أن اقترب منها، قفزت إلى يمينه قفزة عريضة هائلة، ثمّ أخذت تركضُ مبتعدةً، قاصدةً جنوبَ المقبرة.

قذف حافظ بنعليه وأخذ يركض بكل ما أوتي من قوة علّه يدرك الظبية. كان يسمع وقع حوافرها وصوتها وهي تتقافزُ بين الأشجار دون أن يراها. أخذَ يركضُ، ويركضُ، ويركضُ، دونَ أن يفهم أو يصدقَ حقيقةَ ما يركضُ في أثرِه. كانت الأفكار تتدافع في عقله المّشوش بسرعة تفوق سرعة قدميه الحافيتين. لم ينقطع تيار تلك الأفكار إلا عندما دوّى فجأةً صوتُ صفيرِ سهمٍ كادَ أن يقطعَ أذنَه. انحنى حافظ بفزعٍ بعدَ أن أسقط مصباحَه لينكسرَ على أرض المقبرة وينسكبَ زيتُه. صرخ بأعلى صوته في الاتجاه الذي أتى منهُ السهم: «من هناك؟».

من خلف إحدى الأشجار، خرجَ صيادٌ مفتول الذراعين، منتصبُ القامة، يلبسُ جلبابًا أحمرَ، وتعلو ذقنه لحية خفيفة. كان يحملُ بين ذراعيهِ قوسًا طويلةً، ونبلةً طرْيرةً، تشيرُ بذبابتِها نحوَ قلبِ حافظ مباشرة. اقترب حافظ من الصيّاد، واقترب الصيادُ من حافظ، وعندما انعكست أشعة البدرِ النوراني على وجهيهما، تبيّنَ حافظ نفسَه في وجهِ غريمِه!

حافظ ثانٍ

لا تتكررُ اللحظةُ التي يلتقي الشخصُ فيها بقرينِه كثيرًا: قد تحصل بين اليقظةِ والمنام، أو على صفحاتِ الماءِ أو المرايا، أو قد تحصلُ عَرَضًا على قارعةِ الطريق، هكذا، محضَ صدفة، وهي إن حصلت، قد تدفعُ بصاحبِها إلى الجنون.

لم يُفاجأ حافظ كثيرًا وهو يرى قرينَه ذا الجلباب الأحمر يقفُ أمامه

ويستهدفه بنبلتِه. لم يتساءل إن كان ما يشهدُه حقيقةً أم حُلُمًا. أخذ ينظرُ بكلِ بساطةٍ في وجه قرينِه، دون خوف:

«ما الذي أتى بك؟».

«نفس ما أتى بك، جئتُ أصطادُ الظبية».

«إياكَ أن تقتلَها!» هتفَ حافظ الأول.

«لن أقتلَها، اطمئن». أجابَ الثاني مبتسمًا، «لكن وقبلَ أن نشرعَ في صيدِها، هل لك أن تشاركني الطعام؟ أنا أتضور جوعًا».

«لم يبقَ في متاعي ما يؤكل».

«لم أسألك إشراكي طعامَك، إنما أن تشاركني طعامي».

قالَ ذاك، وهو ينحني فوقَ جرابه ليخرجَ منه طبقين فضيين، أحدهما يمتلئُ بالطيور المشوية، والآخر بحلوىً يترقرقُ فوقَها الطلّ. وضعَ حافظ الصحونَ على الأرض، وأشار إلى الطعام دون أن يرفع عينيه نحو رفيقه. أنشب حافظ بأظفاره ما بين الجلد واللحم، وعندما وضع اللقمة الساخنة في فمِه أحسّ بلذةٍ هائلة لم يعهدها من قبل، وعندما أصاب من بعض الحلوى أحسَّ بريقِهِ يتحلبُ عسلًا.

«ما هذا؟».

«منّ وسلوى».

تجمدت يدُ حافظ وهو في نصفِ لقمته.

«من أينَ أتيتَ بهما؟».

«الوادي المقدسِ طوى».

«هل اصطدتَها؟».

«تقصدُ السلوى؟».

هزّ حافظُ رأسَه.

«نعم، اصطدتُها».

«أليسَ محرمًا؟».

«بل معروف كبير وتؤجرُ عليه!»

سكتَ الرجلان. كانَ السكونُ يخيّم على أرجاء المقبرة. وكانت ريح هيّنة أو نسمة عليلة تهبُ بينَ فينةٍ وأخرى، فتحركُ الأوراقَ والأشجار. عاد الرجلانِ إلى الأكل، وبعد صمتِ دقائق، سأل حافظُ ذو الجلباب الأبيضِ غريمَه الأخمر:

«لماذا تنوي اصطياد الظبية؟».

«شاخ نبات!».

«هيَ عينُها».

«كيف لي أن أدري! أنتَ من تركَ دفءَ الفراشِ ودعةَ البيت لتأتي بنا إلى هنا! أخبرني أنت؛ لماذا أتيتَ هنا؟ لماذا تنوي اصطيادها؟».

«لست أنوي اصطيادَها، ولا أجرؤ عليه. جئتُ كي أكتبَ غزلا فيها، هذه كل الحكاية».

«لكن لماذا اخترتَها هي؟ تشتهيها، أليسَ كذلك؟».

تلوّنَ وجهُ حافظ غضبًا.

«صُنْ لسانك! أنا لا أشتهيها كما يشتهي الرجلُ امرأة حرامًا عليه. لقد

سحرني جمالُها، وأدركتني نشوة طاهرة إثرَ رؤيتها، نشوةٌ تشبهُ ما يُدركُ المرءَ أثناء صلاتِه ونُسكه، وهذا تحديدًا ما أطلبه».

«تطلبُ الجَمال!».

هزّ حافظٌ رأسه.

«وأيّ فضلٍ للجمال؟».

«لم أفهم!».

«ما الذي أكسب الجمال تلك الحظوةَ كي تضربَ الرحالَ ميممًا شطرَه؟».

«سأخبركَ قصة»، هتفَ حافظ بحماس لقرينه الأحمر، «عندما فتحتْ شاخ نبات الباب، عندما رأيتها وجرى ذاك الحديث بيني وبينها، أصابتني نشوة غريبة، اضطربَ لها قلبي اضطرابًا عنيفًا. نزلتُ السلم والدنيا تدورُ بي فرحًا وبهجة، أردتُ أن أرمي بخوان الخبز ثم أرقصُ على طول السوق، حتى إذا هزّ الكبير والصغير رؤوسهم استهجانًا، مزقتُ ملابسي، واستقبلت القبلة، وسجدت للرحمنِ شكرًا».

ابتسمَ الآخرُ بسخرية.

«لم أفعلْ حينها، لكن ما جرى هو أنني وبمجردِ أن نزلتُ من آخر درجات السُلم، رأيتُ شحاذًا أعمى، يربط خرقةً سوداء فوقَ عينيه المطفأتين. كنتُ أراهُ دائمًا في السوق، ولم يسبق لي أن حدثتهُ. لكن هذه المرة، عندما رأيتهُ، أدخلتُ يدي في جيبي، ورميتُ بكل ما أملك من النقود في ثوب الشحاذ. لقد تلونَ وجهُ المسكينِ دهشة وهو يحسُّ بالنقودِ تملأ جلبابَه».

«وبدلًا من أعمىً معوز، صار لدينا خبازٌ لا يلقى ما يأكُل! تريدُ أن تخبرني أن الجمالَ كان سببًا في صنعِ هذه الحماقة التي تسميها خيرًا!»

«أسمها حماقةً، لكنكَ لا تملكُ أن تنفي صفة الخيريةِ عنها».

«أن ترميَ بنقودِك ثمَّ تموت جوعًا!».

«ويحك! ما الذي يدفعكَ إلى هذا التشكيك؟».

«لا تغضب. أولُ طريقِ اليقين شكّ. لكن قل لي: لماذا تعدُّ صدقةَ المالِ خيرًا؟».

«لو تصدّق الجميعُ بما يملكون، لعمّ الخيرُ في الأرض، ولأصبحت الدنيا جنّة أرضيّة».

«ألن يدورَ المالُ حينَها؟ وبدلًا من أن تورثَه عيالك، تهبه أشخاصًا لا تعرفهم؟».

«أنتَ تخلطُ ظرفَ العملِ بجوهرِه! جوهر العمل - أقصدُ عملَ الصدقةِ - خيرٌ محضٌ. هو خيرٌ إن أورثتَ مالكَ عيالَك، وهو خيرٌ أيضًا إن وهبتَ المالَ للفقير الغريب. خيرٌ في كلا الحالتين. لقد اكتسب جوهر العملِ خيريته من اتساقه مع المعقول».

«ما هو ذاك المعقول؟».

«أنهُ لو تصدّق الجميع لتحولت الدنيا جنة. هذا ما يضفي على جوهر العملِ خيريتَه».

«ولو سرقَ الكلُ من بغضهم بعضًا لتحولت الدنيا جحيمًا!».

«ها أنتَ تفهمني».

«تقصدُ أن الخيرَ والشرَ محكومانِ بمنطقٍ عقلي وليسا فطرةً من الله!».

«اسمانِ لشيء واحد».

فجأةً، بكل هدوءٍ، ومن دون أن ينتبها لها أول الأمر، خرجت الظبية من خلف الأجمات، وتقدمت بخطىً بطيئة باتجاهِ المنّ والسلوى. انحنت الظبيةُ بعنقها الطويلة على طبقِ المنّ، وأخذت تلعقُ ما تبقى فيهِ من طلٍ وعسل دون أن تنظر إلى الرجلين. كانت عيناها الواسعتان تلمعانِ وسط الليلِ وكأنهما شهابان درّيّان.

التقطَ حافظ الصيادُ قوسَه ونشابه، واستوى واقفًا على قدميه، بينما قفزَ حافظ الخبّازُ ليحول بين قرينه وبين الظبية.

«إياكَ وأن تصطادها. أحذرك! لقد وعدتني ألا تفعل!».

«قل لي يا حافظ، ما الذي يمنعني الآن، هنا، وسط فضاء المقبرة، حيثُ لا يرانا أحد، أن أطلق هذه النبلة، مباشرةً، باتجاهِ قلبك، ثم من بعد ذلك، اصطاد هذه الظبية، شاخ نبات، وأجتزُ رأسها الفتان، هكذا، بنصل الخنجر، ثمّ ألقي بهِ وسط متاعي، ها هنا، في الجراب؟ قل لي يا حافظ، ما الذي يمنعني؟».

حافظ ثالث

ما منعهُ كان العواءَ المفاجئ الذي شقّ ظلمة الليل!

قفزتْ الظبيةُ في فزعٍ لينقلبَ الطبقان الفضيانِ رأسًا على عقب. التفتَ حافظ وحافظ بكامل جسديهما نحوَ مصدر الجلبة، وإذا بذئبٍ أسودَ هائلٍ يندفعُ باتجاههما وعيناهُ تقدحانِ شَررًا وشرًّا. ألقى حافظ

بجسده على الأرض، في نفس الوقتِ الذي قفزَ فيه الذئبُ فوقَه، لكن الذئب بدلًا من أن يهبطَ فوقه، اجتازهُ لينطلقَ يعدو خلف الظبية.

ملأ الخوفُ قلب حافظ. كان يعرفُ في قرارة نفسِه أنهُ قد رأى هذا الذئبَ قبل ذلك، أنهُ قد رآه في مكانٍ ما، أو بالأحرى في كلِ مكان، أنّ الذئبَ ليس حيوانًا ضالًا اتفقَ أن مرّ بالمقبرةِ مصادفةً، أنهُ ـ منذُ الأزل ـ يطارد الظبية ويجري وراءها.

ألقى حافظ بجسدِه فوقَ قرينهِ الأحمر، وأمسك بتلابيبِه، واندفع يهزهُ وهو يصرخ:

«أنقذ الظبية، أنقذها. كنتَ تنوي أن تصطادها! لكنكَ تعرفُ أنّ الأجدرَ بك أن تطلقَ نبلكَ أثر الذئب. تعرفُ ذلكَ في قرارةِ نفسِك، تعرف!»

استطاع حافظ التخلص من يدي حافظ، واندفعا يجريانِ بين الأشجار والقبور. كان العواء كافيًا كي يوقظَ الغربانَ النائمة ويرسلها هاربةً إلى مكانٍ آخر. كانت المقبرة بأشجارها وقبورها، وتلعاتها وحفرها، أشبهُ بالمتاهة التي لا تطأ قدمك فيها نفسَ الموضعِ مرتين. ابتعدَ صوتُ الحوافر والعواء، لتستبدلَ بهما الريح صفيرَها الحزين.

إلا أنّ هذا الهدوءَ المؤقت سرعان ما انقطع بصيحاتِ رجلٍ يصرخُ وسط الليل. كانت الصرخات عاليةً ومُفجعة، مما حدا بحافظ وحافظ أن يختبئا وراء أجمةٍ عشبية، حيثُ أخذا ينظران بعيون متسعة ووجوه فزعة إلى مصدر الصرخات والضجيج. على بعد أذرع منهما، كان ثلاثة رجالٍ يحملون رجلًا رابعًا، ويسحبونه سحبًا من ناصيته وقذاله، والرجل المحمول يتلوى ويصرخ بين أيديهم. توقفَ الرجالُ أمام تلعة خضراء

في المقبرة، وأخذ أحدهم يضربُ بمسحاةٍ كان يحملها وجه الثرى ويقلب تربته.

همسَ حافظ في أذن حافظ:

«ماذا يفعلون بالرجل؟».

أجابَ الآخرُ هامسًا:

«إنهم يدفنونهُ حيًّا».

عندما انتهى الرجلُ من حفره، أشار إلى الرجلين، فقذفا بالرابع في الحفرة الصغيرة، وأخذ الأول يهيل التراب فوقه. كان الرجل المقبور يصرخُ في فزعٍ، ومع كل صرخةٍ، كان الثلاثة يضربونه بأقدامهم وبالمسحاة. توقّفت صرخاتُ الرجل المقبور، وسرعان ما فرغ الثلاثة من جريمتهم، لينفضوا الغبار عنهم، وليمضوا مخلفين المسحاة والرجل خلفهم، تحتَ الأرض!

صرخَ حافظ:

«يا إله السماوات! ماذا يجري هنا؟ لنخرجَ الرجل».

اندفع حافظ وحافظ إلى القبرِ، وأخذا يقلبان التربة الرطبة بحثًا عن جسد الرجل. سرعانَ ما ظهر وجهه خلف التراب، فشهقَ شهقةً مخيفة، ثم أخذ يكحُ بعدَ أن أزالا أكوام التراب الجاثمة فوقَ صدره. نظرَ حافظ وحافظ إلى وجه الرجل، فتبينا فيهِ حافظًا ثالثًا.

«بحقِّ الله يا رجل، ماذا كانوا يفعلون بك؟ لماذا دفنوك حيًّا؟»

أجاب حافظ:

«ماء! سوف أحكي، لكن أحضرا لي ماءً».

الله

أحضر حافظ الصيادُ قربة الماء الخاصة به، فأخذ حافظ المقبورُ يفرغها وسط حلقه، وبعدَ أن علّ وارتوى، استلقى على ظهرِه، وأخذ يتطلع إلى أعلى، إلى القمرِ:

«سوفَ أحكي كلَ شيء لكما، كل شيء. يا للرعب! يا للفزع! لقد رأيتُ الموتَ قبل دقائق، رأيتهُ رأي العين، رأيتهُ أمامي، جاثمًا فوقي، الموت! الموت! ثمّ مِن من؟ من أصدقائي! أصدقائي يفعلون بي هذا. يدفنونَ صاحبهم حيًّا! سأحكي لكما، كلَ شيء، سأحكي لكما ما فعله المجانينُ بي. يا للرعب! يا للفزع! أن يُدفنَ الرجلُ ولم يأتِ أجلُه بعد! سوفَ أقصُ عليكما، ولا تحفلا برائحة النبيذ الخارجة من فمي، أنا أتذكرُ كل شيء، أراهُ رأيَ العين، نعم، رأيَ العين. لستُ سكرانًا، أنا أتذكرُ كلَ شيء، رأيَ العين، رأيَ العين.

«كنا نجلسُ في الحانة، ثلاثتُنا، لا لا، أقصد أربعتنا، وكان الجوُ رائقًا، والقمرُ بدرًا، بدرًا يملأ السماءَ، أنظرا إليه، أنظرا إليه، ما أجمله! أتتنا القينةُ بالنبيذ وآنيته، وتعاطينا الشراب ودارت الكؤوس، الواحدَ تلوَ الآخر. كنا نتناشدُ الشعر، ونصدحُ بهِ، فننتشي طربًا. سأل أحدهم وقد أُخذ بضياء واكتمال جُرم القمر: أيّ الشعراء كان أبرع في وصف القمر؟ أجابَ أحدهم: أبو نواس. أجاب آخر: ابن المعتز. أما أنا، فأجبتُ: الله».

«أستغفر الله العظيم!».

«حُقَّ لهم أن يدفنوك حيًّا!».

«رحمتكَ يا ربَ السماوات! ألا يوجد من يفهمُ على وجهِ هذه البسيطة! لا، لم أكن أنوي أن أقارنَ ما بين رب العباد والعباد، ولم أقل

بأن كلام الله شعر، معاذ الله! وإنما ما عنيتهُ، ما عنيتهُ، انظرا، انظرا إلى البدر السابح في السماء، بربّكما هلا نظرتما إليه؟».

كانَ البدرُ معلقًا فوقَ رؤوسهم، قريبًا جدًّا، يكادُ يسقط على الأرض. كان ينثر أشعته الفضية دون تحرزٍ، وكأنه جارية لا يهمها كشف محاسنِها أمام الأغراب.

«أنظرا إليه! يسألون: من أبرع الشعراء في وصف القمر! لكن ليسَ هذا ما يهم! ما جدوى أن تشبّهَ شيئًا بشيءٍ آخر؟ هل هذه براعة؟ هل هذا خلق؟ أعذراني، أنا أتخبطُ في قولي، لم أقل ما أريدهُ بوضوح، أحسُّ بدوارٍ في رأسي، لستُ أقارن فعل الخلق باللاخلق، لا، هذا ليس موضوعي. لقد نظرتُ إلى الأعلى آنذاك، ونحن نجلسُ على طاولةٍ بجانب الباب، والقمر يعتلي رؤوسنا، تمامًا كما يعتليها الآن، هلاّ نظرتما إليه! قلتُ في نفسي وأنا أتملّى فيه: أنظر يا حافظ! أنظر إلى القمر! هل تزعمُ أنكَ شاعرٌ حين تقولُ أن البدر يشبهُ خدَ الفتاة الخجول؟ هل تظن أنكَ شاعرٌ حين تشبههُ بصحنِ فضةٍ، أو بالمرآة الصقيلةِ، أو بخبزِك المدوّر؟ ليس هذا شعرًا يا حافظ. الشعرُ يا حافظ، الجمال يا حافظ، الإعجازُ والعظمة، هي أن تخلقَ الكون، بمجراته الهائلة وذراته المتناهية، أن تخلقه، ثمّ تضعُ هذا المشعل الوهاج فوقَ رؤوس العباد، هكذا، رمزَ جمالٍ، وموسيقى، وشعر! رمزًا يذكرنا دومًا بما هوَ فوق، بالله الجميل الأجمل. أنظرا إليه؟ هل تصدقانِ أنهم يدفنونني، يدفنونني بعد أن رأوه! إن مجردَ وجودِه فوق رؤوسهم دلالة على قبيح فعلتهم. أنظرا إليه! ألا يحقُ لي أن أغرمَ بالفتاةِ العطبولِ كلما تمعنتُ فيه؟».

قفزَ حافظ على قدميه، حافظ الذي لا يوجد غيرُه بالمقبرة، حافظ

الأبيض والأحمر والأسود، حافظ الخباز والصياد والسكران، حافظ العابد والمتصوف والعاشق.. حافظ الشاعر، قفزَ من مكانه، ومزّق ثيابَه، وكسر دواتَه، وأتلفَ صحيفته. أخذ يجري كالمجنونِ متجهًا إلى شيراز، بينما أخذت الشمس بأشعتها تمزقُ صفحة الليل. كان كلُّ ما حوله موسيقى وشعر: الفراشاتُ وهي تتطايرُ كالنجماتِ على خَصلاتِ الشجر، والعصافيرُ وهي تغني فوق الغصونِ فينسكبُ غناؤها كالماء، والأرضُ وهي تضحكُ تحتَ قدميه فتتوردُ وجنتاها عُشبًا، والفقير حينَ يتصدق بآخر ما يملكه إلى فقيرٍ مثلِه. كل شيء شعر، كل شيء يردد حولَه بنشوةٍ وافتتان: الله، الله، الله،...

قيس والظبية

رياحُ الصبا تعني أشياء كثيرة في الصحراء: الظلَّ للمُمحل، الاتجاهَ للمسافر، البردَ للعليل، والصبحَ لمن لم ينم الليل.. أما بالنسبة لصبيان بني عامر فهي أول الدلائل على قدوم المجنون.

أمسك سعد بعضد ربيعة، ثم دفعه إلى الأرض، ليعتليه وهو يصرخ: صرعتكَ مرةً أخرى! ضحك زيد، بينما أخذ ربيعة يتلوى بجذعه دون جدوى، وعندما لفحت الصبا أوجهَ الصبية الثلاثة، التفتوا جميعهم إلى الشرق، منتظرين قدوم المجنون.

صرخ زيد: «إنه قيس!».

أردف سعد: «المجنون».

تمتم ربيعة: «لنصرعه ثلاثتُنا».

دخل قيس مضاربَ بني عامر، وأخذ يخبّ خطاه قاصدًا الصبية. كان أشعثَ، أغبرَ، عيناه غائرتان، وثوبه ممزق ومهلهل. هتف ربيعة في وجهه: سوف أصرعكَ يا قيس فتحرّز! وما إن أتمّ جملته، حتى ارتمى على فخذ قيس يسحبها، ومثله سعد، بينما طوّح زيد بكامل جسده فوق قيس، ليسقط وإياه على الأرض كومةً واحدة. أمسك سعد وربيعه بقدمي قيس وأخذا يجرانهُ نحوهما، بينما قبضَ زيد على قذال قيس وأخذ يجرها

إلى الجهة الأخرى. تعالت ضحكات الصبية، ومعها تعالت صرخاتُ واستغاثاتُ المجنون.

خرجتْ امرأةٌ في العشرين من عمرها من أحد الأخبئة. أخذت تتسقطُ مصدرَ الجَلبة، وعندما تبينت المجنون وهو يتلوى ويستغيثُ، هرعت إلى الصبية بخطى عجلة، وأخذت تصرخ معنفةً إياهم: «يا نبتَ الشيطان! كفوا أيديَكم عنه». جرى الصبية في كل اتجاه، وتفرقوا وكأنما ابتلعتهم الأرض.

توقف قيسٌ عن الصراخ بمجرد أن سمع صوت المرأة. نظر قيس نحوها، ونظرت إليه. قالت: «رجلٌ بمثل عمرك لا يجدر به أن يخالط الصبيان». أشاحتْ بوجهها، بينما أطرقَ المجنونُ نحو الأرض، وعندما استدارتْ عائدةً إلى خيمتها، أخذ قيس يشيُعها بنظراتٍ ملهوفة، والحسرةُ والفجيعةُ تملآنِ عينيه.

توقفت ليلى فجأة، واستدارت ناحية المجنون.

«هل أكلت؟».

أطرقَ المجنون برأسِه مرةً أخرى.

«رحماكَ يا رب. متى كان آخر عهدِك بالأكل؟ سوف تقضي جوعًا إن أنت لم تأكل. اتبعني».

انطلقت ليلى نحو خبائها، وتبعها المجنون وعيناه شاخصتان نحوها لا تفارقانها. غابت ليلى برهةً وسط خيمتها، وعندما رجعت، كانت تحمل بين يديها لبنًا ولحمًا. وضعت ليلى الطعام بين يدي المجنون، أما هو فقد أخذ ينظر إليها دون أن يرمشَ أو يلقيَ إلى الطعام نظرة واحدة. هتفت ليلى: كل! لكن المجنون لم يأكل. أخذت عجائز القبيلة يرمين

ليلى والمجنون بنظراتهنّ، وعندما استشعرتْ ليلى حرَجَ موقفها، غابت وسط الخباء، لتترك المجنون وحيدًا مع الطعام.

ظلّ المجنون ينظر إلى باب الخباء مدة طويلة، وعندما لم تعد ليلى، أطرق برأسه، ثم أصاب بعضًا من الطعام، وشرب اللبن، ثم غادر مخلفًا الخباءَ والمضاربَ وراءه.

اعتلت الشمسُ قبة السماء، وأخذ قيس يضرب بخطاه على فحصِ الأرض حتى شارفَ الغدير الذي تحوّطه أشجار السدر. جلس على حافة الغدير، وانحنى إلى الماء ليغسلَ وجهه، وعندما فرغ، أمسك بعصًا مكسورة، وأخذ يحرك بها صفحة الماء. كانت عيناه ساهمتين، غادرتهما كل علائم الجنون، ولم يبقَ فيهما سوى الحسرة والفجيعة. بعد ما يقارب نصف نهار، سمع قيس وقعَ حوافر خلفه، لكنه لم يلتفتْ، إذ كان يعرف أنها الخطى المعتادة لصديقته الظبية.

اقتربت الظبيةُ حتى لامست بجلدها كتفَ قيس، ثم مالت برقبتها إلى صفحة الماء، وأخذت تعلُّ بهدوء. عندما ارتوتْ، التفتت بعينيها الواسعتين نحو قيس، وسألته:

«هل رأيتها اليوم؟».

«رأيتُها».

«حقًا؟ ماذا حدث؟».

«قدّمتْ لي بعض الطعام واللبن، وبعدها غابت وسطَ خبائها».

«هل كلمتها؟».

«لا».

«لماذا؟».

«ماذا أقول؟».

«أخبرها بكل شيء، كل شيء».

«المجنونُ لا يتحدثُ ولا يُخبر».

«لكنكَ لستَ مجنونًا».

«لكن يجبُ أن تظلَ تحسبني مجنونًا».

«لماذا؟ إلى متى وأنتَ تصطنعُ الجنون؟ إلى متى تهيمُ على وجهِكَ، وتجوّع نفسَك، وتصطرع مع الصبيةِ والأطفال؟ هل تنوي أن تعيشَ طوال حياتك هكذا؟ لماذا ولأجل من تصنعُ ذلك؟».

«أقل ما أسطيعهُ هو أن أتصنعَ الجنونَ لأجلِها».

«لكني ما زلتُ لا أفهم، لماذا؟».

«أبوها رفض تزويجي إياها، ستتزوجُ غيري، هل تريدين مني أن أتبعَها؟ أن أقتل زوجها؟ أن أفضحها بين العرب؟ لا أستطيع ذلك، لست أرضاه لها. الجنون هو الطريقة الوحيدة كي أبقى أراها، أن أتغنى باسمها دون أن أفضحها. سوف يقتلها زوجها إن استمر قيس بن الملوّح يتغزل بها، لكنه لن يفعل شيئًا إن كان ابن الملوّح مجرد مجنون. إن كنتُ لا أستطيعُ أن أحظى بها، أن أعيشَ معها، فأقَل ما أستطيعُه هو أن أتصنعَ الجنونَ لأجلِها».

«ماذا عنها؟ ألن يسوءها أن ترى حبيبها ـ رفيقَ صباها ـ مجنونًا؟ أن تراهُ يلعب مع الصبية والأطفال، أن ينتهيَ كل شئ بهذه الطريقة؟».

«لأجلها صنعتُ ذلك. لأنها المرأة التي لن تنجب النساء مثلها كان

يجدرُ بعاشقها أن يجنَّ لأجلِها. عنترة جلبَ النياق الحُمر لأجل عبلة، المرقّش طوح بوجهه صوب الحيرة لأجل أسماء، لكن ليلى، ليلى فقط، هي التي جُنّ عاشقُها لأجلها، هي فقط من يستحقُّ ذلك».

مالتْ الظبية برقبتها الطويلة نحو قيس، وأخذت تمسحُ بجلدها وجهَه الشاحب، أما هو، فلقد أخذ ينظر نحو ماء الغدير بعينين ساهمتين، وأخذ يعيد في عقله تلك الفكرة المؤرقة، تلك الفكرة القاتلة، المُعذبة، الفاجعة، التي لم يُطلعْ عليها أحدًا حتى صديقته الظبية. كان يعرف في قرارة نفسه منذ البداية أنه من المستحيل أن يحظى بليلى، كان يعرفُ أن ليلى ستتزوجُ رجلًا آخرَ في النهاية، وأنهُ سيُجنُ جنونهُ، وأنهُ سيطيشُ عقله، لذا كان يُعِدُّ نفسَهُ منذ البداية لهذا الشيء؛ للجنون، لكن ما فاجأه حقًا، ما أفجعه، وآلمه، وأقضّ منامه كلَ ليلةٍ حتى يوم وفاتِه، أنهُ، حين حانتْ تلك اللحظة، أنهُ، حينَ فقد ليلى، حينَ أصبحتْ ملكًا لرجلٍ آخرَ، آخرَ غيره، أنهُ حينَها لم يفقدْ عقلَه.

وزارة الأسرار

«سجادة الصلاة تتسع لصوفيين، لكن العالم لا يتسع إلا لحاكم واحد».

(السلطان سليم الأول)

(1)

استفاق السلطان سليمان من نومه القصير مفزوعًا قلقًا. أخذ يتطلع ناحية أقواس المشربيات، ويحاول الإنصات لصوتٍ خالَ أنه انبعث خلف حيطان مخدعه. لم تكن تلك المرة الأولى التي يضطرب فيها نوم السلطان. منذ تينك الكلمتين اللتين أفضى بهما الحاج توفيق إلى سليمان - في زمنٍ ولى ومضى ولن يرجع - والنوم يتمنع على عينيه. كيف ينام وآلاف الأسرار تملأ عقله وتؤرق نومه؟ كيف يغمض له جفن والعالم يقظ حوله، يتشكل ويتغير، بدسائسه وأسراره، بشائعاته وخوابيه؟

لبس السلطان هندامه ثم خرج إلى مجلسه في السراي. عندما مثل حاجبه بين يديه أمره أن يبعث رجلًا يستدعي إبراهيم اليوناني إلى مجلسه. أثناء انتظاره، أخذ سليمان يسترجع الكلمات التي دارت بينه وبين الحاج توفيق أفندي في ذلك النهار البعيد. كان حينها صبيًّا صغيرًا، يسمع عن أبيه الرهيب ولا يراه، وكانت السلطانة الأم حفصة خاتون

هي من ترعاه في كنفها. في ذلك النهار، سرتْ شائعة في القصر ترددت على لسان خصيان القصر حتى وصلت أذن السلطانة، مفادها أن الحاج توفيق عزم اعتزال مهنة التأديب. هرعت السلطانة الأم إلى حجرة المعلم بصحبة ابنها. ماذا سيقول آغات الانكشارية والقادة السباهية عن ابنها بعد أن يسمعوا الخبر وهم الذين يطلقون على الحاج توفيق لقب «معلم السلاطين»؟ إن انصراف المعلم الذي درّس على التوالي كلًّا من بايزيد وسليم العبوس عن تأديب ابنها أمر جلل، ونذير شؤم، وسيدفع العامة إلى التشكيك بأحقية سليمان في شغل منصب الخلافة.

تذكر سليمان كيف أن أمه بمجرد أن رأت الحاجَّ توفيق أفندي خارجًا من الحمام وقطرات الماء تتفصدُ من لحيته جثت بين يديه، وأشارت إليه كي يصنع مثلها.

«سألتك بالله يا حاج توفيق أن لا تحرم ابني حكمتَك وعلمَك».

ابتسم توفيق أفندي بحرج، وانحنى بظهره المتخشب ليرفع ابن السلطان وأمه. وضع راحتيه المبللتين فوق كتفي سليمان، وتأمل قسمات وجههِ الحادة وبشرته السمراء. سأله:

«كم عمرك يا سليمان؟».

«تسع سنوات».

«هل تحفظ المقولة التي أوصى بها أرطغل إلى ابنه المؤسس عثمان؟».

«إذا حال بينكَ وبين كرسي الحكم أبوك؛ اقتل أباك! إذا حالت بينك وبين كرسي الحكم أمُك؛ اقتل أمَك! إذا حال بينك وبين كرسي الحكم أخوك؛ اقتل أخاك! إذا حال بينكَ وبين كرسي الحكم ابنُك، اقتل ابنَك!».

«أنت تعلم إذن أنّ أباك لم يعزل جدَك السلطان بايزيد فقط، وإنما دسّ له السمَّ في المنفى. تعلمُ أيضًا أن أعمامك قضوا شنقًا بأوتار الأقواس بأمرٍ من أبيك. رغم ذلك، العامة لا تكره أباك، ولا تنظر إليه كقاتل. أتدري لماذا؟».

لم ينبس سليمان ببنتِ شفة. استأنف توفيق أفندي:

«لأن هذا القتل يعلي من قيمة رقاب الناس عند أنفسهم. لأن المكان الذي يحكم أحدهم من فوقه رقابَ ملايين الناسِ يستحق من أجله أن يقتل الابنُ أباه والأبُ ابنَه. كلما ارتفع الثمن المبذول من أجل الكرسي ارتفعت قيمة رقاب الناس عند أنفسهم، هكذا تفكر الغوغاء. الفكرة مريعة، لكنها حقيقة. كان أبوك مولعًا بأعمامك. أتذَكرُ جيدًا كيف كان يلهو معهم بجذلٍ في الكتّاب. لكنه في نفس الوقت كان يدرك أنه عندما يكبر سيتواجه معهم، وأن كرسي الحكم لا يتسع إلا لرجل واحد، وأنه إذا لم يكن الرجلَ الجالسَ فوق الكُرسي فإن هامته لا ريب ستكون فوقَ النطع. هل تفهم هذا؟».

«أفهمُه».

«إذن أنتَ لا تحتاج إليّ كي تدركَ بغيتَك».

«رويدك يا حاج توفيق، ما هذا الذي تقوله؟» هتفت الأم السلطانة بانزعاج.

«لم يبقَ في العمر أكثر مما مضى يا سلطانة، ولا أظن أن أبنك يحتاجُ مشورة رجل مثلي يطأ القبر برجله. ابنكِ يتفجر حياةً، لذا فالأحرى به أن يبتعد عن ظلال الموتِ من أمثالي. أنا أرى مخايل النجابة تلوح فوقَ جبهته، وسيكون أعظم سلاطين بني عثمان».

«لكن كل فتى في حاجةٍ إلى معلم».

«صدقتِ يا سلطانة. وسأعهد بابنك إلى من هما أفضل مني». قالَ هذا وهو يتراجع على أعقابه ليدخل حُجرتَه. عندما عاد، كان يمسك بين يديه سِفرًا ضخمًا ينوف على الألف صفحة.

«هل تعرفُ ما هذا يا سليمان؟».

«أخاله كتابًا».

«ليس أيّ كتاب، إنه سِفر تاريخ، وهو المعلم الأول الذي أوصيك بالتتلمذِ على يديه. عندما تقرأ التاريخ سوف تفهم النواميس التي تحكم الكون؛ سوف تفهم كيف يفكر الرجال، وما الذي يثيرهم، كيف تُكسب المعارك، ولماذا تندلعُ الثورات».

«والثاني؟».

«الدنيا. من التاريخ سوف تتعلم من تجارب الآخرين، أما من الدنيا فسوف تتعلمُ من تجاربك. لا تصعّر بخدك أو تنصرف عن صغائر الأمور زاعمًا أن السلطان لا يهتم إلا بالجليلِ منها. إن قدرة الله تتجلى في أكثر الأمور تفاهة، ولقد قيل أن شيخًا صوفيًّا وصل مرحلة الكشف بعد أن تأمل دبيبَ النمل عشرين سنة. افتح عينيك يا سليمان، ليس عينيك وحسب، وإنما أذنيك ومنخريك أيضًا، استقبل كل ذرةٍ في هذا الكون، كل مشهد فيه، كل همسة، كل نسمة».

«متى أنام إذن؟».

«من يبغي السلطنةَ لا ينام»، سكت الحاج توفيق. أخذ يتأمل ملامح سليمان وكأنه ينتظر أن يتبين أثر الكلمات التي ألقاها توًّا على وجهه،

كأنه يتوقع أن هذه الكلمات سوف تغير الصبي الواقف أمامه إلى الأبد. بعد صمت قصير أضاف:

«هناك سلاح أكثر فتكًا من السيف والبارود والمدفع، أتعرف ما هو؟».

عندما لم يجب سليمان أضاف المعلم هامسًا:

«الأسرار».

لم يتتلمذ سليمان على يدي معلم السلاطين كباقي أجداده، لكن تلك الكلمتين اللتين همس المعلم بهما إليه بقيتا كالقرطين لا تفارقان أذنيه. من يبغى السلطنة لا ينام. الأسرار أشد فتكًا من النار والبارود. منذ ذاك، وسليمان لا ينام أكثر من ثلاث أو أربع ساعات كي لا يفوته شيء مما يجري حوله. منذ ذاك وهو ينصت إلى ما يدور على لسان حريم وخصيان القصر: مَن يعشقُ مَن، ومَن يكرهُ مَن، ماذا يخفي ذاك عن السلطان، وما الأمر الذي لو عرفه السلطان نجمَ عنه سقوط رأسِ صاحبِه. هذه أسلحة أكثر فتكًا وأشد ضررًا، المهم أن تعرف كيف تلتقطها ومتى تستخدمها، والأهم من كل ذلك أن تبقى مستيقظًا طوالَ الوقت كي لا يفوتك أمرٌ منها.

سرعان ما تحقق سليمان من أهمية هذا السلاح الفاتك وعاين أثرَه، فبواسطة الأسرار استطاع أن يتفادى غضبة أبيه سليم العبوس حينما أرسل إليه في مغنيسيا ـ الإيالة البعيدة التي يشغلها ـ قميصًا مسمومًا. لولا أنه أنصت إلى شائعة خافتة انبثقت من أحد خصيان القصر بخصوص ثورة السلطان بعد أن قرأ رسالة ابنه، وكيف أمر باستدعاء الطبيب والخياط الخاصين بالسراي مباشرة بعد أن أنهى الرسالة، لولا ذلك لما استطاع

سليمان أن يتدارى تلك الغضبة الهوجاء، ولغدا تحت التراب جثة هامدة، لكنّ الله سلّم، وألقى في روعه أن يجعل أحد العبيد يلبس القميص السلطاني بدلًا عنه، فإذا بجسد العبد يتقرّح وينتفخ ليسقط ميتًا.

أيضًا بواسطة نفس السلاح استطاع أن يضغط على الطبيب عباس أفندي ويجبره أن يدلي بمعلومات سرية بخصوص صحة السلطان وإن كان ما سمعه عن تدهورها صحيحًا. رفض عباس أفندي في البداية الإجابة على أسئلة ابن السلطان عن أبيه، لكن عندما هدده بكشف سره الخاص بإجهاض زوجة الشاه إسماعيل بعد أن وقعت أسيرة عند السلطان، عندها انصاع الطبيب الخائف لرغبة سليمان، وكشف له كلَّ ما يعرف. من خلال الطبيب عرف سليمان أن السلطان يعاني من مرض في فخذه، قد يكون خمجًا أو سرطانًا، وأنه لا يُرجى برؤه، وأن حياته لن تدوم أكثر من شهر أو شهرين. إذا كانت المعلومة صحيحة فمن الأفضل أن يؤجل سليمان ضربته وأن يتصنع الجهل بفعلة والده حتى يموت السلطان في أرض بعيدة في إحدى مغازيه التي لا يتوقف عن شنها. وهكذا، وبنفس السلاح أيضًا، استطاع سليمان - وهو البعيد في مغنيسيا - أن يصل إلى الباب العالي في الوقت المناسب، قبل أن يُنادى بموت السلطان، وقبل أن يصل الخبر أغاوات الإنكشارية والسباهية الذين كان من شأنهم أن يتربصوا به ويعرقلوا وصوله لو أتيح لهم فرصة تنظيم صفوفهم قبل أن يباغتهم في السراي.

لكن، شتّان بين الأسرار التي تصلك حين تكون بعيدًا في إيالة مثل مغنيسيا وما يصلك حين تصبح سلطان السلاطين وظل الله في أرضه. فجأة، وبدون سابق إنذار، وكأن أبواب السماوات فتحت، إذا بطوفان من الأسرار ينصبّ من كل جهة ويكاد يُغرق سليمان ويشغله عن أية راحة

أو نوم. لم يعد الأمر مقتصرًا على ما يدور بين جدران السراي، وإنما ما يجري ويشاع في مملكة تكاد تنافس مملكة الإسكندر ـ البطل الذي يعشق ـ في اتساعها. أصبح يصغي ويخزن في عقله كل ما يتعلق بأي قائد أو ضابط من الانكشارية أو السباهية، كل ما يتعلق برجالات الدولة ابتداءً من الوزير الأعظم برّي باشا، مرورًا بالدفتردار والقائمقام والسناجق والمتصرفين، وانتهاءً بالعبيد والخصيان والطباخين والكناسين. كل كلمة قالوها، كل بادرة اجترحوها، كل سر باحوا به في سورة غضب أو فورة سُكر، كل مغامرة ليلية أو غرام شائن اقتحموا من أجله لجج الليل. ليس هذا وحسب، بل إن أذن سليمان بقيت مصغية لما يجري في بلاطات وقصور وغرف أعدائه في المشرق والمغرب: المؤمرات التي تدور في بلاط الملك هنري الثامن كي يتخلص من زوجته كاثرين الأرغونية لأجل محظية يتعشقها تُدعى آن بولين. الأطماع التي يضمرها فرانسوا الأول بخصوص دوقية ميلان. إلبابا الجديد كليمنت السابع الخائف والمحصور في أنقاض مدينته روما، القس الجرماني الغريب لوثر والذي من شأنه أن يغير معالم المسيحية إلى الأبد. مشكلات الإمبراطور شارل الخامس مع ابنه الكسيح فيليب. المؤمرات التي تجري في بلاط الشاه إسماعيل الصفوي وابنه طهماست. لو كان شخصًا غير سليمان، لصنف هذه الأسرار والشائعات إلى أسرار تُرفع وأسرار لا تُرفع، لكن ولأنه سليمان ـ الطالب النجيب لتوفيق أفندي والذي لم يدرس على يده سوى يوم واحد ـ كانت كل الأسرار والشائعات والمرويات أسلحة مهمة تتساوى في خطرها وفتكها لكنك لا تدري متى تحتاج إليها. قوة السلطان تتلخص في أنه الرجل الوحيد الذي يعلم كل هذه الأسرار الخطيرة التي من شأنها أن تهز وتخلع، تعلي وتخفض، من شأنها أن تهزّ

بلاطات أوروبا وتجعل الفوضى تعمّ كل مكان لو أنها وصلت الأشخاص الذين يفترض بها أن لا تصل إليهم.

قطع صوتُ الحاجب على سليمانَ حبل أفكاره وهو يعلن قدوم رئيس القصر الداخلي إبراهيم باشا. كان إبراهيم صديق طفولة سليمان وما زال صديق شبابه، فمنذ أن أتي به من اليونان أسيرًا، ومنذ أن تبين فيه معلموه مخايل النجابة، وهو لا يفارق سليمان ويلازمه كظله. كان اليد اليمنى التي ساعدت سليمان على الوصول إلى دكّة السلطنة. كان هو الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يبوح له سليمان ببعض الخواطر التي تشغله. وفوق كل ذلك كان الرفيق المناسب الذي يستأنس بصحبته حين يخرج متنكرًا في شوارع عاصمته كلما تمنّع عليه النوم.

غادر سليمانُ وإبراهيمُ باب السراي وأخذا يخبّان الخطى جنوبًا، باتجاه الجامع الذي بناه جدُ سليمان الأكبر محمد الثاني. كانت الليلة باردة، وهواؤها عذبًا نقيًّا. عندما وصلا الجامع، وجدا ساحته خالية تمامًا. جلسَ سليمان على إحدى مصطبات المكان، وأخذ يتأمل الليل والبلاط المرصوف. رغم الخواطر التي تشغله، ورغم الهموم والأسرار التي تعكر صفوه وتمنع نومه، آنسَ سليمان في نفسه خفة وهو يتأمل معمار الجامع القديم بقبابه المدورة ومناراته الشامخة.

«هل سمعت يا إبراهيم بالقصة التي تُروى عن عتيق سنان؟».

«المهندس الذي بنى الجامع؟».

«هو مثلك من أصول يونانية. أظنه أفضل مهندس مرّ في تاريخ أجدادي السلاطين. يُقال أن جدي الفاتح لم يكن سعيدًا بعد الانتهاء من بناء الجامع، وبالأخص لم يكن سعيدًا بالقبة. كان يريدها أكبر من

آيا صوفيا. لهذا السبب، أمر جدي – وبكل برود – بقطع يد سنان. المهندس المسكين، كان مزهوًّا بالتحفة المعمارية التي بناها، كان يظن أنه بلغ الأوج في التوازي والتناظر والبناء، فإذا به يُجرُّ من خناقه كي تُقطع يده! يُقال أن عتيق سنان مضى إلى القاضي محتجًّا: كيف يكون جزائي على هذا العمل الرائع قطع اليد؟ عندما سمع القاضي شكواه، رثى لحاله، وحكم له بالقصاص: قطع يد السلطان، تخيّل! يقول العامة أن عتيق سنان عندما سمع بالحكم وتثبت من استعداد السلطان للرضوخ له، أشهر إسلامه. قصة بديعة، أليس كذلك؟ تصلح كي ينام عليها الأطفال. لا أظن أن سنانًا كان من الغفلة بحيث يخفى عليه أن الحكم الذي حكم به القاضي هو حكم السلطان. وحتى لو افترضنا أن القاضي كان شجاعًا، يظل الحكم حبرًا على ورق، إذ أن شفرة السيّاف تخضع للسلطان هي أيضًا. القاضي يخضع للسلطان، والسيّاف يخضع للسلطان، وعقول العامة يجب أن تخضع للسلطان. هل تدري يا إبراهيم أكثر شيء يشدني في القصة؟».

«ما هو؟».

«العقوبة التي أوقعها جدي على سنان. لم يأمر ببتر لسانه أو جدع أنفه أو قطع ذكره، بل أمر بقطع يده، يده المبدعة، الصانعة، التي أنشأت هذه التحفة. لك أن تتخيل عتيق سنان وهو يتجول في الأرض الفضاء التي اختارها مكانًا للجامع، ثم كيف أمضى كل يوم وهو يرى جدران الجامع تنهض من الأساسات التي وضعها، وتتطاول بمآذنها ومناراتها كي تلامس السحاب. لا بدّ أنه أحس بتعلق شديد يربطه بالجامع، التعلق الذي يحسه كل من الأب والأم وهما يشاهدان طفلهما يكبر كل يوم بين يديهما. لا بدّ أن هذا التعلق أوهمه أن الجامع له، يخصه، تحفته

التي ستخلده على مر التاريخ، إلى درجة أن يبني القبة الرئيسية على الطريقة التي يراها أمثل. هنا تأتي عقوبة السلطان، صارمة، وسريعة، وكاملة الدلالة، كي تقطع اليد التي تربط سنان بالجامع. إنه ليس جامعك أيها الجاهل! هل ظننت أن العامة سوف تنسبه إليك؟ إنه جامع الفاتح. هكذا بدأ، وهكذا يجب أن يبقى، كأي شيء يجري بناؤه تحت أمر السلطان».

«قصة مرعبة».

«تراها كذلك؟ قد تكون! لمن هم بعيد عن كرسي الحكم. أما إذا كنت فوق الكرسي فهي درس شديد الأهمية، يؤكد أن كل ما يجري على هذه الأرض التي تمتد تحت قدميك يجري تحت اسمك. إن خسر قائدٌ معركة، فأنت من يخسرها. إن كسب آخر معركة، فأنت من يكسبها. ولذلك، يجب على السلطان الحاذق أن يسجن الرجلين؛ الخاسر كعقوبة على الخسارة التي ألصقها بالسلطان، والكاسب كي لا يحول بين فرح الناس وبين سلطانهم».

سكت سليمان، كذلك إبراهيم. كان ما يجري في عقل الأول يختلف عمّا يجري في عقل الثاني. كان سليمان يمتلئ بنشوة قوةٍ جديدة يستشعرها في كل كلمة يقولها وكل فعل يقارفه. أما إبراهيم فلقد كان ممتلئًا بتحرز خفي، يرجو أن لا يفضحه أو يبعده عن رفيق صباه. بعد انقضاء بعض الوقت تمتم سليمان:

«والآن، إلى الأمر الذي استدعيتك لأجله. تعلم أن وزيرنا الأكبر بريّ باشا أصبح كهلًا طاعنًا في السن، وهو ما لا يمكن التغاضي عنه في سلطنتنا الفتية. أحتاج وزيرًا شابًّا، قويًّا، كاتمًا للسر، يركب معي

حتى أقاصي الأرض وأستطيع أن أستوثقه على غالب أعمالي دون أن أخشى غدره أو ضعفه. هل تستطيع يا إبراهيم أن تسمي رجلًا يصلح لهذا المنصب؟».

«الرجال كثيرون، ولا أظن أن هناك من هو أعرف بالرجال من مولاي السلطان».

افترّ ثغر السلطان عن ابتسامة ساخرة.

«ولماذا لا تسمي نفسَك؟».

«إن عرف السلطان فيَّ الكفاية، فسأعمل جاهدًا كي أكون عند حسن ظنه».

«أعرف فيك الكفاية يا إبراهيم. أنت رفيق صباي، وساعدي الأيمن، ولا أعرف في حاشيتي من هو أكفأ منك».

«شرف لي يا مولاي، لكن إنْ أذن سلطاني - وهو من قرأ التاريخ وعرفه - أخشى أن تكون الوزارة سببًا يكدّر علاقتي بمولاي. كثير من الرجال النابهين انتهوا - بعد أن تولوا الوزارة - إما وسط السجن أو فوق النطع».

«لك مني يا إبراهيم - ما دمتُ حيًّا - أنكَ لن تُظلم ولن تُسجن، لن تُقتل ولن تُطرد مذمومًا أو مدحورًا. أقسم على ذلك».

انكبّ إبراهيم على يد سلطانه يقبلها.

«الأمر الثاني الذي استدعيتك لأجله هو أني أريد أن أنشئ وزارة للأسرار».

«وزارة أسرار!».

«لو تطلعت يا إبراهيم داخل جمجمة سلطانك لرثيت له. ملايين الأسرار تملأ رأسه وتؤرق نومه. أريد أن أحفظ هذه الأسرار من الضياع، فائدتها للدولة تفوق فائدة المدافع والبارود والمفرقعات. لا أريد لهذه الأسرار أن تزول بعد موتي، كما أني أريد التخلص من عبء حملها وحدي».

«اترك لي مهمة تنظيم الأمر يا مولاي».

«لا.. الأمر ليس كما تظن. لا أريد أن تُقيّد هذه الأسرار في صحائف ودوواين. إن مجرد وجود هذه الأسرار على ورق كفيل بافتضاحها. هل تعرف ما سيحصل حينها؟ سوف تسقط عروش وتهتز عروش».

«كيف ينوي السلطان المعظم أن يحفظها؟».

«داخل قلوب الرجال».

تطلّع إبراهيم باشا بقلق في وجه سلطانه. أحسّ أن الأمر الذي سيتفوه به السلطان يفوق قصة المهندس عتيق سنان فزعًا وغرابة.

«الأمر كما أتصوره هو الآتي: سوف نختار ـ أنا وأنت ـ الصفوة من رجالنا الموثوقين، أولئك الذين عرفوا بالنباهة والحكمة وقوة الذاكرة والكتمان. سوف نعطي لكل واحد منهم وظيفة خازن أسرار، خزندار أسرار إن صحت الكلمة، وسوف نرسل كلَّ واحد منهم إلى مدينة بعيدة في سلطنتنا الواسعة، وسوف نجعل لكل واحد منهم جراية مجزية، بحيث يستغني عن أي عمل آخر، وكلما أردت أن أستودع أو أسترد سرًّا، حينها نرسل إلى الخازندار أن أمثل أمام سلطانك كي تسمع وتحفظ منه».

«أعذرني يا مولاي، إذ أن عقلي لا يستطيع أن يجاري خيال

سلطاني المعظم. ألا يخشى مولاي أن يفضح الرجال تلك الأسرار التي استودعت في عقولهم؟ كيف يرى مولاي أن أولئك الرجال الناطقين أكتم من الورق الذي لا ينطق؟ فهمت أن بعض هذه الأسرار تعطي حاملها قوة وسلطة قد تهدد أمن السلطنة واستقرارها، ألا يخشى مولاي أن يستغل الرجال الموكلون بحفظ الأسرار بضاعتهم التي أوكلت إليهم؟».

«بالضبط يا إبراهيم. تفهمني تمامًا. نعم، قلوب الرجال أصون حفظًا من الورق. ذلك أن المدونين بعد أن يكتبوا الأسرار، لا يتورعون عن إذاعتها، إذ أنه من الممكن دائما التحجج بأن أحدًا آخر وصل إلى الورق وقرأه. أما حينما يدرك الرجل أنه الوحيد الذي يعلم السرّ مع السلطان، حينها سوف يدفع روحه قبل أن يفشي ذاك السر. الأسرار التي سأستودعها هؤلاء الرجال خطيرة للغاية ومن شأنها أن تعطي حاملها قوة قد تعادل قوة السلطان نفسه، لكن هذا الافتراض لن يحصل إلا إذا حوى أحد هؤلاء الخازندارية جميع الأسرار التي يعلمها السلطان، وهو أمر لن يحدث أبدًا. لهذا السبب سأستودع أسراري مجموعة رجال وليس رجلًا واحدًا. لهذا السبب سوف أفرقهم في بقاع المعمورة فلا يرى الواحد منهم من يماثله في الوظيفة طوال حياته. لهذا السبب سوف أحرص على تفريق الأسرار بطريقة بارعة بحيث أن كل رجل من الخازندارية سوف يحتوي على مجموعة أسرار لا تعطي كل المعنى ولا تمنح كل القوة إلى أن توضع مع إخوتها من الأسرار الأخرى».

«لا أملك إلا أن أنحني إعجابًا أمام حكمة سلطاني المعظم. لكن - لو سمح سلطاني - بقي سؤال أخير يجول في خاطري».

«اسأل يا إبراهيم».

«إذا لم أكن أحد الخازندارية الذين يبغي مولاي اختيارهم، لماذا يطلعني مولاي على أمر هذه الوزارة؟».

«لأنك الرجل الوحيد الذي سيعلم أسماء هؤلاء الرجال، فلو اختار الله أن يقبضني إليه، لا بدّ من وجود رجل ينقل إلى خليفتي من بعدي أسماء هؤلاء الخازندارية. ألا ترى المفارقة يا إبراهيم: أنت الرجل الذي أوكل إليه سرّ وزارة الأسرار!».

(2)

من يعرف سر الحبّ؟ من يعرف كنهَ هذا الشيءِ وسطَ القلب؟

أنتَ يا فكهاني، هل تعرف سرّ الحب؟

لا يا سيدي، أعرف أسرار الجزر والقرنبيط، هل أبيعك بعضًا منه؟

أنتِ يا فتاة، هل تعرفين سر الحبّ؟

لا يا سيد، لكن إن أحببتَ سوف أنادي بعض عشاقي، أسمعهم يتحدثون كثيرًا عنه.

يا خازندار حلب، هل تعرف سر الحب؟

الحب! هل هناك سر للحب؟ هو يأتي ويضربُ ويتركك خرابًا، هذا ما أعرفه عنه.

يا خازندار بغداد، هل تعرف سر الحب؟

لا يا صاحبي، لا أعرفه، كما أن مولاي سليمان لم يعهد إليّ بشيء عنه.

مسكين سليمان! يصنع وزارة للأسرار، ويظن أنه يعلم أسرار الأرض وما عليها، دون أن يدركَ سر هذه المضغة النابضة في صدره. كان يظن أن قلبه منصرفٌ لتلك الفتاة الشركسية ـ جُلبهار ـ التي جلبها معه من مغنيسيا كي تصبح سيدة السراي الثانية بعد أمه السلطانة حفصة خاتون، لكن هيهات أن تتنبأ بأمر الحب، فها هو الحب يتسلل إلى سراي السلطان

مختبئًا في عيون جارية سلافية، تمامًا كما فعل إبليس حين تسلل إلى الفردوس داخل جسد أفعى.

ذات مساء، وبعد أن أنصرف السلطان من أعماله، وبينما كان يتمشى في المعبر الواصل بين جناح نومه والسراي، إذا بعينيه تقعان على جارية قصيرة تجلس على حافة نافورة وقد أحاطت بها أشجار الدلب والسرو والصنوبر. كانت الجارية حافية القدمين، وكانت تغسل وسط الماء تفاحة حمراء ناضجة. اقترب سليمان منها:

«من أينَ لكِ بالتفاحة؟».

«قطفتها».

«من أين؟».

«من هناك». أشارت إلى شجرة تفاح عالية. أسفل الشجرة، كان حذاءا الجارية ملقيين بجانب الحائط.

«ويحك! تسلقتِ الشجرة؟».

هزّت الجارية رأسها إيجابًا.

«ألم يخبرك أحد أن تسلق الأشجار ممنوع؟ تصرف مثل هذا من شأنه أن يكشفكِ لمن في الخارج. لا أحد يستطيع أن يرى حريم السلطان ويظل حيًّا».

«إذن فالويل للطائر الذي حلق فوقنا قبل قليل».

«أنا لا أمزح. ما اسمكِ يا جارية؟».

«خُرم».

«أنا لا أمزح يا خُرم، يجب أن تخضعي لأعراف السراي، عقوبة من تنتهك التعليمات شديدة الوطأة».

«كرم مولاي أكبر من أن يضيق بجهل جاريته. أنا جديدة في السراي، لم أصل هنا إلا قبل أسبوعين، كما أن هذه التفاحة هدية إلى السلطان».

فجأة، قضمت الجارية التفاحة ثم وضعتها في راحة السلطان. بُهتَ سليمان أمام هذا التصرف الجريء.

«في بلادي يا مولاي، إذا عزمت إحداهنّ أن تخبر من تحب بمكنون قلبها تترك لديه تفاحة مقضومة».

قالت هذا وهي تسرع نحو شجرة التفاح لترتدي حذائيها ثم تغيب بعيدًا تحت أقواس بوابة السراي.

عندما سأل سليمان عن معنى اسمها قيل له: الضاحكة. عندما تحرّى عن شأنها أكثر، أدرك أن من سماها كان ثاقب البصيرة. أخبروه أنها جارية جريئة، لا تتورع عن فعل الغريب والمخالف، ولقد كانت تضحك دومًا. كانت تضحك حين ترقص، وتضحك حين تغني. تضحك حين تُعنّف، وتضحك حين تتحدث. كان سليمان معتادًا على سلوك واحد من حريم القصر أساسه الخضوع والتسليم، ولقد وجد في سلوك هذه الجارية السلافية شيئًا جديدًا مبهجًا. عندما استدعاها أول مرة، أخبرها أن اسمها خُرم ثقيل الجرس، وأنه قرر أن يدعوها روكسلانا، نسبة إلى بلدها البعيد. عندما طلب منها أن تغنيه واحدًا من ألحان تلك البلاد الباردة، تناولت آلتها الموسيقية، ثم ضربت عليها إيقاعًا حزينًا جعل الجليد يذوب في قلبه. منذ ذلك الوقت والسلطان لا يريد إلا روكسلانا ويؤثرها لكل أوقات راحته ولهوه. كان لمثل هذا الإيثار أن يقلق السيدة

جُلبهار، خصوصًا بعد أن أنجبت غريمتها روكسلانا ولدين ذكرين من السلطان، ولكن تبقى جُلبهار والدة مصطفى، الابن البكر لسليمان، والرجل الذي يُنتظر أن يخلف أباه على عرش السلطنة العثمانية. هكذا ظنت جُلبهار، إلى أن وقعت تلك الحادثة التي تسببت في إرسال جُلبهار وابنها مصطفى بعيدًا إلى مغنيسيا.

كانت جُلبهار تسير في أرجاء السراي بخطواتها الواثقة وقامتها الفارعة حينما بصرت بروكسلانا وهي تتبختر في ثوبها الغلامي الشفيف. زمّت جُلبهار شفتيها وتطلعت بازدراء. لقد درّبت نفسها على أن تكتم جميع خلجات قلبها، لكنها لم تملك ـ هذه المرة ـ وهي تمر إزاء الجارية السلافية إلا أن تهمز بنبرة مستهجنة:

«تطلعوا! تنجب ولدين من السلطان ولا تزال تلبس كقحبة».

تجلّمدت روكسلانا في مكانها وكأنما ضربتها صاعقة. تطلّعت بتحدٍ ناحية غريمتها الأكبر وهتفت:

«يا للمراء! كم أكره التصنّع والكذب! لا يمنعكِ عن لبس هذا إلا أنكِ عجوز طاعنة».

هجمت جُلبهار على غريمتها وأنشبت أظفارها في خدّها. في المساء، عندما أرسل السلطان يستدعي روكسلانا، أجابت الأخيرة أنّ من لها قلب كسير ووجه ممزق لا تستطيع أن تمثل بين يدي السلطان. سارع السلطان نحو غرفة محظيته، وعندما أبصر وجهها استشاط غضبًا. أنصت إلى روكسلانا وهي تروي القصة بصوت باكٍ وعيون دامعة. لم ينبس ببنتِ شفة طوال حديثها. عندما فرغت، نهض من مكانه، وغادر الغرفة، وأمر باستدعاء مصطفى إلى الديوان. عندما مثل ابنه بين يديه،

أخبره أنه سيرسله كي يحكم إيالة مغنيسيا كما فعل السلطان في شبابه. أضاف في الأخير ـ وكما لو أنه أمر عابر ـ أن والدته سوف تصحبه إلى هناك، ولذا فالأحرى به أن يخبرها.

هكذا انتصر جمال روكسلانا على جلال جُلبهار، وسرعان ما انقسم خاصة السلطان إلى معسكرين يتحلقان حول هاتين المرأتين: الأول يضم جُلبهار وابنها مصطفى والوزير الأعظم إبراهيم باشا، والثاني يضم روكسلانا وأبناءها سليم وبايزيد وجهانجير، إضافة إلى رستم باشا زوج ابنتها محرمة. وهكذا، في نفس الوقت الذي كانت فيه جيوش السلطان تزلزل على التوالي كلًّا من جزيرة رودس وعواصم هنغاريا والنمسا وإيران، كانت هناك حرب سرية لا تقل شراسة بين هاتين الغريمتين من شأنها أن تعكّر صفو السلطان إلى الأبد.

(3)

الفتى قاسم شاب مسكين، لم يدرِ أيّ نوع من الأهوال سوف يرى بسبب انخراطه في عِداد رُسل السلطان. قالوا له أنها مهنة مجزية، رواتبها عالية، ومستقبلها مضمون، يركب أحسن الدواب، وينام في أغلى الخانات، ولا ينقطع أبدًا المال عن جيبه أو الطعام عن معدته. هو رجل يحب السفر، كما أنه كتوم كالبئر، لن يجدوا أصلح منه. في سنتين فقط، رأى ديارًا لم تخطر له على بال، رأى حلب ودمشق، بغداد ومكة، القاهرة وبيت المقدس، القفقاس والأناضول. كانت أراضي السلطنة عريضة ممتدة مترامية الأطراف، وكانت رسائل السلطان تتهاوى كالحمائم إلى شتى بقاع هذه السلطنة. لقد أنضج الترحال شخصيته، وملأ المال جيبه، إلى درجة أنه بدأ يفكر بالزواج وبناء منزل جديد، بل حدّث والدته عن فتاة تعجبه كي تخطبها له. هكذا كانت سيرة قاسم المهنية، حتى جاء ذلك اليوم المشؤوم، حينما سلمه مأمور السلطان رسالةً كي يوصلها إلى رجل يُدعى محمود أفندي في قونية.

جهّز قاسم متاعه، وأطعم جواده، ثم انطلق بخرجه ورسالته يقطع الفيافي والأنهار متجهًا نحو قونية. حينما وصل إليها، بات في الخان المخصص لمبعوثي السلطان. في الصباح، عاين الوصف الذي بيده، واتجه نحو دار محمود أفندي. حينما قارب الدار، سمع صياحًا وعويلًا، ورأى ناسًا متحلقين حول الدار التي كان يقصدها. حين استفهم عن الأمر، أخبره أحد المتجمهرين أن صاحب الدار ـ محمود أفندي ـ وُجد هذا الصباح في داره مشنوقًا وقد ازرقّ وجهه وتصلبت أطرافه.

ضرب قاسم كفًّا فوق كف، وهزّ رأسه مستغربًا لهذه المصادفة الغريبة، ثم انصرف وهو يدعو بالغفران للفقيد المنكوب.

لم يمر يومان على وصول قاسم إسطنبول وإرجاعه الرسالة إلى الباب العالي إلا واستدعي ثانية، وسُلمت إليه رسالة جديدة، إلى شخص آخر يُدعى فؤاد بيك في حلب. هذه المرة لم ينم قاسم ليلته في الخان، وإنما توجه مباشرة إلى موقع دار فؤاد بيك كي يسلمه الرسالة. عندما وصل هناك إذا به يُراع ببيتٍ مهجور قد اسودّت جدرانه وتساقطت درفاته. حينما قرع باب البيت المجاور ليستعلم عما حدث، أخبره الجار أن حريقًا نشب في بيت فؤاد بيك قبل أسبوع، وأن جميع ساكني الدار قضوا حرقًا أثناء نومهم.

لم يكن حظّ قاسم أفضل في بقية رحلاته التي تبعت هاتين السفارتين. ففي بيت المقدس، وجد ياسين بيك وقد توفي غرقًا في أحد حمامات القدس، وفي بغداد وجد أحمد أغا قتيلًا بعد أن طُعن من الخلف في أحد الأزقة المظلمة، وفي القاهرة أخبروه أن الحاج حسن مات قبل شهر بعد أن سقط فوقه حائط متداعٍ. بعد أن رجع قاسم من مكة في آخر سفارةٍ فاشلة، إذا به يُراع باثنين من ضباط الإنكشارية يمسكان به ويقودانه إلى غرفة مهجورة في قبو القصر كي يحققا معه. سألاه إن كان على علاقة بمقتل كل هؤلاء الأشخاص. أخذ قاسم يبكي ويسترجي ويقسم أنه رجل مسكين يؤدي وظيفته وحسب. أخذ يستعطفهم من أجل أمه العجوز وخطيبته الشابة، لكن دون جدوى، إذ أنهم عندما لم يظفروا منه بأية إجابة أو تفسير ألقوه في زنزانة، وتركوه هناك وحدَه نهبة للفزع واليأس والحزن.

تُرى، كيف سيكون تصرف قاسم إن علم أن كلًّا من محمود أفندي وفؤاد بيك وياسين بيك وأحمد أغا والحاج حسن كانوا يعملون كخازندرات لسر السلطان، أن هؤلاء السادة المحترمين كانوا أعضاءً في الجهاز الغريب الذي يُدعى وزارة الأسرار؟ عندما سمع السلطان سليمان بخبر مقتل أول خازندراته في قونية أحسّ بريبة، لكنه سرعان ما صرف هذا الظن ونسب هذه الحادثة لخلاف شخصي قد يكون اندلع بين محمود أفندي وأحد الرجال المحيطين به. كان إلحاح الأسرار الجديدة التي يبغي أن يتخلص منها أشدّ من ريبته بخصوص مقتل خازندار قونية، لهذا أسرع بالإرسال إلى خازندار حلب كي يمثل بين يديه سريعًا، فإذا به يراع أن الثاني قضى حرقًا، وإذا بكاتمي سره الذين يفترض أن لا أحد يعلم بهم سواه وسوى وزيره إبراهيم باشا يتهاوون الواحد إثر الآخر إما طعنًا وإما غرقًا وإما حرقًا وإما شنقًا.

كان تورط إبراهيم أمرًا مفروغًا منه في ذهن سليمان، لكن السؤال الذي ظل يؤرقه: لمن باح إبراهيم بأسماء خازني الأسرار؟ لا يُعقل أن يكون إبراهيم هو من أمر بهذه الفظاعات، إذ ما الجدوى منها بالنسبة إليه؟ إن قتل خازني أسراره بهذه الطريقة الوحشية والصارخة رسالة واضحة إلى السلطان يريد صاحبها أن يقول أنني أعلم أكثر أسرارك خصوصية، أنني أجمع هذه الأسلحة التي من شأنها أن تهزّ الكرسي تحتك، أنني قادم كي أخلعك قريبًا فتحرّز ومُتْ في غمرة رعبك.

كان الوزير- آنذاك - بعيدًا على رأس الجيش الذي أرسله السلطان كي ينتقم من الشاه طهماست بعد أن اقتحم جنوده بغداد ونبشوا قبر الإمام أبي حنيفة النعمان. كان يُفترض به أن يتوجه مباشرة إلى بغداد، لكن إبراهيم باشا فاجأ الإيرانيين في عاصمتهم تبريز فاقتحمها وأباحها

لجنوده ستة أيام. من هناك، بعث رسالة تهنئة إلى السلطان، وتوجه بجنوده إلى بغداد كي يستردها. كان لهذه الأخبار أن تشرح صدر السلطان، لولا أنه كان منشغلًا بلغز قتل خازني أسراره. ثم سرت إليه شائعة مقلقة تزعم أن الوزير الأعظم استخدم لقب «السرعسكر سلطان» في إحدى مخاطباته. صحيح أن سليمان صار مؤخرًا ـ وخصوصًا بعد أن تقدمت به السن ـ يغدق العطايا والألقاب على وزيره الأكبر إبراهيم باشا، ويرسله كي يكون في مقدمة الجيش عوضًا عنه، لكن أن يصل الغرور بالوزير إلى التسمي بالسرعسكر سلطان، هذا شطط يستوجب العقاب ويستدعي الحذر. هكذا، قرر سليمان أن يخرج في جيش صغير متجهًا إلى بغداد، باعثًا برسالة إلى إبراهيم يشعره أنه سيلقاه هناك.

كانت الطريق بطيئة طويلة، حافلة بالهواجس والأفكار. مع كل شوط يقطعه، كانت أفكار سليمان تنصبّ نحو اتهام ابنه البكر مصطفى في ما يتعلق بحوادث قتل خازني أسراره. مصطفى هو الاسم الذي أصبح يتردد كثيرًا على ألسنة الإنكشارية والسباهية كمثال لكل ما هو رجولي وبطولي. إنه الاسم الذي صار يقترحه البعض كبديل مناسب لوالده العجوز الذي لم يعد قادرًا على الركوب في أول الجيش. مصطفى هو الابن الناقم الذي رأى أمه جُلبهار تذبل بطيئًا، وتموت منفية مقهورة بعد أن وصل إليها خبر زواج السلطان من غريمتها روكسلانا. مصطفى هو الشخص الوحيد الذي يمكن لإبراهيم أن يبوح له بأمر بالغ الخطورة كوزارة الأسرار. لكنه ابنه، حشاشة كبده، ماذا عساه يصنع إن تأكد له تورطه في هذه القضية الكريهة؟

عندما حاذى جيش السلطان قونية، زار سليمان قبر الدرويش المولولي جلال الدين الرومي. أخذ سليمان يحدق مليًّا في القبر، وكأنه

يرجو من الدرويش الميت أن يقذف في قلبه ماذا عساه أن يفعل. عندما لم يلقَ إجابة في داخله، مال برأسه نحو المفتي وسأله:

«يا مفتي الديار الإسلامية، ماذا عسى برجل أقسم أمام صديق له أن لا يسجنه أو يقتله أو يعزله ما دام حيًّا، ثم تبيّن له أنّ ذاك الصديق غادر خؤون. أله أن يحنث بقسمه؟».

تململ المفتي في مكانه وقد تبيّن في سؤال السلطان ما يريد أن يسمعه. بعد أن أعمل فكره برهة أجاب:

«مولاي، إن للرجل موتتين: موتة صغرى وموتة كبرى. الموتة الصغرى هي النوم. الموتة الكبرى هي تلك التي تفصلنا عن دار الحساب. بالنسبة إلى الرجل الذي تسأل عنه، لو حصل أن مات غريمه أثناء نومه، حينها لا أظنه قد حنث بقسمه».

سُرّ سليمان بهذا الحل الذي لم يكن يتوقعه. عندما خرج من مزار جلال الدين الرومي كان قد أزمع في باطنه أمرًا: أن يقتل صديقه إبراهيم، وأن يستدعي ابنه مصطفى بعد أن يسمع هذا الأخير بمقتل الوزير إبراهيم باشا. إن أطاع مصطفى النداء وأتى فهو بريء. إن هرب، فهو مذنب.

(4)

اهتزت إسطنبول لخبر مقتل الوزير إبراهيم باشا بعد أن عاد من حَملة بغداد مُظفرًا منتصرًا بصحبة سيده السلطان. أخذ الناس يتهامسون أنّ جثة إبراهيم باشا عُثر عليها ملقاة في إحدى غرف التوباكي وقد انطبع حول عنقها جرح غائر. لا بدّ أن الوزير الأعظم شُنق أثناء نومه بوتر قوس، الطريقة المفضلة للقتل في القصر السلطاني. لم يكن إبراهيم باشا صاحب شعبية لدى الناس، لقد كانوا يكرهونه دومًا، ولطالما شككوا في انتمائه وديانته، وخصوصًا بعد أن رجع من حملة هنغاريا بتلك التماثيل التي وضعها أمام قصره زاعمًا أنها تخص الآلهة هرقل وديانا وأبولو. لقد انتشرت تلك الأيام أغنية تقول أن هناك رجلين يعرفان بإبراهيم؛ الأول هدم الأصنام، والثاني أقامها حول قصره. لذا عندما مات الوزير، لم تكن المشاعر حزنًا ورثاءً، أكثر منها دهشة واستغرابًا.

انتظر سليمان حتى تأكد أنّ الخبر ذاع في أصقاع سلطنته، ثم بعث رسالة إلى ابنه مصطفى يأمره فيها بالمثول أمامه. الأيام التي تلت ذلك كانت من أصعب وأمضّ الأوقات بالنسبة إليه. هل سيأتي مصطفى أم سيفرّ؟ وماذا سيفعل حينها؟ لم ينتظر سليمان طويلًا، إذ سرعان ما جاءه خبر يفيد أن مصطفى خرج هاربًا من مغنيسيا إلى أماسيا.

بعدها بأيام، سمع الناس أن السلطان سيخرج في جيش كبير إلى الشرق. لم يعلم أحد ما يحوك في صدر السلطان. اصطف الناس في الشوارع صفوفًا واعتلوا سطوح منازلهم كي يلقوا نظرة على سلطانهم

المبجّل وهو يركبُ في مقدمة الجيش. يومها، بدا السلطان شاحبًا متعبًا، أبيض اللحية، حزين النظرة. لم يصدق الكبار منهم أنّ هذا هو نفس الشاب الفتيّ، صاحب القوام المنتصب الذي دخل عاصمتهم منذ زمن بعيد كي يكون سلطانًا عليهم. آهٍ لو يدرون أي أهوال وأسرار كانت تؤرق نوم سلطانهم المتعب!

عسكر السلطان في إسكدار ونصب خيمته. بعث إلى ابنه في أماسيا: أن تعال، فالأرض كلها تدين لوالدك. كان ذلك صحيحًا، جميع ولاة الأراضي الإسلامية خَوَل لدى سليمان، وحتى أعداؤه من ملوك أوروبا وشاه إيران من السهل شراؤهم بالمال والذهب. أرسل مصطفى إلى أبيه أنه في طريقه إلى إسكدار كي يجثو بين يدي سلطان العالمين. أعدّ سليمان المعسكر جيدًا لاستقبال ولده: خيمة أولى يمثل فيها مصطفى أمام عامل السلطان كي يشعره بقدومه، ثم ممر ترابي طويل يوصله وحيدًا إلى السلطان، ثم خيمة السلطان نفسها. أحاط سليمان باب خيمته بعشرة من الرجال الصمّ البكمّ. يجب أن يبقى الأمرُ سرًّا. كان كل واحد من هؤلاء يقف كالطود الأصمّ وقد تسلح بقوس طويلة وسيف مصلت. أرخى سليمان ستار خيمته الأزرق كي يشاهد ما يجري دون أن يُرى. نعم، يجب أن يبقى الأمرُ سرًّا.

دخل مصطفى الممر الترابي متجهًا نحو خيمة أبيه. عندما رأى الرجال المسلحين استشعر شرًا وأشهر سيفه. قفز أحد الرجال الصمّ من الخلف وأحاط عنق مصطفى بوتر قوسه. انتفض مصطفى بقامته الشاهقة فألقى المعتدي أرضًا. تهاوت فوق جسده ثلاث ضربات جرحته في فخذه وذراعيه. زأر كأسد جريح. تطلع نحوَ الخيمة، وحينها

لمح خيال الرجل المختبئ وراء الستارة الزرقاء. لم يصدق عينيه. أيُعقل أن يكون هذا هو السلطان؟ والده يتطلع بدم بارد إلى ولده وهو يُذبح كالشاة! لوّح مصطفى بسيفه يمنة ويسرة. أسقط رجلين أمامه وهو يحاول التقدم نحو الستارة الزرقاء. لم يتزحزح خيال الرجل الواقف خلفها. فاجأته ضربتان على كاحله وظهره، فسقط أرضًا، وحينها تناهبته السيوف.

أشار سليمان من خلف الستارة فانصرف رجاله. حينما تأكد من خلو الميدان خرج من خلف الستارة. كانت جثة ابنه ترقد على بطنها سابحة في دمها وقد تجمدت ملامحه في تكشيرة رعب. أخذ سليمان يتأمل ابنه والحزن يعتصر قلبه. لقد كان شابًا جميلًا، فارسًا مغوارًا. كان بلا شك أصلح للحكم من إخوانه بايزيد المدلل، وسليم السكير، وجهانجير الكسيح. اقترب سليمان أكثر وجثا بجانب جثة ولده. أداره على ظهره وأخذ يرتب شعره ويُمسح حبات العرق عن جبهته. أخذ يتمتم:

«والآن ماذا؟ هل كان يلزم أن تتحدى إرادتي؟ لماذا فعلت ما فعلت؟ هل تريد أن تعلم كل الأسرار التي تعتمل في رأس أبيك؟ آهٍ يا مصطفى.. هناك أسرار لا أستطيع أن أنقلها حتى إلى أولئك الرجال الذين قضوا على يديك. بودي لو تركتُ كل هذا وعشت درويشًا فقيرًا يأكل غلّة يومه، ويدور ويرقص كما يفعل الملالي حول قبر الرجل الصالح في قونية. هل تريد أن تعلم الأسرار يا مصطفى؟ هل تريد أن تعرف كل شيء؟».

هنا فعل السلطان شيئًا غريبًا، إذ أسند رأس ولده الدامي على صدره

ثم بدأ يسرّ في أذنه جميع الأسرار التي لم يكن يستطيع أن يتخلص منها في الأشهر الأخيرة. أخبره كل شيء: عن الهواجس التي تؤرق نومه، عن الوجوه التي تزوره كل ليلة، عن الآثام والآلام، الوساوس والأحزان، أخبره عن غيرته التي تغرز خنجرًا مسمومًا في قلبه، أخبره عن ضعفه وعجزه وشكه بجميع من حوله. بعد أن أفرغ كل ما في صدره، أغمض عيني ولده، ونادى على عبيده كي يدفنوا الجثة بالأسرار التي ألقيت في جمجمتها.

عندما رجع سليمان إلى عاصمته، قصد السراي القديم، وتوجه إلى جناح زوجته. كانت روكسلانا من الفطنة بحيث أنها لم تطرح عليه أيّ سؤال عن حملته الأخيرة. اكتفت عندما دخل غرفتها بتقبيله وتبديل ملابسه. أخذت تسرّي عنه بنقل القصص والأخبار التي حدثت أثناء غيابه. عندما رأت الإرهاق باديًا على وجهه اقترحت عليه أن يستلقي على السرير وأخذت تمسح شعره وتدلك قدميه إلى أن أغمض عينيه. في الخارج كانت الشمس تتمايل نحو الغروب، وكانت الأرياح تتلاعب بأغصان الحديقة المحيطة بالممشى الواصل بين السراي القديم وجناح السلطان.

فجأة، دوّت صرخة عالية. قفز سليمان من السرير وتوجه إلى الشرفة المطلّة على الممشى حيث صدر الصوت. هناك، ومن زاويته الضيقة، رأى إحدى جواري القصر تجثو على ركبتيها، وهي تتطلع برعب إلى شيء في الحائط. سرعان ما رأى مقدّم الحرس ورئيس الخصيان يسرعان إلى موضعها، لكنهما ـ وبعد أن وقعت عينا كلٍّ منهما على موضع نظرها ـ إذا بهما يتسمّران مكانهما وقد علّت وجهيهما نفس ملامح الفزع.

سارع سليمان بلبس هندامه واتجه إلى الأسفل. كان الممشى يغصّ بالخصيان والخدم، وكانت المشربيّات والدُرف على طول الممشى مُشرعة على المنظر الغريب وقد تجمهر حريم القصر خلفها. عندما وصل السلطان إلى موقع الجَلَبة، انكبّ بين قدميه مقدّم الحرس ورئيس الخصيان وهما يرتجفان رعبًا. أمامه على الحائط، رأى سليمان كتابة على الجدار بخط عثمانيّ كبير ولون أحمرَ قانٍ لا يمكن أن يكون إلا دمًا. على الجدار قرأ سليمان:

«يا سلطان سليمان، هل حسبت أن الله لا يعلم ما في السرائر وما تخفي الصدور؟ هو يعلم أنك قاتلُ ابنك، وهو يعلم أنك ناكثُ عهدك، وهو يعلم أنك ترتاب في زوجِك. هو يعلم لكنك لا تعلم أن الأسرار تتجمع لا تتفرق، وأن من عمل ضد نواميس الكون ضربه الله فوق هامته».

تمتمَ رئيس الحرس بصوت مرتجف:

«أقسم يا مولاي أن أحدًا لم يتسلل من الخارج».

أضاف رئيس الخصيان بصوت لا يقل ارتجافًا:

«إن أذن مولاي، سأجري تحقيقًا مع جميع من في السراي».

لكن سليمان لم يلقِ لهما بالًا. كان منشغلًا بتدّبر الكلمات التي قرأها على الجدار. كيف علم الكاتب بكل هذه الأسرار؟ كيف علم بمقتل ابنه مصطفى، بالقسم الذي قطعه أمام إبراهيم، بشكوكه حول زوجته روكسلانا؟ هذه أسرار لا يعلمها أحد، ولم يتجرأ هو أن يبوح بها إلا إلى جمجمة ابنه النخرة. لكن لم تكن هذه هي الفكرة التي توقف

عندها طويلًا، وإنما ما جاء في السطر الأخير: مَن عمل ضد نواميس الكون ضربه الله فوق هامته. أحسّ سليمان بغصة مريرة وكأنّ يدّ الله فعلًا ضربته. لا يمكن أن تكون هذه كلمات رجلٍ يريد أن يخرّب أو يهدد. إنها كلمات إرادة علوية، إرادة تعلم كل شيء وتفهم كل شيء. من يعمل ضد نواميس الكون يضربه الله فوق هامته! لا بدّ أن المقصود هو ذاك الجهاز الشاذ الذي أنشأه: وزارة الأسرار. ذاك النبتُ الشيطاني، ذاك النتوء الفاسد. الأسرار تتجمع لا تتفرق. نعم، نعم، هكذا خلق الله الدنيا، هذه هي النواميس التي تحكم الكون. لهذا السبب كان يحرص على تسقّط جميع الأسرار والأقاويل. ربما هناك شيء في طبيعة الأسرار يجعلها تنجذب إلى بعضها بعضًا لتتلاصق وتجتمع، تمامًا كحجر المغناطيس. لا بدّ أن هذا هو الناموس الذي يحكم نمو المعرفة وتراكمها. لا بدّ أنه نفس الناموس الذي يجعل ثلاثة أشخاص ينحنون برؤوسهم حتى تتلاصق ويتسارون، إنه حجر المغناطيس في رؤوسهم، إنها الأسرار وهي تحركهم. وها هو يأتي - بكل جبروته وحماقته وطغيانه - كي يعمل ضد هذا الناموس الكوني، كي ينشئ هذا الجهاز اللعين الشاذ وزارةَ الأسرار، فيفرق الأسرار بعد أن تجمعت، ويبعدها عن بعضها بعضًا مئات ومئات من الأميال.

تنبه سليمان لما حوله حينما بدأ خصيان القصر بإشعال مصابيح الزيت وخفض القناديل. كان مقدّم الحرس ورئيس الخصيان لا يزالان جاثيين بين قدميه. أشار سليمان لهما كي ينهضا.

«مُرْ أحد العبيد أن يمسح الكتابة». قالها وهو يستدير بجسده منصرفًا.

«ماذا عن التحقيق يا مولاي؟» سأل رئيسُ الخصيان.

«فقط تأكد من مسح الكتابة».

توجه السلطان إلى جناحه بخطى بطيئة متمهلة. اشتدت هبة الريح وكادت أن تسقط عمامته. تطلع فوقه، فرأى قبة الفلك وقد امتدت واستدارت فوقه وكأنها عمامة هائلة. تساءل في داخله عن كنه النواميس التي تحرك الأفلاك وتبقي النجوم معلقة في مكانها لا تسقط. عندما استلقى على فراشه كان قد عقد العزمَ على حلّ وزارة الأسرار. في تلك الليلة، نام سليمان. نام كما لم ينم من قبل. نام نومًا عميقًا هادئًا، تمامًا كما كان يفعل أثناء طفولته.

الكتاب

في هذه المجموعة القصصية، سوف يقابل القارئ شخصياتٍ تاريخية تنحدر من كافة المشارب والعصور: موسيقيين كزرياب، وشعراء كالمتنبي وحافظ الشيرازي ومجنون ليلى، وسلاطين كسليمان القانوني والحاكم بأمر الله، وحكماء كابن النفيس وجيوردانو برونو، وزعماء قبائل كالشيخ راكان ابن حثلين. لكن الزمن التاريخي هنا ليس نوعًا من النوستالجيا أو هروبًا إلى الوراء، وإنما هو فضاء افتراضي يعالج فيه المؤلف قضايا فلسفية تلقي بظلها العريض على الماضي وتمتد حتى زمننا الحاضر، وهو أيضًا دعوة إلى العيش بطريقة معنية وأصيلة تكاد تنقرض في زمننا الشاحب هذا؛ كأن تطرقك فكرة وسط الليل تخرجك من مرقدك وتجعلك تذرع أزقة المدينة كلها تحت إلحاح هذه الفكرة!

ISBN 978-614-418-315-1
9 786144 183151
جداول Jadawel
www.jadawel.net